تفسير القرآن الكريم

تفسير سورة النساء

إعداد

يوسف بن عبد العزيز بن عبد الرحمن السيف

سنة النشر

١٤٤٣هـ / ٢٠٢٢م

شبكة الألوكة
www.alukah.net

سورة النساء

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

❁ ﴿يا أيها الناس اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ آدم -عليه السلام-.

❁ ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ حَوَّاءُ خُلِقَتْ مِنْ ضِلْعٍ مِنْ أَضْلَاعِ آدَمَ كَمَا يَقْتَضِيهِ ظَاهِرُ قَوْلِهِ: ﴿مِنْهَا﴾، وَقَدْ ثَبَتَ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «وَاسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ خَيْرًا، فَإِنَّهُنَّ خُلِقْنَ مِنْ ضِلْعٍ، وَإِنَّ أَعْوَجَ شَيْءٍ فِي الضِّلَعِ أَعْلَاهُ، فَإِنْ ذَهَبْتَ تُقِيمُهُ كَسَرْتَهُ وَإِنْ تَرَكْتَهُ لَمْ يَزَلْ أَعْوَجَ، فَاسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ خَيْرًا»[١].

❁ ﴿وَبَثَّ﴾؛ أَيْ: فَرَّقَ وَنَشَرَ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ﴾ [القارعة: ٤]؛ أَيْ: الْمُنْتَشِرِ.

❁ ﴿مِنْهُمَا﴾ الضَّمِيرُ رَاجِعٌ إِلَى آدَمَ وَحَوَّاءَ -عَلَيْهِما السَّلَامُ-، ﴿رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾ كَثِيرَاتٍ، وَتَرْكُ التَّصْرِيحِ بِذَلِكَ اكْتِفَاءً بِالْوَصْفِ الْأَوَّلِ.

❁ ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ﴾؛ أَيْ: تَتَسَاءَلُونَ فِيمَا بَيْنَكُمْ حَوَائِجَكُمْ وَحُقُوقَكُمْ بِهِ، وَتَقُولُونَ: أَسْأَلُكَ بِاللهِ أَنْ تَفْعَلَ كَذَا، وَهَذَا فِيهِ جَوَازُ الْمَسْأَلَةِ بِاللهِ.

➥ وَأَخْرَجَ بَعْضُ أَهْلِ السُّنَنِ بِإِسْنَادٍ صَحِيحٍ عَنْ عَبْدِاللهِ بْنِ عُمَرَ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا- أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «مَنْ سَأَلَ بِاللهِ فَأَعْطُوهُ»[٢]، وَإِجَابَتُهُ قَدْ تَكُونُ مَشْرُوعَةً وَقَدْ تَكُونُ غَيْرَ مَشْرُوعَةٍ.

---

[١] أخرجه البخاري (٣٣٣١)، ومسلم (١٤٦٨).
[٢] أخرجه أبو داود (١٦٧٢)، والنسائي (٢٥٦٧)، وأحمد (٥٣٦٥).

فَلَوْ سَأَلَ مَا لَا حَقَّ لَهُ فَلَا تُشْرَعُ إِجَابَتُهُ، أَمَّا إِذَا سَأَلَ حَقًّا لَهُ فَتُشْرَعُ إِجَابَتُهُ، **وَقَدْ تَجِبُ كَأَنْ يَقُولَ مَثَلًا**: أَسْأَلُكَ بِاللهِ أَنْ تَرُدَّ دَيْنِي الَّذِي عِنْدَكَ، فَهَذَا تَجِبُ إِجَابَتُهُ؛ لِأَنَّهُ سَأَلَ حَقًّا لَهُ.

❁ ﴿وَالْأَرْحَامَ﴾ عَطْفٌ عَلَى لَفْظِ الْجَلَالَةِ؛ أَيْ: وَاتَّقُوا الْأَرْحَامَ أَنْ تَقْطَعُوهَا.

➥ وَعَنْ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ عَائِشَةَ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا- قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**الرَّحِمُ مُعَلَّقَةٌ بِالْعَرْشِ تَقُولُ مَنْ وَصَلَنِي وَصَلَهُ اللَّهُ، وَمَنْ قَطَعَنِي قَطَعَهُ اللَّهُ**»[٣]، وَالرَّحِمُ هِيَ الْقَرَابَةُ وَالنَّسَبُ.

❁ **وَفِيهِ قِرَاءَةٌ سَبْعِيَّةٌ صَحِيحَةٌ بِالْجَرِّ ﴿وَالْأَرْحَامِ﴾ وَمَعْنَاهَا**: أَنْ يَسْأَلَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا بِاللهِ وَالرَّحِمِ، كَقَوْلِ الرَّجُلِ: "**سَأَلْتُك بِاللهِ وَالرَّحِمِ**"، وَهُوَ جَائِزٌ عَلَى الْأَظْهَرِ مِنْ قَوْلَيْ الْعُلَمَاءِ، وَهُوَ مِنَ التَّوَسُّلِ وَالِاسْتِعْطَافِ بِحَقِّ الرَّحِمِ، وَلَيْسَ مِنَ الْحَلِفِ الْمَنْهِيِّ عَنْهُ، وَقَدْ تَكَلَّمَ بَعْضُ النُّحَاةِ فِي هَذِهِ الْقِرَاءَةِ، وَكَلَامُهُمْ مَرْدُودٌ عِنْدَ الْمُحَقِّقِينَ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ؛ لِأَنَّ الْقِرَاءَةَ ثَبَتَتْ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، وَإِذَا ثَبَتَتْ عَنْهُ فَمَنْ رَدَّ ذَلِكَ فَقَدْ رَدَّ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ وَاسْتَقْبَحَ مَا قَرَأَ بِهِ، وَهَذَا مَقَامٌ مَحْذُورٌ -كَمَا قَالَ ذَلِكَ أَبُو نَصْرِ بْنُ الْقُشَيْرِيُّ -رَحِمَهُ اللَّهُ-.[٤]

❁ **﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾**؛ أَيْ: حَافِظًا يَرْقُبُ عَلَيْكُمْ أَعْمَالَكُمْ، وَمَنِ اسْتَشْعَرَ بِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى رَقِيبٌ عَلَيْهِ فَسَيَحْذَرُ مِنْ مُخَالَفَةِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَيُوجِبُ لَهُ ذَلِكَ مُرَاقَبَتَهُ وَخَشْيَتَهُ وَشِدَّةَ الْحَيَاءِ مِنْهُ وَذَلِكَ بِلُزُومِ تَقْوَاهُ، وَقَدْ كَانَ مِنْ هَدْيِ النَّبِيِّ ﷺ أَنْ يَقْرَأَ هَذِهِ الْآيَةَ فِي خُطْبَةِ الْحَاجَةِ الَّتِي كَانَ يَسْتَفْتِحُ بِهَا خُطَبَهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

﴿وَءَاتُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰٓ أَمۡوَٰلَهُمۡۖ وَلَا تَتَبَدَّلُواْ ٱلۡخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِۖ وَلَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَهُمۡ إِلَىٰٓ أَمۡوَٰلِكُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبٗا كَبِيرٗا﴾ [النساء: ٢].

❁ **﴿وَآتُوا الْيَتَامَى أَمْوَالَهُمْ﴾** الْخِطَابُ لِلْأَوْلِيَاءِ وَالْأَوْصِيَاءِ؛ أَيْ: أَعْطُوهُمْ أَمْوَالَهُمْ كَامِلَةً إِذَا بَلَغُوا. وَالْيَتَامَى: جَمْعُ يَتِيمٍ، وَهُوَ الَّذِي مَاتَ أَبُوهُ وَهُوَ صَغِيرٌ لَمْ يَبْلُغِ الْحُلُمَ.

---

[٣] أخرجه مسلم (٢٥٥٥).
[٤] إبراز المعاني من حرز الأماني لأبي شامة المقدسي، ص: ٤١٢.

❁ ﴿وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ﴾؛ أَيْ: وَلَا تَسْتَبْدِلُوا الْجَيِّدَ مِنْ مَالِ الْيَتِيمِ، وَتَجْعَلُونَ مَكَانَهُ الرَّدِيءَ مِنْ أَمْوَالِكُمْ.

❁ ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ﴾؛ أَيْ: لَا تُضِيفُوا أَمْوَالَ الْيَتَامَى إِلَى أَمْوَالِكُمْ إِذَا احْتَجْتُمْ إِلَيْهَا، وَقَوْلُهُ: ﴿إِلَى أَمْوَالِكُمْ﴾ لَيْسَ قَيْدًا بَلْ يَحْرُمُ أَكْلُ أَمْوَالِ الْيَتَامَى مُطْلَقًا، سَوَاءٌ كَانَ لِلْآكِلِ مَالٌ يُضَمُّ إِلَيْهِ مَالُ الْيَتِيمِ أَمْ لَمْ يَكُنْ.

❁ ﴿إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا﴾؛ أَيْ: إِثْمًا كَبِيرًا، وَقَدْ دَلَّتْ هَذِهِ الْآيَةُ عَلَى الْعِنَايَةِ بِأَمْوَالِ الْيَتَامَى وَحِفْظِهَا وَالِاحْتِيَاطِ الشَّدِيدِ فِي ذَلِكَ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [الأنعام: ١٥٢]، كَمَا دَلَّتْ أَيْضًا عَلَى أَنَّهُ يَحْرُمُ عَلَى الْأَوْلِيَاءِ وَالْأَوْصِيَاءِ أَنْ يَتَصَرَّفُوا فِي أَمْوَالِ الْيَتَامَى تَصَرُّفًا يُؤَدِّي إِلَى الْإِضْرَارِ بِهَا، كَمَا أَنَّهُ لَيْسَ فِي الْآيَةِ مَا يَدُلُّ عَلَى تَحْرِيمِ خَلْطِ مَالِ الْيَتِيمِ مَعَ مَالِ الْوَلِيِّ أَوْ الْوَصِيِّ، إِنَّمَا فِيهَا تَحْرِيمُ أَكْلِ مَالِهِ، أَمَّا خَلْطُ مَالِ الْيَتِيمِ مَعَ مَالِ الْوَلِيِّ أَوْ الْوَصِيِّ إِذَا كَانَ لِغَرَضِ الْإِصْلَاحِ فَلَا بَأْسَ بِهِ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ﴾ [البقرة: ٢٢٠]، وَأَيْضًا قَوْلُه تَعَالَى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾؛ أَيْ: لَا تَقْرَبُوا مَالَهُ إِلَّا بِمَا فِيهِ صَلَاحُهُ، فَإِذَا كَانَ خَلْطُهُ فِيهِ صَلَاحٌ لِمَالِهِ فَلَا بَأْسَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا﴾ [النساء: ٣].

❁ عَنْ عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا– أَنَّهُ سَأَلَ عَائِشَةَ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا–، عَنْ قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا﴾، فَقَالَتْ: «يَا ابْنَ أُخْتِي هِيَ الْيَتِيمَةُ تَكُونُ فِي حَجْرِ وَلِيِّهَا تُشَارِكُهُ فِي مَالِهِ، فَيُعْجِبُهُ مَالُهَا وَجَمَالُهَا، فَيُرِيدُ وَلِيُّهَا أَنْ يَتَزَوَّجَهَا، بِغَيْرِ أَنْ يُقْسِطَ فِي صَدَاقِهَا، فَيُعْطِيَهَا مِثْلَ مَا يُعْطِيهَا غَيْرُهُ، فَنُهُوا أَنْ يَنْكِحُوهُنَّ إِلَّا أَنْ يُقْسِطُوا لَهُنَّ، وَيَبْلُغُوا بِهِنَّ أَعْلَى سُنَّتِهِنَّ مِنَ الصَّدَاقِ، وَأُمِرُوا أَنْ يَنْكِحُوا مَا طَابَ لَهُمْ مِنَ النِّسَاءِ سِوَاهُنَّ، قَالَ عُرْوَةُ: قَالَتْ عَائِشَةُ: ثُمَّ إِنَّ النَّاسَ اسْتَفْتَوْا رَسُولَ اللهِ ﷺ بَعْدَ هَذِهِ الْآيَةِ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ﴾ [النساء: ١٢٧]». [٥]

❁ وَفِي رِوَايَةٍ عِنْدَ الْبُخَارِيِّ عَنْ عُرْوَةَ عَنْ عَائِشَةَ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا–: «أَنَّ رَجُلًا كَانَتْ لَهُ يَتِيمَةٌ فَنَكَحَهَا، وَكَانَ لَهَا عَذْقٌ، وَكَانَ يُمْسِكُهَا عَلَيْهِ، وَلَمْ يَكُنْ لَهَا مِنْ نَفْسِهِ شَيْءٌ فَنَزَلَتْ فِيهِ ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَنْ لَا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى﴾ أَحْسِبُهُ قَالَ: كَانَتْ شَرِيكَتُهُ فِي ذَلِكَ العَذْقِ وَفِي مَالِهِ». [٦]

❁ ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ﴾؛ أَيْ: وَإِنْ ظَنَنْتُمْ ﴿أَلَّا تُقْسِطُوا﴾ تَعْدِلُوا ﴿فِي الْيَتَامَى﴾ اللَّاتِي تَحْتَ أَيْدِيكُمْ إِذَا تَزَوَّجْتُمْ بِهِنَّ بِإِسَاءَةِ الْعِشْرَةِ أَوْ بِنَقْصِ مُهُورِهِنَّ فَلَا تُعْطُوهُنَّ مِنَ الْمَهْرِ مِثْلَ بَاقِي النِّسَاءِ، فَاطْلُبُوا غَيْرَهُنَّ مِنَ النِّسَاءِ وَلَا تَنْكِحُوهُنَّ، فَالنِّسَاءُ سِوَاهُنَّ كَثِيرٌ.

↩ **وَيُفْهَمُ مِنَ الْآيَةِ:** جَوَازُ نِكَاحِ الْيَتَامَى إِذَا لَمْ يَخَافُوا عَدَمَ الْعَدْلِ فِيهِنَّ، وَهَذَا قَوْلُ أَكْثَرِ الْفُقَهَاءِ لِهَذِهِ الْآيَةِ؛ وَلِحَدِيثِ عَائِشَةَ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا– فِي تَفْسِيرِهَا ﴿فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ﴾ وَلَا تَزِيدُوا عَلَى ذَلِكَ، وَهَذَا فِيهِ أَنَّ الْعَدَدَ الَّذِي يُبَاحُ جَمْعُهُ مِنَ النِّسَاءِ أَرْبَعٌ فَقَطْ وَهَذَا بِالْإِجْمَاعِ.

---

[٥] أخرجه البخاري (٢٤٩٤)، ومسلم (٣٠١٨).
[٦] أخرجه البخاري (٤٥٧٣).

↩ وَقَدْ دَلَّتْ عَلَيْهِ السُّنَّةُ؛ فَعَنْ سَالِمٍ عَنْ أَبِيهِ؛ أَنَّ غَيْلَانَ بْنَ سَلَمَةَ أَسْلَمَ وَلَهُ عَشْرُ نِسْوَةٍ، فَأَسْلَمْنَ مَعَهُ، فَأَمَرَهُ النَّبِيُّ ﷺ أَنْ يَتَخَيَّرَ مِنْهُنَّ أَرْبَعًا.[٧]

❁ ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا﴾؛ أَيْ: إِنْ ظَنَنْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فِيهِنَّ بِالنَّفَقَةِ وَالْقَسْمِ ﴿فَوَاحِدَةً﴾؛ أَيْ: فَاقْتَصِرُوا عَلَى وَاحِدَةٍ وَلَا تَزِيدُوا عَلَيْهَا ﴿أَوْ﴾ اقْتَصِرُوا عَلَى ﴿مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ مِنَ الْإِمَاءِ إِذْ لَيْسَ لَهُنَّ مِنَ الْحُقُوقِ مَا لِلزَّوْجَاتِ.

❁ ﴿ذَلِكَ﴾؛ أَيْ: التَّقْلِيلُ، أَوْ اخْتِيَارُ الْوَاحِدَةِ أَوْ التَّسَرِّي ﴿أَدْنَى أَلَّا تَعُولُوا﴾؛ أَيْ: أَقْرَبُ إِلَى عَدَمِ الْجَوْرِ وَالظُّلْمِ، وَفِي الْآيَةِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ مَنْ ظَنَّ عَدَمَ الْقُدْرَةِ عَلَى الْعَدْلِ بَيْنَ الزَّوْجَاتِ فَلَا يُعَدِّد.

﴿وَءَاتُواْ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا﴾ [النساء: ٤].

❁ ﴿وَآتُوا﴾ أَعْطُوا ﴿النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ﴾ مُهُورَهُنَّ، وَالْخِطَابُ لِلْأَوْلِيَاءِ أَوْ الْأَزْوَاجِ ﴿نِحْلَةً﴾ عَنْ طِيبِ نَفْسٍ.

❁ ﴿فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ﴾ لِلْأَزْوَاجِ ﴿عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ﴾؛ أَيْ: مِنَ الْمَهْرِ ﴿نَفْسًا﴾ تَمْيِيزٌ، وَالْمَعْنَى: فَإِنْ طَابَتْ أَنْفُسُهُنَّ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنَ الْمَهْرِ ﴿فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَرِيئًا﴾ حَلَالًا طَيِّبًا، وَالْآيَةُ فِيهَا:

١. وُجُوبُ الْمَهْرِ عَلَى الْأَزْوَاجِ لِزَوْجَاتِهِمْ، وَهَذَا بِإِجْمَاعِ أَهْلِ الْعِلْمِ.

٢. وَفِيهَا أَيْضًا أَنَّ الْمَهْرَ حَقٌّ لِلزَّوْجَةِ لَا حَقَّ فِيهِ لِلْأَبِ أَوْ غَيْرِهِ.

[٧] أخرجه الترمذي (١١٢٨)، وابن ماجه (١٩٥٣)، وأحمد (٤٦٠٩)، ومالك في الموطأ (٢١٧٩). قال الترمذي في العلل الكبير (١/ص: ٤٤٥): سألت محمدا -يعني البخاري- عن حديث معمر، عن الزهري، عن سالم عن أبيه: أن غيلان...، فقال: هو حديث غير محفوظ، إنما روى هذا معمر بالعراق.

٣. وَفِيهَا جَوَازُ هِبَةِ الزَّوْجَةِ شَيْئًا مِنْ مَهْرِهَا لِزَوْجِهَا بِطِيبِ نَفْسٍ مِنْهَا وَلِلزَّوْجِ أَخْذُهُ وَالِانْتِفَاعُ بِهِ، وَلَيْسَ لَهَا أَنْ تُسْقِطَهُ كُلَّهُ وَلَوْ كَانَ بِطِيبِ نَفْسٍ مِنْهَا؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ: ﴿فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ﴾ وَلَمْ يَقُلْ كُلُّهُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

﴿وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا وَٱكْسُوهُمْ وَقُولُوا۟ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ [النساء: ٥].

❁ ﴿وَلَا تُؤْتُوا﴾ أَيُّهَا الْأَوْلِيَاءُ ﴿السُّفَهَاءَ﴾ جَمْعُ سَفِيهٍ، وَهُوَ الَّذِي لَا يُحْسِنُ التَّصَرُّفَ فِي مَالِهِ ﴿أَمْوَالَكُمْ﴾؛ أَيْ: أَمْوَالَهُمُ الَّتِي تَحْتَ أَيْدِيكُمْ ﴿الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا﴾؛ أَيْ: تَقُومُ بِهَا مَعَايِشُكُمْ وَصَلَاحُ دِينِكُمْ فَلَا تَجْعَلُوهَا فِي يَدِ مَنْ يُضَيِّعُهَا.

❁ ﴿وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا﴾؛ أَيْ: أَطْعِمُوهُمْ وَأَعْطُوهُمْ مِنْهَا؛ لأنَّ "فِي" هَهُنَا بِمَعْنَى "مِنْ"، وَقَالَ: ﴿فِيهَا﴾، وَلَمْ يَقُلْ "مِنْهَا" إِشَارَةً إِلَى أَنَّ الْمَالَ يَنْبَغِي أَنْ يُتَّجَرَ بِهِ فَيَبْقَى رَأْسُ الْمَالِ، وَالْأَكْلُ يَكُونُ مِنَ الرِّبْحِ فَقَطْ.

↩ وَفِي حَدِيثِ عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «مَنْ وَلِيَ يَتِيمًا لَهُ مَالٌ، فَلْيَتَّجِرْ لَهُ، وَلَا يَتْرُكْهُ حَتَّى تَأْكُلَهُ الصَّدَقَةُ»[٨].

❁ ﴿وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾ كَلَامًا لَيِّنًا تَطِيبُ بِهِ نُفُوسُهُمْ وَتَنْشَرِحُ بِهِ صُدُورُهُمْ، وَمِنْ ذَلِكَ أَنْ يَعِدُوهُمْ عِدَةً حَسَنَةً؛ كَأَنْ يَقُولُوا لَهُمْ إِذَا أَحْسَنْتُمُ التَّصَرُّفَ فِي الْمَالِ سَلَّمْنَا إِلَيْكُمْ أَمْوَالَكُمْ.

↩ وَفِي هَذِهِ الْآيَةِ وُجُوبُ الْحَجْرِ عَلَى السَّفِيهِ؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَمَرَ بِهِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ، وَهِيَ أَصْلٌ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ، وَمَعْنَى الْحَجْرِ -كَمَا قَالَ الْفُقَهَاءُ-: مَنْعُ الْإِنْسَانِ مِنَ التَّصَرُّفِ فِي مَالِهِ لِسَبَبٍ مِنَ الْأَسْبَابِ، كَالصِّغَرِ، وَالْجُنُونِ، وَالسَّفَهِ، وَيَنْقَسِمُ الْحَجْرُ إِلَى قِسْمَيْنِ:

[٨] أخرجه الترمذي (٦٤١) وقال: فيه المثنى بن الصباح يُضَعَّفُ في الحَدِيثِ. والدارقطني في سننه (١٩٧٠).

☆ اَلْقِسْمُ الْأَوَّلُ: **حَجْرٌ لِمَصْلَحَةِ الْمَحْجُورِ عَلَيْهِ**؛ كَحَجْرِ الْمَجْنُونِ وَالصَّغِيرِ وَالسَّفِيهِ.

☆ اَلْقِسْمُ الثَّانِي: **حَجْرٌ لِمَصْلَحَةِ الْغَيْرِ**، وَهُوَ كَحَجْرِ الْمَدِينِ الْمُفْلِسِ لِحَقِّ الْغُرَمَاءِ -الدَّائِنِينَ- ، وَمَرِيضٍ مَرَضَ الْمَوْتِ لِحَقِّ الْوَرَثَةِ فِيمَا زَادَ عَنْ ثُلُثِ التَّرِكَةِ. وَلِلْحَجْرِ أَحْكَامٌ كَثِيرَةٌ مَبْثُوثَةٌ فِي كُتُبِ الْفِقْهِ بِالْإِمْكَانِ مُرَاجَعَتُهَا.

↩ **وَفِي الْآيَةِ** وُجُوبُ الْمُحَافَظَةِ عَلَى الْأَمْوَالِ، وَأَيْضًا حِفْظُ حُقُوقِ النَّاسِ، وَلِذَلِكَ شُرِعَ الْحَجْرُ عَلَى مَنْ يَسْتَحِقُّهُ حِفَاظًا عَلَى أَمْوَالِ النَّاسِ وَحُقُوقِهِمْ، وَفِيهَا أَيْضًا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ نَفَقَةَ السَّفِيهِ وَالْمَجْنُونِ وَالصَّغِيرِ تَكُونُ مِنْ أَمْوَالِهِمْ.

﴿وَٱبۡتَلُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ فَإِنۡ ءَانَسۡتُم مِّنۡهُمۡ رُشۡدٗا فَٱدۡفَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ أَمۡوَٰلَهُمۡۖ وَلَا تَأۡكُلُوهَآ إِسۡرَافٗا وَبِدَارًا أَن يَكۡبَرُواْۚ وَمَن كَانَ غَنِيّٗا فَلۡيَسۡتَعۡفِفۡۖ وَمَن كَانَ فَقِيرٗا فَلۡيَأۡكُلۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ فَإِذَا دَفَعۡتُمۡ إِلَيۡهِمۡ أَمۡوَٰلَهُمۡ فَأَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِمۡۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبٗا﴾ [النساء: ٦].

❁ ﴿وَابْتَلُوا الْيَتَامَى﴾؛ أَيْ: اخْتَبِرُوهُمْ مِرَارًا ﴿حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ﴾؛ **أَيْ: بَلَغُوا سِنَّ النِّكَاحِ بِإِحْدَى عَلَامَاتِ الْبُلُوغِ الْخَمْسَةِ الَّتِي دَلَّتْ عَلَيْهَا السُّنَّةُ:**

١. الِاحْتِلَامُ.

٢. أَوْ اسْتِكْمَالُ خَمْسَ عَشْرَةَ سَنَةً.

٣. أَوْ إِنْبَاتُ الشَّعْرِ الْخَشِنِ حَوْلَ الْفَرْجِ.

☆ **وَهَذِهِ الْعَلَامَاتُ مُشْتَرَكَةٌ بَيْنَ الذُّكُورِ وَالْإِنَاثِ.**

☆ **وَاثْنَانِ مُخْتَصَّانِ بِالنِّسَاءِ وَهُمَا:**

٤. الْحَيْضُ.

٥. وَالْحَبَلُ.

❁ ﴿فَإِنْ آنَسْتُمْ﴾؛ أَيْ: أَبْصَرْتُمْ وَرَأَيْتُمْ ﴿مِنْهُمْ رُشْدًا﴾ **الرُّشْدُ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ**: صَلَاحُ الْعَقْلِ وَحُسْنُ التَّصَرُّفِ فِي الْمَالِ.

❁ ﴿فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ﴾ كَامِلَةً مِنْ غَيْرِ نَقْصٍ، **وَقَدْ دَلَّتْ الْآيَةُ عَلَى أَنَّ دَفْعَ الْمَالِ إِلَى الْيَتِيمِ يَكُونُ بِأَمْرَيْنِ:**

- **الْأَوَّلُ**: إِيناسُ الرُّشْدِ.

- **وَالثَّانِي**: الْبُلُوغُ.

فَإِنْ وُجِدَ أَحَدُهُمَا دُونَ الْآخَرِ لَمْ يَجُزْ تَسْلِيمُ الْمَالِ إِلَيْهِ، وَقَوْلُهُ: ﴿فَادْفَعُوا﴾ جَوَابُ الشَّرْطِ لِقَوْلِهِ: ﴿فَإِنْ ءَانَسْتُمْ﴾؛ لِأَنَّ جَوَابَ الشَّرْطِ يَقْتَرِنُ بِالْفَاءِ فِي سِتِّ حَالَاتٍ؛ جَمَعَهَا النَّاظِمُ بِقَوْلِهِ:

إِسْمِيَّةٌ طَلَبِيَّةٌ وَبِجَامِدٍ ... وَبِمَا وَقَدْ وَلَنْ وَبِالتَّنْفِيسِ

وَالَّتِي مَعَنَا جُمْلَةٌ طَلَبِيَّةٌ

❁ ﴿وَلَا تَأْكُلُوهَا﴾؛ أَيْ أَمْوَالَهُمْ ﴿إِسْرَافًا﴾ حَالٌ أَوْ مَفْعُولٌ لِأَجْلِهِ، ﴿وَبِدَارًا﴾ عَطْفٌ ﴿أَنْ يَكْبَرُوا﴾ **وَالْمَعْنَى**: لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ مُسْرِفِينَ وَمُبَادِرِينَ كِبَرَهُمْ بِأَنْ تُفْرِطُوا فِي إِنْفَاقِهَا، وَتَقُولُوا نُنْفِقُ كَمَا نَشْتَهِي قَبْلَ أَنْ يَكْبُرَ الْيَتَامَى فَيَنْتَزِعُوهَا مِنْ أَيْدِينَا.

❁ ﴿وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا﴾ مِنَ الْأَوْلِيَاءِ ﴿فَلْيَسْتَعْفِفْ﴾ عَنْ مَالِ الْيَتِيمِ وَلَا يَأْكُلْ مِنْهُ شَيْئًا.

❁ ﴿وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ﴾ اللَّامُ لِلْأَمْرِ، وَهُوَ لِلْإِبَاحَةِ؛ لِأَنَّ الْأَظْهَرَ أَنَّ الْأَمْرَ بَعْدَ الْحَظْرِ يَعُودُ لِمَا كَانَ عَلَيْهِ الْحَالُ قَبْلَ النَّهْيِ وَهُوَ الْإِبَاحَةُ، هُنَا ﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾ وَالْمَعْرُوفُ ـ عَلَى الْمَشْهُورِ مِنَ

الْمَذْهَبِ هُوَ الْأَقَلُّ مِنْ كِفَايَتِهِ أَوْ أُجْرَةِ مِثْلِهِ، فَمَثَلًا إِذَا كَانَتْ كِفَايَتُهُ أَلْفَيْ رِيَالٍ، وَأُجْرَتُهُ أَلْفَ رِيَالٍ، فَيَأْخُذُ أَلْفَ رِيَالٍ؛ لِأَنَّهَا الْأَقَلُّ، وَلَوْ قَالَ: مَا تَكْفِينِي، وَالْأَقْرَبُ: أَنَّهُ يَأْكُلُ بِمِقْدَارِ حَاجَتِهِ.

➥ **وَقَدْ ثَبَتَ عَنْ عَائِشَةَ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا- أَنَّهَا قَالَتْ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى:** ﴿وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ﴾ أَنَّهَا: «نَزَلَتْ فِي وَالِي الْيَتِيمِ إِذَا كَانَ فَقِيرًا أَنَّهُ يَأْكُلُ مِنْهُ مَكَانَ قِيَامِهِ عَلَيْهِ بِالْمَعْرُوفِ».[٩] فَفِي الْآيَةِ تَحْرِيمُ الْأَكْلِ مِنْ مَالِ الْيَتِيمِ عَلَى الْوَلِيِّ الْغَنِيِّ، وَجَوَازُهُ لِلْوَلِيِّ الْفَقِيرِ لَكِنْ بِمِقْدَارِ حَاجَتِهِ.

❁ ﴿فَإِذَا دَفَعْتُمْ﴾ أَيُّهَا الْأَوْلِيَاءُ ﴿إِلَيْهِمْ﴾ إِلَى الْيَتَامَى ﴿أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ﴾؛ أَيْ: أَقِيمُوا مَنْ يَشْهَدُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ بِدَفْعِ الْمَالِ، وَهَذَا فِيهِ وُجُوبُ إِشْهَادِ الْوَلِيِّ عَلَى دَفْعِ الْمَالِ لِلْيَتِيمِ، وَأَنَّهُ لَا يُقْبَلُ قَوْلُهُ فِي دَفْعِ الْمَالِ إِلَّا بِبَيِّنَةٍ.

❁ ﴿وَكَفَى بِاللهِ حَسِيبًا﴾ مُحَاسِبًا لِأَعْمَالِكُمْ، وَشَاهِدًا عَلَيْكُمْ فِي كُلِّ شَيْءٍ تَعْمَلُونَهُ، وَبِالْأَخَصِّ الشَّهَادَةُ عَلَيْكُمْ بِالدَّفْعِ وَالْقَبْضِ.

﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ ۚ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾ [النساء: ٧].

❁ ﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ﴾ قِسْطٌ، **وَقَدْ أَخْرَجَ الشَّيْخَانِ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا- قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ:** «أَلْحِقُوا الْفَرَائِضَ بِأَهْلِهَا فَمَا بَقِيَ فَهُوَ لِأَوْلَى رَجُلٍ ذَكَرٍ».[١٠]

❁ ﴿مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ﴾ الْمُتَوَفَّوْنَ ﴿وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ﴾؛ أَيْ: مِنَ الْمَالِ ﴿أَوْ كَثُرَ﴾ جَعَلَهُ اللَّهُ ﴿نَصِيبًا مَفْرُوضًا﴾، وَقَدْ بَيَّنَهَا اللَّهُ تَعَالَى أَتَمَّ بَيَانٍ وَأَوْضَحَهُ فِي آيَاتِ الْمَوَارِيثِ، **وَعَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ: (أَنَّ أَهْلَ الْجَاهِلِيَّةِ كَانُوا لَا يُوَرِّثُونَ النِّسَاءَ وَلَا**

[٩] أخرجه البخاري (٤٥٧٥)، ومسلم (٣٠١٩).
[١٠] أخرجه البخاري (٦٧٣٢)، ومسلم (١٦١٥).

الْوِلْدَانَ الصِّغَارَ شَيْئًا، يَجْعَلُونَ الْمِيرَاثَ لِذِي الْأَسْنَانِ مِنْ الرِّجَالِ)[١١]، فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ الَّتِي تَدُلُّ عَلَى أَنَّ لِلنِّسَاءِ وَلِلْوِلْدَانِ حَقًّا فِي الْمِيرَاثِ كَمَا لِلرِّجَالِ .

﴿وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُوْلُواْ ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينُ فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُواْ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ [النساء: ٨].

❁ ﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ﴾؛ أَيْ: قِسْمَةَ الْمِيرَاثِ ﴿أُولُو الْقُرْبَى﴾ الَّذِينَ لَا يَرِثُونَ ﴿وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ﴾، وَالْمُرَادُ بِهِمْ الْأَجَانِبُ الَّذِينَ لَا قَرَابَةَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْوَرَثَةِ ﴿فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ﴾؛ أَيْ: أَعْطُوهُمْ شَيْئًا مِنَ الْمَالِ قَبْلَ قِسْمَةِ التَّرِكَةِ، وَالْأَمْرُ فِي الْآيَةِ لِلنَّدْبِ عِنْدَ بَعْضِ أَهْلِ الْعِلْمِ إِذَا كَانَ الْوَرَثَةُ كِبَارًا، أَمَّا إِذَا كَانُوا صِغَارًا فَلَيْسَ عَلَى أَوْلِيَائِهِمْ إِلَّا الْقَوْلُ الْمَعْرُوفُ.

✯ **وَقِيلَ**: بِأَنَّ الْآيَةَ مَنْسُوخَةٌ بِآيَاتِ الْمَوَارِيثِ، وَنَسَبَ الْحَافِظُ ابْنُ كَثِيرٍ هَذَا الْقَوْلَ إِلَى جُمْهُورِ الْفُقَهَاءِ وَالْأَئِمَّةِ الْأَرْبَعَةِ وَأَصْحَابِهِمْ، **وَالْأَقْرَبُ**: أَنَّ الْآيَةَ مُحْكَمَةٌ لِمَا ثَبَتَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا- أَنَّهُ قَالَ فِي الْآيَةِ: **(هِيَ مُحْكَمَةٌ وَلَيْسَتْ بِمَنْسُوخَةٍ،**[١٢] **وَفِي لَفْظٍ عَنْهُ عِنْدَ ابْنِ جَرِيرٍ**[١٣]: **هِيَ قَائِمَةٌ يُعْمَلُ بِهَا)**.[١٤]

➥ **وَفِي رِوَايَةٍ أخرى أَنَّهُ قَالَ**: **(إِنَّ أُنَاسًا يَزْعُمُونَ أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ نُسِخَتْ، لَا وَاللهِ مَا نُسِخَتْ، وَلَكِنَّهَا مِمَّا تَهَاوَنَ بِهِ النَّاسُ)**،[١٥] وَالْأَمْرُ فِيهَا مُحْتَمِلٌ لِلْوُجُوبِ وَالنَّدْبِ، فَيُشْرَعُ إِعْطَاءُ مَنْ حَضَرَ الْقِسْمَةَ إِكْرَامًا وَفَضْلًا وَاللهُ أَعْلَمُ.

❁ ﴿وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾ جَمِيلًا طَيِّبًا تَطِيبُ بِهِ نُفُوسُهُمْ، وَهَذَا إِحْسَانٌ لَهُمْ بِالْقَوْلِ وَالْفِعْلِ.

---

[١١] أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (٤٨٤٣).
[١٢] أخرجه البخاري (٤٥٧٦).
[١٣] تفسير الطبري (٣/ص: ٦٠٦).
[١٤] انظر تفسير ابن كثير (٢/ص: ١٩٢).
[١٥] أخرجه البخاري (٢٧٥٩).

﴿وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُواْ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا خَافُواْ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا﴾ [النساء: ٩].

❁ ﴿وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا﴾؛ أَيْ: وَلْيَخْشَ أَوْلِيَاءُ الْيَتَامَى الَّذِينَ تَرَكُوا ﴿مِنْ خَلْفِهِمْ﴾؛ أَيْ: بَعْدَ مَوْتِهِمْ ﴿ذُرِّيَّةً ضِعَافًا﴾ أَوْلَادًا صِغَارًا ﴿خَافُوا عَلَيْهِمْ﴾ مِنَ الْجَوْرِ وَالظُّلْمِ، وَأَنْ تُؤْكَلَ أَمْوَالُهُمْ وَتَضِيعَ حُقُوقُهُمْ.

❁ ﴿فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ﴾ فِي أَمْرِ الْيَتَامَى، وَيَفْعَلُوا بِهِمْ الْفِعْلَ الَّذِي يُحِبُّونَ أَنْ يُفْعَلَ مَعَ ذُرِّيَّاتِهِمْ الضِّعَافِ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهِمْ، فَالَّذِي لَا يَرْضَاهُ لِذُرِّيَّتِهِ بَعْدَ مَوْتِهِ لَا يَرْضَاهُ لِهَؤُلَاءِ الْيَتَامَى.

➥ وَقَدْ أَخْرَجَ الشَّيْخَانِ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ– خَادِمِ رَسُولِ اللهِ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّهُ لِنَفْسِهِ».[١٦]

❁ ﴿وَلْيَقُولُوا﴾ لِلْيَتَامَى ﴿قَوْلًا سَدِيدًا﴾ مُوَافِقًا لِلْحَقِّ وَالصَّوَابِ.

✹ وَالْآيَةُ فِيهَا فَائِدَةٌ عَظِيمَةٌ وَهِيَ: أَنَّ عَلَى الْمُؤْمِنِ أَنْ يُحِبَّ لِلْمُؤْمِنِينَ مَا يُحِبُّهُ لِنَفْسِهِ وَيَكْرَهُ لَهُمْ مَا يَكْرَهُ لِنَفْسِهِ؛ كَمَا دَلَّ عَلَى هَذَا حَدِيثُ أَنَسٍ الْمُتَقَدِّمِ.

✯ وَأَيْضًا حَدِيثُ عَبْدِاللهِ بْنِ عَمْرٍو الطَّوِيلِ وَفِيهِ: (فَمَنْ أَحَبَّ أَنْ يُزَحْزَحَ عَنِ النَّارِ وَيُدْخَلَ الْجَنَّةَ فَلْتَأْتِهِ مَنِيَّتُهُ وَهُوَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَلْيَأْتِ إِلَى النَّاسِ الَّذِي يُحِبُّ أَنْ يُؤْتَى إِلَيْهِ).[١٧]

✯ وَأَيْضًا حَدِيثُ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ وَفِيهِ: (وَخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ).[١٨]

---

[١٦] أخرجه البخاري (١٣)، ومسلم (٤٥).
[١٧] أخرجه مسلم (٤٦).
[١٨] أخرجه الترمذي (١٩٨٧)، وقال: هذا حديث حسن صحيح.

قَالَ ابْنُ دَقِيقِ الْعِيدِ -رَحِمَهُ اللَّهُ-: "مَعْنَاهُ: عَامِلِ النَّاسَ بِمَا تُحِبُّ أَنْ يُعَامِلُوكَ بِهِ، وَاعْلَمْ أَنَّ أَثْقَلَ مَا يُوضَعُ فِي الْمِيزَانِ حُسْنُ الْخُلُقِ".[١٩]

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلۡيَتَٰمَىٰ ظُلۡمًا إِنَّمَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ نَارٗاۖ وَسَيَصۡلَوۡنَ سَعِيرٗا﴾ [النساء: ١٠].

وُرُودُ هَذِهِ الْآيَةِ بَعْدَ الْآيَةِ السَّابِقَةِ يُرَجِّحُ قَوْلَ مَنْ قَالَ: إِنَّ الْآيَةَ السَّابِقَةَ الْخِطَابُ فِيهَا لِأَوْلِيَاءِ الْيَتَامَى.

❁ ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا﴾ بِغَيْرِ حَقٍّ ﴿إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ﴾ **وَالصَّلِيُّ**: هُوَ الشَّوْيُ؛ كَمَا فِي حَدِيثِ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- أَنَّهُ مَرَّ بِقَوْمٍ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ شَاةٌ مَصْلِيَّةٌ؛[٢٠] أَيْ: مَشْوِيَّةٌ.

❁ ﴿سَعِيرًا﴾ شَدِيدَةً، وَالْآيَةُ فِيهَا التَّحْذِيرُ الشَّدِيدُ لِلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا وَالْعِيَاذُ بِاللهِ.

➥ **وَقَدْ عَدَّهُ النَّبِيُّ ﷺ مِنَ الْمُوبِقَاتِ؛ كَمَا فِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمُوبِقَاتِ قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ: مَاهُنَّ؟ قَالَ: الشِّرْكُ بِاللهِ، وَالسِّحْرُ، وَقَتْلُ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ، وَأَكْلُ الرِّبَا، وَأَكْلُ مَالِ الْيَتِيمِ، وَالتَّوَلِّي يَوْمَ الزَّحْفِ، وَقَذْفُ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ».**[٢١]

﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡۖ لِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۚ فَإِن كُنَّ نِسَآءٗ فَوۡقَ ٱثۡنَتَيۡنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَۖ وَإِن كَانَتۡ وَٰحِدَةٗ فَلَهَا ٱلنِّصۡفُۚ وَلِأَبَوَيۡهِ لِكُلِّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٞۚ فَإِن لَّمۡ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٞ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُۚ فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخۡوَةٞ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُۚ مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ

[١٩] شرح الأربعين النووية، ص: ٧٣.
[٢٠] أخرجه البخاري (٥٤١٤).
[٢١] أخرجه (٢٧٦٦)، ومسلم (٨٩).

يُوصِي بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍۗ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ لَا تَدۡرُونَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ لَكُمۡ نَفۡعٗاۚ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمٗا﴾ [النساء: ١١].

❁ ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ﴾ يَأْمُرُكُمْ وَيَعْهَدُ إِلَيْكُمْ ﴿فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ﴾ نَصِيبِ ﴿الْأُنْثَيَيْنِ﴾ فَإِذَا هَلَكَ هَالِكٌ وَتَرَكَ ذُكُورًا وَإِنَاثًا وَلَمْ يَكُنْ هُنَاكَ وَارِثٌ غَيْرُهُمْ فَإِنَّ مِيرَاثَهُ كُلَّهُ يَكُونُ لَهُمْ، لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ، وَإِنْ تَرَكَ الْمَيِّتُ ذَكَرًا فَقَطْ حَازَ الْمَالَ كُلَّهُ.

❁ ﴿فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ﴾؛ أَيْ: ثُلُثَا التَّرِكَةِ، فَإِذَا تَرَكَ الْمَيِّتُ بَنَاتٍ فَقَطْ وَكَانَتْ هَذِهِ الْبَنَاتُ اثْنَتَيْنِ فَأَكْثَرَ فَيَكُونُ لَهُنَّ ثُلُثَا التَّرِكَةِ.

❁ فَإِنْ قُلْتَ بِأَنَّ ظَاهِرَ الْآيَةِ أَنَّ الِاثْنَتَيْنِ كَالْوَاحِدَةِ، لَا كَالثَّلَاثِ فَالْجَوَابُ مِنْ ثَلَاثَةِ أَوْجُهٍ:

❁ **الْأَوَّلُ** : أَنَّ الْقُرْآنَ دَلَّ عَلَى أَنَّ الِاثْنَتَيْنِ كَالثَّلَاثِ لَا كَالْوَاحِدَةِ، فَقَدْ جَعَلَ اللَّهُ تَعَالَى لِلْأُخْتَيْنِ الثُّلُثَيْنِ فِي آخِرِ السُّورَةِ فَقَالَ: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ فَإِنْ كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ﴾ [النساء: ١٧٦]، وَالْبِنْتَانِ أَقْرَبُ إِلَى الْمَيِّتِ مِنَ الْأُخْتَيْنِ، فَيَكُونُ لَهُمَا الثُّلُثَانِ كَمَا أَنَّ لِلْأُخْتَيْنِ الثُّلُثَيْنِ.

❁ **وَالثَّانِي**: أَنَّ السُّنَّةَ دَلَّتْ عَلَى ذَلِكَ أَيْضًا، فَعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِالله -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا- قَالَ: «جَاءَتْ امْرَأَةُ سَعْدِ بْنِ الرَّبِيعِ بِابْنَتَيْهَا مِنْ سَعْدٍ إِلَى رَسُولِ الله ﷺ، فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، هَاتَانِ ابْنَتَا سَعْدِ بْنِ الرَّبِيعِ قُتِلَ أَبُوهُمَا مَعَكَ يَوْمَ أُحُدٍ شَهِيدًا، وَإِنَّ عَمَّهُمَا أَخَذَ مَالَهُمَا فَلَمْ يَدَعْ لَهُمَا وَلَا تُنْكَحَانِ إِلَّا وَلَهُمَا مَالٌ، قَالَ يَقْضِي اللَّهُ فِي ذَلِكَ. فَنَزَلَتْ آيَةُ الْمِيرَاثِ، فَبَعَثَ رَسُولُ الله ﷺ إِلَى عَمِّهِمَا فَقَالَ: أَعْطِ ابْنَتَيْ سَعْدٍ الثُّلُثَيْنِ وَأَعْطِ أُمَّهُمَا الثُّمُنَ، وَمَا بَقِيَ فَهُوَ لَكَ».[٢٢]

[٢٢] أخرجه الترمذي (٢٠٩٢)، وقال: صحيح لا نعرفه إلا من حديث عبدالله بن محمد بن عقيل. وأخرجه ابن ماجه (٢٧٢٠)، وأحمد (١٤٨٤٠)، والحاكم (٨١٦٨)، وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

❁ **وَالثَّالِثُ**: الْإِجْمَاعُ، فَقَدْ أَجْمَعَ الْعُلَمَاءُ عَلَى أَنَّ مِيرَاثَ الْبِنْتَيْنِ الثُّلُثَانِ كَالثَّلَاثِ، كَمَا حَكَاهُ ابْنُ الْمُنْذِرِ وَغَيْرُهُ، وَيُحْكَى خِلَافُ هَذَا بِسَنَدٍ لَا يَصِحُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا-، وَالَّذِي صَحَّ عَنْهُ الْقَوْلُ بِأَنَّ الِاثْنَتَيْنِ كَالثَّلَاثِ كَمَا قَالَ الْحَافِظُ ابْنُ عَبْدِ الْبَرِّ -رَحِمَهُ اللَّهُ- وَغَيْرُهُ.

❁ ﴿**وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ**﴾؛ **أَيْ**: إِذَا تَرَكَ الْمَيِّتُ بِنْتًا وَاحِدَةً فَإِنَّهَا تَأْخُذُ النِّصْفَ، وَالْبَاقِي يَأْخُذُهُ الْعَصَبَةُ، وَكَذَلِكَ الْحَالُ إِذَا مَاتَ وَتَرَكَ بِنْتَ ابْنِهِ، وَأَمَّا إِذَا تَرَكَ بَنَاتِ ابْنِهِ فَإِنَّهُنَّ يَأْخُذْنَ الثُّلُثَيْنِ.

❁ ﴿**وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ**﴾؛ **أَيْ**: الْمَيِّتِ إِذَا تَرَكَ أَبَاهُ وَأُمَّهُ وَوَلَدَهُ فَإِنَّ أَبَاهُ يَأْخُذُ السُّدُسَ وَأُمَّهُ السُّدُسَ، وَالْبَاقِي يَرِثُهُ وَلَدُهُ.

❁ ﴿**فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ**﴾؛ أَيْ: إِذَا مَاتَ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَقَطْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ فَرْعٌ وَارِثٌ فَلِلْأُمِّ ثُلُثُ الْمَالِ وَالْبَاقِي لِلْأَبِ، ﴿**فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ**﴾؛ **أَيْ**: اثْنَانِ فَأَكْثَرُ ذُكُورًا أَوْ إِنَاثًا ﴿**فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ**﴾ وَالْبَاقِي لِلْأَبِ وَلَا شَيْءَ لِلْإِخْوَةِ، وَهَذَا قَوْلُ جَمَاهِيرِ أَهْلِ الْعِلْمِ، بَلْ حُكِيَ إِجْمَاعًا.

➥ **وَاخْتَارَ أَبُو الْعَبَّاسِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ** -رَحِمَهُ اللَّهُ- أَنَّ الْإِخْوَةَ إِذَا كَانُوا مَحْجُوبِينَ بِالْأَبِ فَلَا يَحْجُبُونَ الْأُمَّ عَنْ شَيْءٍ، بَلْ لَهَا حِينَئِذٍ الثُّلُثُ.[٢٣]

❁ ﴿**مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ**﴾ وَالْوَصِيَّةُ التَّبَرُّعُ بِالْمَالِ بَعْدَ الْمَوْتِ ﴿**يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ**﴾؛ **أي**: تَكُونُ قِسْمَةُ التَّرِكَةِ مِنْ بَعْدِ تَنْفِيذِ الْوَصِيَّةِ وَالدَّيْنِ، وَالدَّيْنُ مُقَدَّمٌ فِي الْإِخْرَاجِ عَلَى الْوَصِيَّةِ بِالْإِجْمَاعِ.

➥ **لِقَوْلِ عَلِيٍّ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-**: (**إِنَّكُمْ تَقْرَؤُونَ هَذِهِ الْآيَةَ ﴿مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ﴾ وَإِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَضَى بِالدَّيْنِ قَبْلَ الْوَصِيَّةِ**)[٢٤].

---

[٢٣] الفتاوى الكبرى (٥/ص: ٤٤٦).
[٢٤] أخرجه الترمذي (٢١٢٢)، وقال: والعمل على هذا عند عامة أهل العلم؛ أنه يُبدأ بالدَّيْن قبل الوصية.

وَالْآيَةُ فِيهَا الْحَثُّ عَلَى الْوَصِيَّةِ وَالنَّدْبُ إِلَيْهَا، وَلِلْفَائِدَةِ تُقَدَّمُ مَؤُونَةُ التَّجْهِيزِ عَلَى الدَّيْنِ.

❁ ﴿آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ﴾؛ أَيْ: الَّذِينَ يَرِثُونَكُمْ مِنَ الْآبَاءِ وَالْأَبْنَاءِ، ﴿لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا﴾؛ أَيْ: لَا تَعْلَمُونَ مَنْ أَنْفَعُ لَكُمْ مِمَّنْ يَرِثُكُمْ مِنْ أُصُولِكُمْ وَفُرُوعِكُمْ فِي عَاجِلِكُمْ وَآجِلِكُمْ، فَمَثَلًا مِنْكُمْ مَنْ يَظُنُّ أَنَّ الابْنَ أَنْفَعُ لَهُ، فَيَكُونُ الْأَبُ أَنْفَعَ لَهُ، وَمِنْ هُنَا يَتَبَيَّنُ لَنَا قُصُورُ عِلْمِ الْإِنْسَانِ، وَأَنَّهُ لَا شَيْءَ بِالنِّسْبَةِ إِلَى عِلْمِ اللهِ تَعَالَى، وَإِذَا كَانَ لَا يَدْرِي مَنِ الْأَقْرَبُ لَهُ نَفْعًا: أَهُمْ آبَاؤُهُ أَمْ أَبْنَاؤُهُ الَّذِينَ هُمْ أَقْرَبُ النَّاسِ إِلَيْهِ، فَمَا الظَّنُّ بِالْبَعِيدِ، وَصَدَقَ اللهُ تَعَالَى حِينَ قَالَ: ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥].

➥ وَقَدْ قَالَ الْخَضِرُ لِمُوسَى عَلَيْهِمَا السَّلَامُ لَمَّا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ وَجَاءَ عُصْفُورٌ فَوَقَعَ عَلَى حَرْفِ السَّفِينَةِ فَنَقَرَ فِي الْبَحْرِ نَقْرَةً أَوْ نَقْرَتَيْنِ: "يَا مُوسَى مَا نَقَصَ عِلْمِي وَعِلْمُكَ مِنْ عِلْمِ اللهِ إِلَّا مِثْلَ مَا نَقَصَ هَذَا الْعُصْفُورُ بِمِنْقَارِهِ مِنَ الْبَحْرِ"[٢٥]، وَهَذَا فِيهِ بَيَانُ سَعَةِ عِلْمِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ فَهَذَا بَحْرٌ مُتَلَاطِمٌ مَاذَا يَنْقُصُ مِنْهُ مِنْقَارُ الْعُصْفُورِ؟!

❁ ﴿فَرِيضَةً﴾ مَفْعُولٌ مُطْلَقٌ؛ أَيْ: فَرَضْنَا ذَلِكَ فَرِيضَةً يَجِبُ الْتِزَامُهَا وَتَنْفِيذُهَا وَالْعَمَلُ بِهَا، ﴿مِنَ اللَّهِ﴾؛ أَيْ: هَذِهِ الْفَرِيضَةُ صَادِرَةٌ مِنَ اللهِ تَعَالَى، وَعَلَّلَ هَذِهِ الْأَحْكَامَ الْعَظِيمَةَ بِقَوْلِهِ: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا﴾ بِخَلْقِهِ وَبِمَا يَصْلُحُ لَهُمْ ﴿حَكِيمًا﴾ فِيمَا دَبَّرَهُ وَقَدَّرَهُ لَهُمْ.

﴿۞ وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَٰجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ ۚ وَلَهُنَّ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ ٱلثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم مِّنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ ۗ وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَٰلَةً أَوِ ٱمْرَأَةٌ وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ ۚ فَإِن كَانُوٓاْ أَكْثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمْ شُرَكَآءُ فِى ٱلثُّلُثِ ۚ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَآرٍّ ۚ وَصِيَّةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾ [النساء: ١٢].

[٢٥] أخرجه البخاري (١٢٢)، ومسلم (٢٣٨٠).

❁ ﴿وَلَكُمْ﴾ أَيُّهَا الرِّجَالُ ﴿نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُنَّ وَلَدٌ﴾ ذَكَرًا أَوْ أُنْثَى، مِنْكُمْ أَوْ مِنْ غَيْرِكُمْ، وَاحِدًا أَوْ مُتَعَدِّدًا ﴿فَإِنْ كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ﴾ ۞ **فَتَبَيَّنَ أَنَّ الزَّوْجَ لَهُ حَالَتَانِ:**

- **الحال الأولى**: يَرِثُ النِّصْفَ عِنْدَ عَدَمِ الْفَرْعِ الْوَارِثِ لِلزَّوْجَةِ الْمُتَوَفَّاةِ وَهُوَ الْوَلَدُ أَوْ وَلَدُ الِابْنِ وَإِنْ سَفَلَ.

- **الحال الثانية**: يَرِثُ الرُّبُعَ عِنْدَ وُجُودِ الْفَرْعِ الْوَارِثِ وَهُوَ الْوَلَدُ أَوْ وَلَدُ الِابْنِ وَإِنْ سَفَلَ، سَوَاءٌ كَانُوا مِنْهُ أَوْ مِنْ غَيْرِهِ، وَوَلَدُ الِابْنِ فِي ذَلِكَ كَالْوَلَدِ بِالْإِجْمَاعِ.

❁ ﴿وَلَهُنَّ﴾؛ **أَيْ**: الزَّوْجَاتِ تَعَدَّدْنَ أو لا، ﴿الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ﴾ مِنْهُنَّ أَوْ مِنْ غَيْرِهِنَّ ﴿فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُمْ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ﴾.

۞ **فَتَبَيَّنَ أَنَّ الزَّوْجَاتِ لَهُنَّ حَالَانِ:**

- **الحالُ الأُولَى**: يَرِثْنَ الرُّبُعَ عِنْدَ عَدَمِ الْفَرْعِ الْوَارِثِ لِلزَّوْجِ الْمُتَوَفَّى.

- **الحالُ الثَّانِيةُ**: يَرِثْنَ الثُّمُنَ عِنْدَ وُجُودِ الْفَرْعِ الْوَارِثِ.

❁ ﴿وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً أَوِ امْرَأَةٌ﴾ (**إِنْ**) شَرْطِيَّةٌ، وَكَانَ وَاسْمُهَا وَجُمْلَةُ (**يُورَثُ**) خَبَرُهَا وَ(**كَلَالَةً**) حَالٌ، **وَالصَّحِيحُ أَنَّ الْمُرَادَ بِالْكَلَالَةِ**: عَدَمُ الْأُصُولِ وَهُمُ الْآبَاءُ، وَالْفُرُوعُ وَهُمُ الْأَبْنَاءُ، **وَمَعْنَى الْآيَةِ**: وَإِنْ مَاتَ رَجُلٌ أَوْ امْرَأَةٌ وَهُمَا يُورَثَانِ فِي حَالِ كَوْنِهِمَا ذَا كَلَالَةٍ؛ أَيْ: قَرَابَةِ غَيْرِ الْآبَاءِ وَالْأَبْنَاءِ ﴿وَلَهُ﴾؛ أَيْ: لِلْمَيِّتِ مِنْهُمَا الرَّجُلُ أَوِ الْمَرْأَةُ ﴿أَخٌ﴾ لِأُمٍّ ﴿أَوْ أُخْتٌ﴾ لِأُمٍّ ﴿فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ﴾ مِمَّا تَرَكَ.

❁ ﴿فَإِنْ كَانُوا﴾؛ **أَيْ**: الْإِخْوَةُ وَالْأَخَوَاتُ مِنَ الْأُمِّ ﴿أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ﴾؛ أَيْ: مِنْ وَاحِدٍ ﴿فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ﴾، وَقَدْ أَجْمَعَ الْعُلَمَاءُ أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ جَاءَتْ لِبَيَانِ مِيرَاثِ الْإِخْوَةِ لِأُمٍّ، فَإِذَا

انْفَرَدَ الْوَاحِدُ مِنْهُمْ أَخَذَ السُّدُسَ، وَإِذَا تَعَدَّدُوا أَخَذُوا الثُّلُثَ وَيَكُونُونَ شُرَكَاءَ فِي الثُّلُثِ، يُقْسَمُ بَيْنَهُمْ بِالسَّوِيَّةِ، لَا يُفَضَّلُ ذَكَرُهُمْ عَلَى أُنْثَاهُمْ؛ لِأَنَّ مُطْلَقَ التَّشْرِيكِ يَدُلُّ عَلَيْهِ، وَيَمْنَعُ الْإِخْوَةَ لِأُمٍّ مِنَ الْمِيرَاثِ الْوَالِدُ وَالْوَلَدُ، لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى جَعَلَ لَهُمَا ذَلِكَ النَّصِيبَ إِذَا كَانَ الْمَيِّتُ يُورَثُ كَلَالَةً.

❁ ﴿مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرِ مُضَارٍّ﴾ حَالٌ مِنَ الضَّمِيرِ الْمُسْتَتِرِ فِي ﴿يُوصِي﴾ ﴿مُضَارٌّ﴾ مُضَافٍ إِلَيْهِ؛ أَيْ: هَذِهِ الْقِسْمَةِ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا الْمَيِّتُ، ﴿أَوْ دَيْنٍ﴾ وَهُوَ غَيْرُ مُضَارٍّ الْوَرَثَةِ بِوَصِيَّتِهِ أَوْ دَيْنِهِ، وَالْمُضَارَّةُ بِالْوَصِيَّةِ أَنْ يُوصِيَ مَثَلًا بِأَكْثَرَ مِنَ الثُّلُثِ أَوْ بِهِ فَأَقَلَّ لوارثٍ، أَوْ يَحْرِمَ بَعْضَ الْوَرَثَةِ أَوْ يَخُصَّ بَعْضَهُمْ قَاصِدًا ضِرَارَ الْوَرَثَةِ دُونَ وَجْهِ اللَّهِ، وَالْمُضَارَّةُ فِي الدَّيْنِ أَنْ يُقِرَّ بِدَيْنٍ لِمَنْ لَيْسَ لَهُ عَلَيْهِ دَيْنٌ، وَالْآيَةُ فِيهَا النَّهْيُ عَنِ الْإِضْرَارِ بِالْوَصِيَّةِ.

➥ **وَصَحَّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا– أَنَّهُ قَالَ** (الْإِضْرَارُ فِي الْوَصِيَّةِ مِنَ الْكَبَائِرِ)[٢٦] وَأَخْرَجَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ وَأَبُو دَاوُد وَالتِّرْمِذِيُّ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ مَرْفُوعًا: (إِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْخَيْرِ سَبْعِينَ سَنَةً، فَإِذَا أَوْصَى، حَافَ فِي وَصِيَّتِهِ، فَيُخْتَمُ لَهُ بِشَرِّ عَمَلِهِ، فَيَدْخُلُ النَّارَ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الشَّرِّ سَبْعِينَ سَنَةً، فَيَعْدِلُ فِي وَصِيَّتِهِ، فَيُخْتَمُ لَهُ بِخَيْرِ عَمَلِهِ، فَيَدْخُلُ الْجَنَّةَ، قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْه : اقْرَؤُوا إِنْ شِئْتُمْ ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿عَذَابٌ مُهِينٌ﴾[٢٧].

➥ **كَمَا يُسْتَفَادُ مِنَ الْآيَةِ أَيْضًا:** أَنَّ الْوَصِيَّةَ وَالدَّيْنَ اللَّذَيْنِ قُصِدَ بِهِمَا الضِّرَارُ لَا يَجِبُ تَنْفِيذُهُمَا؛ لِأَنَّهُ شُرِطَ فِي إِخْرَاجِهِمَا قَبْلَ التَّوْرِيثِ عَدَمُ الْمُضَارَّةِ.

❁ ﴿وَصِيَّةً﴾ مَفْعُولٌ مُطْلَقٌ لِفِعْلٍ مَحْذُوفٍ؛ أَيْ: يُوصِيكُمُ اللَّهُ بِذَلِكَ وَصِيَّةً ﴿مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بِمَنْ يُرِيدُ الضِّرَارَ بِالْوَصِيَّةِ وَمَنْ لَا يُرِيدُهَا، وَعَلِيمٌ بِمَنْ يَسْتَحِقُّ الْمِيرَاثَ وَمَنْ لَا يَسْتَحِقُّهُ، وَعَلِيمٌ بِمَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ، ﴿حَلِيمٌ﴾ لَا يَعْجَلُ بِالْعُقُوبَةِ عَلَى مَنْ عَصَاهُ وَخَالَفَ أَمْرَهُ، وَفِي قَوْلِه تَعَالَى: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾ تَنْبِيهٌ على أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِ عِبَادِهِ، فَعَلَى الْعَبْدِ أَنْ يُرَاقِبَ اللَّهَ بِقَلْبِهِ كَمَا يُرَاقِبُهُ بِعَمَلِهِ، فَلَا يُضْمِرُ مَا لَا يُرْضِي اللَّهَ فَإِنْ هُوَ فَعَلَ ذَلِكَ فَقَدْ اسْتَحَقَّ الْعُقُوبَةَ وَلَكِنَّ اللَّهَ لَا يُعاجِلُهُ بِهَا؛ لِأَنَّهُ سُبْحَانَهُ ﴿حَلِيمٌ﴾ .

﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِۚ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ [النساء: ١٣].

[٢٦] أخرجه الطبري في تفسيره (٨/ص: ٦٦)، وابن أبي حاتم في تفسيره (٤٩٤٣).
[٢٧] أخرجه مسلم (٢٦٥١) بنحوه مختصرا، وأحمد (٧٧٤٢) واللفظ له، وإسناد أحمد فيه شهر بن حوشب، ضعفه غير واحد من أهل العلم.

❁ ﴿تِلْكَ﴾ الْأَحْكَامُ الْمَذْكُورَةُ مِنْ أَحْكَامِ الْمَوَارِيثِ وَالْوَصِيَّةِ ﴿حُدُودُ اللَّهِ﴾ شَرَائِعُهُ الَّتِي هِيَ كَالْحُدُودِ الْمَحْدُودَةِ لَا يَجُوزُ تَعَدِّيهَا كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا﴾ [البقرة: ٢٢٩]، ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾.

﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [النساء: ١٤].

❁ ﴿وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ﴾؛ أَيْ: يَتَجَاوَزْ ﴿حُدُودَهُ﴾ أَوَامِرَهُ، بِتَرْكِهَا أَوْ التَّهَاوُنِ بِهَا ﴿يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾.

﴿وَٱلَّٰتِى يَأْتِينَ ٱلْفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمْ فَٱسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ ۖ فَإِن شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِى ٱلْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا﴾ [النساء: ١٥].

❁ ﴿وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ﴾ الزِّنَا ﴿مِنْ نِسَائِكُمْ﴾ الْمُسْلِمَاتِ ﴿فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ﴾؛ أَيْ: مِنْ رِجَالِكُمْ الْمُؤْمِنِينَ ﴿فَإِنْ شَهِدُوا﴾ عَلَيْهِنَّ بِالْفَاحِشَةِ ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ﴾ احْبِسُوهُنَّ ﴿فِي الْبُيُوتِ﴾ وَامْنَعُوهُنَّ عَنِ الْخُرُوجِ ﴿حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا﴾؛ أَيْ: طَرِيقًا إِلَى النَّجَاةِ فَكَانَتْ الْمَرْأَةُ إِذَا زَنَتْ حُبِسَتْ فِي الْبَيْتِ حَتَّى تَمُوتَ، وَكَانَ هَذَا قَبْلَ نُزُولِ الْحُدُودِ، فَلَمَّا نَزَلَ: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُوا كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِاْئَةَ جَلْدَةٍ﴾ [النُّورُ: ٢]، نُسِخَ ذَلِكَ.

↩ وَعَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ– قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: (خُذُوا عَنِّي، قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا؛ الثَّيِّبُ بِالثَّيِّبِ، وَالْبِكْرُ بِالْبِكْرِ، الثَّيِّبُ جَلْدُ مِئَةٍ ثُمَّ رَجْمٌ بِالْحِجَارَةِ، وَالْبِكْرُ جَلْدُ مِئَةٍ ثُمَّ نَفْيُ سَنَةٍ).[٢٨]

[٢٨] أخرجه مسلم (١٦٩٠).

﴿وَٱلَّذَانِ يَأۡتِيَٰنِهَا مِنكُمۡ فَـَٔاذُوهُمَاۖ فَإِن تَابَا وَأَصۡلَحَا فَأَعۡرِضُواْ عَنۡهُمَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابَا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ١٦].

❁ ﴿وَاللَّذَانِ يَأْتِيَانِهَا﴾؛ أَيْ: فَاحِشَةُ الزِّنَا ﴿مِنْكُمْ﴾؛ أَيْ: الرِّجَالِ الْمُسْلِمِينَ ﴿فَآذُوهُمَا﴾ بِالتَّعْنِيفِ وَالتَّوْبِيخِ، ﴿فَإِنْ تَابَا﴾ مِنْ فِعْلِ الْفَاحِشَةِ ﴿وَأَصْلَحَا﴾ الْعَمَلَ ﴿فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا﴾ وَلَا تُؤْذُوهُمَا؛ لِأَنَّ التَّائِبَ مِنَ الذَّنْبِ كَمَنْ لَا ذَنْبَ لَهُ ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا﴾ عَلَى مَنْ تَابَ ﴿رَحِيمًا﴾ بِهِ، وَكَانَتْ هَذِهِ الْعُقُوبَةُ فِي صَدْرِ الْإِسْلَامِ وَالَّتِي هِيَ الْحَبْسُ لِلْمَرْأَةِ فِي الْبَيْتِ وَعَدَمُ الْإِذْنِ لَهَا بِالْخُرُوجِ، وَعُقُوبَةُ الرَّجُلِ التَّعْنِيفُ وَالتَّوْبِيخُ.

⮌ **ثُمَّ نُسِخَ هَذَا الْحُكْمُ بِالرَّجْمِ لِلْمُحْصَنِ وَالْمُحْصَنَةِ**، وَهُمَا الْحُرَّانِ الْبَالِغَانِ الْعَاقِلَانِ، اللَّذَانِ جَامَعَا فِي نِكَاحٍ صَحِيحٍ، وَالْجَلْدُ مِائَةُ جَلْدَةٍ، وَتَغْرِيبُ عَامٍ لِغَيْرِهِمَا، **فَإِنْ قُلْتَ: لِمَ لَمْ تَذْكُرْ الْجَلْدَ لِلْمُحْصَنِ وَاكْتَفَيْت بِالرَّجْمِ، وَقَدْ دَلَّ حَدِيثُ عُبَادَةَ الْمُتَقَدِّمِ عَلَى جَلْدِ الْمُحْصَنِ وَرَجْمِهِ؟ فَالْجَوَابُ**: أَنَّ آخِرَ الْأَمْرَيْنِ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ الِاكْتِفَاءُ بِالرَّجْمِ لِلْمُحْصَنِ، فَقَدْ رَجَمَ مَاعِزًا وَلَمْ يَجْلِدْهُ كَمَا فِي الصَّحِيحِ، وَأَيْضًا قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «وَاغْدُ يَا أُنَيْسُ إِلَى امْرَأَةِ هَذَا، فَإِنْ اعْتَرَفَتْ فَارْجُمْهَا»[٢٩].

[٢٩] أخرجه البخاري (٢٧٢٤)، ومسلم (١٦٩٧).

﴿إِنَّمَا ٱلتَّوۡبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٖ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا﴾ [النساء: ١٧].

❁ ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ﴾؛ أَيْ: إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ التَّوْبَةَ مِمَّنْ عَمِلَ الْمَعَاصِيَ وَالسَّيِّئَاتِ.

❁ ﴿بِجَهَالَةٍ﴾؛ أَيْ: بِسَفَهٍ، **فَالْمُرَادُ بِالْجَهَالَةِ** السَّفَاهَةُ، وَكُلُّ مَنْ عَصَى اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ فَهُوَ جَاهِلٌ بِنَصِّ هَذِهِ الْآيَةِ، وَلَوْ كَانَ مِنْ أَعْلَمِ النَّاسِ، وَبِمَا ذَكَرْتُهُ فِي الْجَهَالَةِ قَالَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللهِ ﷺ، كَمَا قَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ: (**سَأَلْتُ أَصْحَابَ مُحَمَّدٍ ﷺ عَنْ هَذِهِ الْآيَةِ فَقَالُوا لِي: كُلُّ مَنْ عَصَى اللَّهَ فَهُوَ جَاهِلٌ، وَكُلُّ مَنْ تَابَ قَبْلَ الْمَوْتِ فَقَدْ تَابَ مِنْ قَرِيبٍ وَقَالَ قَتَادَةُ: اجْتَمَعَ أَصْحَابُ النَّبِيِّ ﷺ عَلَى أَنَّ كُلَّ مَعْصِيَةٍ فَهِيَ بِجَهَالَةٍ، عَمْدًا كَانَتْ أَوْ جَهْلًا**)[٣٠]، فَلَيْسَ الْمُرَادُ إِذًا بِالْجَهَالَةِ الْجَهْلَ؛ لِأَنَّ فَاعِلَ الْمَعْصِيَةِ بِجَهْلٍ مَعْذُورٌ لِأَدِلَّةٍ كَثِيرَةٍ لَيْسَ هَذَا مَوْضِعُ ذِكْرِهَا.

❁ ﴿ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ﴾؛ أَيْ: مِنْ قَبْلِ الْمَوْتِ، **وَفِي السُّنَنِ مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عُمَرَ مَرْفُوعًا** (**إِنَّ اللَّهَ يَقْبَلُ تَوْبَةَ الْعَبْدِ مَا لَمْ يُغَرْغِرْ**)[٣١]، ﴿فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾.

➥ **وَفِي الْآيَةِ فَوَائِدُ:**

- **مِنْهَا:** أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَوْجَبَ عَلَى نَفْسِهِ تَكَرُّمًا وَتَفَضُّلًا أَنْ يَتُوبَ عَلَى مَنْ حَقَّقَ فِي تَوْبَتِهِ أَمْرَيْنِ هُمَا:

☆ **الْأَوَّلُ:** أَنْ يَعْمَلَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ.

☆ **وَالثَّانِي:** أَنْ يَتُوبَ مِنْ قَرِيبٍ، وَهَذَا فِيهِ أَنَّ التَّوْبَةَ أَكْثَرَ مَا يَكُونُ نَفْعُهَا عِنْدَمَا تَحْصُلُ بَعْدَ الذَّنْبِ مُبَاشَرَةً.

---

[٣٠] مجموع الفتاوى لشيخ الإسلام ابن تيمية (١٦/ص: ١٧٨).
[٣١] أخرجه الترمذي (٣٥٣٧)، وقال: حسن غريب.

- **وَفِي الْآيَةِ أَيْضًا مِنَ الْفَوَائِدِ:** الْفَرْقُ بَيْنَ الْجَهْلِ وَالْجَهَالَةِ، فَالْجَهْلُ هُوَ فِعْلُ الْخَطَأِ مِنْ غَيْرِ عَمْدٍ، وَالْجَهَالَةُ هِيَ فِعْلُ الْخَطَأِ مَعَ الْعَمْدِ.

﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [النساء: ١٨].

❁ ﴿وَلَيْسَتْ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ﴾ وَيَسْتَمِرُّونَ فِي فِعْلِ الْمَعَاصِي ﴿حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ﴾؛ أَيْ: بِحُضُورِ عَلَامَاتِهِ، فَأَخَذَ فِي النَّزْعِ وَعَايَنَ مَلَكَ الْمَوْتِ وَحُشْرِجَتْ الرُّوحُ فِي الصَّدْرِ وَبَلَغَتْ الْحُلْقُومَ.

❁ ﴿قَالَ﴾ عِنْدَ ذَلِكَ ﴿إِنِّي تُبْتُ الْآنَ﴾ فَلَا يَنْفَعُهُ ذَلِكَ وَلَا يُقْبَلُ مِنْهُ، وَهُوَ كَفِرْعَوْنَ الَّذِي قَالَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ: ﴿حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ ءَامَنْت أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَامَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنْ الْمُسْلِمِينَ (٩١) ءالآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنْ الْمُفْسِدِينَ﴾ [يونس: ٩٠-٩١]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا ءَامَنَّا بِاللهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ * فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا﴾ [غافر: ٨٤-٨٥].

↩ **وَعَنْ ابْنِ عُمَرَ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا- عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ:** «إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقْبَلُ تَوْبَةَ الْعَبْدِ مَا لَمْ يُغَرْغِرْ»[٣٢].

[٣٢] أخرجه الترمذي (٣٥٣٧) وحسنه، وأحمد (٦١٦٠).

❁ ﴿وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ إِذَا تَابُوا فِي الْآخِرَةِ عِنْدَ مُشَاهَدَةِ الْعَذَابِ لَا تُقْبَلُ مِنْهُمْ إِذْ لَيْسَتْ بِدَارِ عَمَلٍ ﴿أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾، وَالْآيَةُ فِيهَا أَنَّ التَّوْبَةَ لَا تَنْفَعُ عِنْدَ حُضُورِ الْمَوْتِ وَهِيَ حَالَةُ الْغَرْغَرَةِ، فَمَنْ تَابَ قَبْلَ الْغَرْغَرَةِ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِ، وَمَنْ تَابَ عِنْدَ الْغَرْغَرَةِ فَلَا تَنْفَعُهُ تَوْبَتُهُ وَلَا تُقْبَلُ مِنْهُ، أَيْضًا لَا تَنْفَعُ التَّوْبَةُ إِذَا طَلَعَتْ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا كَمَا فِي آيَةِ الْأَنْعَامِ ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا﴾ [الأنعام: ١٥٨].

➥ **وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ– قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ**: «ثَلَاثٌ إِذَا خَرَجْنَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ، أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا : طُلُوعُ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا وَالدَّجَّالُ وَدَابَّةُ الْأَرْضِ»[٣٣]، فَالْوَاجِبُ عَلَى الْمُؤْمِنِ الَّذِي يُرِيدُ النَّجَاةَ لِنَفْسِهِ أَنْ يُبَادِرَ بِالتَّوْبَةِ قَبْلَ فَوَاتِ الْأَوَانِ، وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ .

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا وَلا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ١٩].

➥ **عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا– قَالَ**: "كَانَ أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ إِذَا مَاتَ الرَّجُلُ كَانَ أَوْلِيَاؤُهُ أَحَقَّ بِامْرَأَتِهِ، إِنْ شَاءَ بَعْضُهُمْ تَزَوَّجَهَا وَإِنْ شَاؤُوا زَوَّجُوهَا، وَإِنْ شَاؤُوا لَمْ يُزَوِّجُوهَا فَهُمْ أَحَقُّ بِهَا مِنْ أَهْلِهَا، فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ فِي ذَلِكَ".[٣٤]

❁ **فَقَوْلُهُ: ﴿كَرْهًا﴾؛ أَيْ**: قَهْرًا وَغَصْبًا، فَكَانُوا فِي الْجَاهِلِيَّةِ إِذَا مَاتَ الْأَبُ وَرِثُوا زَوْجَتَهُ قَهْرًا كَمَا يَرِثُونَ مَالَهُ، فَنَهَى اللَّهُ تَعَالَى عَنْ هَذَا التَّصَرُّفِ الْقَبِيحِ.

---

[٣٣] أخرجه مسلم (١٥٨).
[٣٤] أخرجه البخاري (٤٥٧٩).

﴿وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ﴾؛ أَيْ: لَا تَمْنَعُوهُنَّ عَنْ نِكَاحِ غَيْرِكُمْ بِإِمْسَاكِهِنَّ وَلَا رَغْبَةَ لَكُمْ فِيهِنَّ إِضْرَارًا بِهِنَّ؛ حَتَّى يَلْجَأْنَ إِلَى الْمُخَالَعَةِ وَافْتِدَاءِ أَنْفُسِهِنَّ.

❁ ثُمَّ اسْتَثْنَى فَقَالَ: ﴿إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ﴾؛ أَيْ: زِنًا أَوْ نُشُوزٍ فَلَكُمْ أَنْ تُضَارُّوهُنَّ حَتَّى يَخْتَلِعْنَ وَيَفْدِينَ أَنْفُسَهُنَّ، ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ﴾؛ أَيْ: عَامِلُوهُنَّ ﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾ وَاللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ أَمَرَنَا أَنْ نُعَامِلَ الزَّوْجَةَ بِالْمَعْرُوفِ وَلَمْ يُحَدِّدْ شَيْئًا مُعَيَّنًا فَنَرْجِعُ فِيهِ إِلَى الْعُرْفِ، فَمَا تَعَارَفَ النَّاسُ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَعْرُوفٌ فَهُوَ مَعْرُوفٌ، وَمَا لَيْسَ مَعْرُوفًا فِي عُرْفِ النَّاسِ فَلَيْسَ بِمَعْرُوفٍ.

❁ وَهَذِهِ قَاعِدَةٌ مُهِمَّةٌ نَافِعَةٌ وَهِيَ : أَنَّ مَا جَاءَ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ مُطْلَقًا وَلَمْ يُحَدَّدْ فَإِنَّهُ يُرْجَعُ فِي تَحْدِيدِهِ إِلَى الْعُرْفِ، وَالرُّجُوعُ إِلَى الْعُرْفِ وَاعْتِبَارُهُ مِنْ قَوَاعِدِ هَذِهِ الشَّرِيعَةِ، بَلْ مِنَ الْقَوَاعِدِ الْخَمْسِ الْكُبْرَى (الْعَادَةُ مُحْكَمَةٌ) أَوْ(إِعْمَالُ الْعُرْفِ)، وَمِنْ أَدِلَّةِ هَذِهِ الْقَاعِدَةِ الْعَظِيمَةِ هَذِهِ الْآيَةُ ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾، وَهِيَ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ﴾ [البقرة: ٢٢٩] وَالْمُعَاشَرَةُ بِالْمَعْرُوفِ وَاجِبَةٌ بِنَصِّ الْآيَةِ؛ إِذْ الْأَمْرُ يَقْتَضِي الْوُجُوبَ، وَقَدْ دَلَّتْ السُّنَّةُ عَلَى ذَلِكَ أَيْضًا فَصَحَّ عَنْهُ ﷺ أَنَّهُ قَالَ : «اسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ خَيْرًا»[٣٥].

وَيَنْبَغِي أَنْ تَكُونَ الْمُعَامَلَةُ الطَّيِّبَةُ بَيْنَ الزَّوْجَيْنِ مُتَبَادَلَةً لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة: ٢٢٨]؛ حَتَّى تَدُومَ الْعَلَاقَةُ الزَّوْجِيَّةُ عَلَى أَحْسَنِ حَالٍ.

[٣٥] أخرجه البخاري (٣٣٣١)، ومسلم (١٤٦٨).

❁ ﴿فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ﴾ لِسَبَبٍ مِنَ الْأَسْبَابِ غَيْرِ ارْتِكَابِ فَاحِشَةٍ فَاحْتَمِلُوهُنَّ وَلَا تَعْجَلُوا فِي طَلَاقِهِنَّ، وَقَوْلُهُ: ﴿فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ﴾ فِعْلٌ مَاضٍ وَالتَّاءُ فَاعِلُهُ وَالْهَاءُ مَفْعُولٌ بِهِ، وَهُوَ فِي مَحَلِّ جَزْمٍ فِعْلُ الشَّرْطِ وَجَوَابُ الشَّرْطِ مَحْذُوفٌ تَقْدِيرُهُ: فَاحْتَمِلُوهُنَّ. ﴿فَعَسَى﴾ **وَعَسَى** مِنَ اللهِ وَاجِبَةٌ كَمَا قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا-، ﴿أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ لَا يَخْطُرُ فِي بَالِكُمْ وَلَا تَتَوَقَّعُونَهُ، فَقَدْ تَكُونُ هَذِهِ الْمَرْأَةُ الْمَكْرُوهَةُ سَبَبَ خَيْرَاتٍ لَكُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٣٢].

➥ وَثَبَتَ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «لَا يَفْرَكُ مُؤْمِنٌ مُؤْمِنَةً، إِنْ كَرِهَ مِنْهَا خُلُقًا رَضِيَ مِنْهَا آخَرَ».[٣٦]

وَقَوْلُهُ: ﴿لَا يَفْرَكْ﴾؛ أَيْ: لَا يُبْغِضْ، فَفِيهِ حَثٌّ عَلَى حُسْنِ الْعِشْرَةِ وَالصُّحْبَةِ، وَالْآيَةُ فِيهَا أَنَّ كَرَاهَةَ الشَّيْءِ لَا يَدُلُّ عَلَى انْتِفَاءِ الْخَيْرِ فِيهِ، وَ"**هَذِهِ حِكْمَةٌ عَظِيمَةٌ، إِذْ قَدْ تَكْرَهُ النُّفُوسُ مَا فِي عَاقِبَتِهِ خَيْرٌ فَبَعْضُهُ يُمْكِنُ التَّوَصُّلُ إِلَى مَعْرِفَةِ مَا فِيهِ مِنَ الْخَيْرِ عِنْدَ غَوْصِ الرَّأْيِ. وَبَعْضُهُ قَدْ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّ فِيهِ خَيْرًا لَكِنَّهُ لَمْ يَظْهَرْ لِلنَّاسِ**".

➥ قَالَ سَهْلُ بْنُ حَنِيفٍ، حِينَ مَرْجِعِهِ مِنْ صِفِّينَ: "**اتَّهِمُوا الرَّأْيَ فَلَقَدْ رَأَيْتُنَا يَوْمَ أَبِي جَنْدَلٍ وَلَوْ نَسْتَطِيعُ أَنْ نَرُدَّ عَلَى رَسُولِ اللهِ أَمْرَهُ لَرَدَدْنَا، وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ**".[٣٧] **وَقَدْ قَالَ تَعَالَى، فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ:** ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ﴾ [الْبَقَرَة: ٢١٦].

❁ **وَالْمَقْصُودُ مِنْ هَذَا: الْإِرْشَادُ إِلَى إِعْمَاقِ النَّظَرِ وَتَغَلْغُلِ الرَّأْيِ فِي عَوَاقِبِ الْأَشْيَاءِ، وَعَدَمِ الِاغْتِرَارِ بِالْبَوَارِقِ الظَّاهِرَةِ، وَلَا بِمَيْلِ اَلشَّهَوَاتِ إِلَى مَا فِي الْأَفْعَالِ مِنْ مُلَائِمٍ، حَتَّى يَسْبُرَهُ بِمِسْبَارِ الرَّأْيِ، فَيَتَحَقَّقَ سَلَامَةَ حُسْنِ الظَّاهِرِ مِنْ سُوءِ خَفَايَا اَلْبَاطِنِ**" قَالَهُ الْعَلَّامَةُ ابْنُ عَاشُورٍ -رَحِمَهُ اللَّهُ-.[٣٨]

---

[٣٦] أخرجه مسلم (١٤٦٩).
[٣٧] أخرجه البخاري (٤١٨٩).
[٣٨] التحرير والتنوير (٤/ص: ٢٨٧).

﴿وَإِنْ أَرَدْتُمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا فَلا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا﴾ [النساء: ٢٠].

❁ ﴿وَإِنْ أَرَدْتُمْ﴾ يَا مَعْشَرَ الرِّجَالِ ﴿اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَانَ زَوْجٍ﴾؛ أَيْ: طَلَاقَ زَوْجَةٍ وَاسْتِبْدَالَ زَوْجَةٍ أُخْرَى مَكَانَهَا وَلَمْ يَكُنْ مِنْ قِبَلِهَا فَاحِشَةٌ وَلَا نُشُوزٌ ﴿وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنْطَارًا﴾؛ أَيْ: وَكَانَ صَدَاقُ مَنْ تُرِيدُونَ طَلَاقَهَا مَالًا كَثِيرًا ﴿فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا﴾ ظُلْمًا بِغَيْرِ حَقٍّ ﴿وَإِثْمًا مُبِينًا﴾.

وَالْآيَةُ فِيهَا أَنَّ الْمَهْرَ لِلْمَرْأَةِ قَلَّ أَوْ كَثُرَ، وَفِيهَا أَيْضًا دَلَالَةٌ ظَاهِرَةٌ عَلَى جَوَازِ كَثْرَةِ الْمَهْرِ، وَهَذَا هُوَ الصَّوَابُ وَهُوَ قَوْلُ الْجُمْهُورِ أَنَّهُ لَا حَدَّ لِأَكْثَرِهِ، وَأَيْضًا لَا حَدَّ لِأَقَلِّهِ.

➥ كَمَا قَالَ الْإِمَامُ الْحَجَّاوِيُّ: "كُلُّ مَا صَحَّ ثَمَنًا أَوْ أُجْرَةً صَحَّ أَنْ يَكُونَ مَهْرًا وَإِنْ قَلَّ"[٣٩]، وَلَا شَكَّ أَنَّ السُّنَّةَ تَخْفِيفُ الْمَهْرِ، قَالَ ﷺ: «خَيْرُ الصَّدَاقِ أَيْسَرُهُ»[٤٠]، وَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لِرَجُلٍ أَرَادَ الزَّوَاجَ: «الْتَمِسْ وَلَوْ خَاتَمًا مِنْ حَدِيدٍ»[٤١].

وَقَدْ ضَرَبَ النَّبِيُّ ﷺ لِأُمَّتِهِ أَرْوَعَ الْأَمْثِلَةِ فِي ذَلِكَ، فَعَنْ أَبِي سَلَمَةَ بْنِ عَبْدِالرَّحْمَنِ أَنَّهُ قَالَ: "سَأَلْتُ عَائِشَةَ زَوْجَ النَّبِيِّ ﷺ: كَمْ كَانَ صَدَاقُ رَسُولِ اللهِ ﷺ؟ قَالَتْ: كَانَ صَدَاقُهُ لِأَزْوَاجِهِ ثِنْتَيْ عَشْرَةَ أُوقِيَّةً وَنَشًّا، قَالَتْ: أَتَدْرِي مَا النَّشُّ؟ قَالَ: قُلْتُ: لَا، قَالَتْ: نِصْفُ أُوقِيَّةٍ، فَتِلْكَ خَمْسُمِئَةِ دِرْهَمٍ، فَهَذَا صَدَاقُ رَسُولِ اللهِ ﷺ لِأَزْوَاجِهِ"[٤٢].

➥ وَفِي سُنَنِ أَبِي دَاوُد وَالنَّسَائِيِّ بِإِسْنَادٍ صَحِيحٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا– قَالَ: «لَمَّا تَزَوَّجَ عَلِيٌّ فَاطِمَةَ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: أَعْطِهَا شَيْئًا قَالَ: مَا عِنْدِي شَيْءٌ قَالَ: فَأَيْنَ دِرْعُكَ الْحُطَمِيَّةُ؟»[٤٣].

---

[٣٩] زاد المستقنع، ص: ١٦٨.
[٤٠] أخرجه أبو داود (٢١١٧).
[٤١] أخرجه البخاري (٨٥٧١)، ومسلم (١٤٢٥).
[٤٢] أخرجه مسلم (١٤٢٦).
[٤٣] أخرجه أبو داود (٢١٢٥)، والنسائي (٣٣٧٦) واللفظ له.

كَمَا يُسْتَفَادُ مِنَ الْآيَةِ أَنَّهُ يَحْرُمُ عَلَى الزَّوْجِ تَحْرِيمًا شَدِيدًا أَنْ يَأْخُذَ مِنْ مَهْرِ زَوْجَتِهِ مَهْمَا دَفَعَ لَهَا لِمُجَرَّدِ مُفَارَقَتِهَا، وَبَيَّنَ اللهُ تَعَالَى أَنَّ أَخْذَ الزَّوْجِ مِنَ الْمَهْرِ ظُلْمٌ وَإِثْمٌ بَيِّنٌ ظَاهِرٌ فَقَالَ: ﴿أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا﴾ [النساء: ٢٠].

﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾ [النساء: ٢١].

❁ ﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ﴾؛ أَيْ: بِأَيِّ وَجْهٍ ﴿وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ﴾ بِالْجِمَاعِ ﴿وَأَخَذْنَ مِنْكُمْ مِيثَاقًا﴾ عَهْدًا ﴿غَلِيظًا﴾ شَدِيدًا مُحْكَمًا وَهُوَ عَقْدُ النِّكَاحِ الَّذِي هُوَ أَعْظَمُ الْعُقُودِ، وَكَيْفَ لَا يَكُونُ عَظِيمًا، وَهُوَ عَقْدٌ مُوَثَّقٌ بِكَلَامِ اللهِ سُبْحَانَهُ فِي خُطْبَةِ النِّكَاحِ.

➥ قَالَ ﷺ فِي خُطْبَةِ عَرَفَةَ كَمَا فِي حَدِيثِ جَابِرٍ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-: «فَاتَّقُوا اللَّهَ فِي النِّسَاءِ، فَإِنَّكُمْ أَخَذْتُمُوهُنَّ بِأَمَانِ اللَّهِ، وَاسْتَحْلَلْتُمْ فُرُوجَهُنَّ بِكَلِمَةِ اللَّهِ».[٤٤] وَيَتَرَتَّبُ عَلَى هَذَا الْعَقْدِ الْغَلِيظِ أَحَدُ خِيَارَيْنِ ﴿فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ﴾ وَهُوَ الْأَصْلُ ﴿أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ﴾.

❁ **وَيُسْتَفَادُ مِنَ الْآيَةِ**: أَنَّ الزَّوْجَ إِذَا دَخَلَ بِزَوْجَتِهِ اسْتَحَقَّتْ الْمَهْرَ كَامِلًا وَهَذَا بِإِجْمَاعِ أَهْلِ الْعِلْمِ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ﴾، **لَكِنِ اخْتَلَفُوا فِيمَا لَوْ خَلَا الزَّوْجُ بِزَوْجَتِهِ بَعْدَ الْعَقْدِ وَلَمْ يَحْصُلْ دُخُولٌ: هَلْ تَلْحَقُ الْخَلْوَةُ بِالدُّخُولِ أَمْ لَا؟ فَالْمَشْهُورُ مِنَ الْمَذْهَبِ**: أَنَّ الْخَلْوَةَ تَلْحَقُ بِالدُّخُولِ، فَتَسْتَحِقُّ الزَّوْجَةُ الْمَهْرَ كَامِلًا وَهَذَا هُوَ الصَّحِيحُ وَهُوَ الْمَنْقُولُ عَنِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ وَغَيْرِهِمْ مِنَ الصَّحَابَةِ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَأَرْضَاهُمْ-، ثُمَّ شَرَعَ اللَّهُ تَعَالَى فِي بَيَانِ مَنْ يَحْرُمُ نِكَاحُهُ مِنَ النِّسَاءِ وَمَنْ لَا يَحْرُمُ.

﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ [النساء: ٢٢].

[٤٤] أخرجه مسلم (٢٧٤٢).

❁ عَنْ عَدِيّ بْنِ ثابِتٍ عَنْ رَجُلٍ مِنَ الْأَنْصارِ قالَ: تُوفِّيَ أَبُو قَيْسِ بْنُ الْأَسْلَتِ وَكانَ مِنْ صالِحِي الْأَنْصارِ فَخَطَبَ قَيْسٌ ابْنُهُ امْرَأَتَهُ، فَقالَتْ: إِنَّمَا أَعُدُّكَ وَلَدًا وَأَنْتَ مِنْ صالِحِي قَوْمِكَ، ثُمَّ أَتَتِ النَّبِيَّ ﷺ فَذَكَرَتْ لَهُ ذَلِكَ، فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ ﴿وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾.[٤٥]

❁ ﴿وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾؛ أَيْ: لَكِنْ مَا تَقَدَّمَ وَمَضَى مِنْ نِكَاحِ زَوْجَاتِ الْآبَاءِ قَبْلَ نُزُولِ هَذِهِ الْآيَةِ فَإِنَّهُ مَعْفُوٌّ عَنْكُمْ، ثُمَّ وَصَفَ اللَّهُ تَعَالَى نِكَاحَ زَوْجَاتِ الْآبَاءِ بِأَبْشَعِ الْأَوْصَافِ فَقَالَ: ﴿إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا﴾ وَهُوَ أَشَدّ الْبُغْضِ ﴿وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ طَرِيقًا لِذَلِكَ.

[٤٥] أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (٢٢/ص: ٣٩٣)، وأبو نعيم في معرفة الصحابة (٦٩٦٥)، وابن المنذر (١٥٢٥)، وابن أبي حاتم (٣/ص: ٩٠٩)، وفي إسناده أشعث بن سوار، قال عنه ابن حجر في التقريب (٥٢٤): ضعيف. ويروى من وجه آخر مرسلا.

﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِى فِى حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِى دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا۟ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ وَأَن تَجْمَعُوا۟ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ٢٣].

۞ الْمُحَرَّمَاتُ مِنَ النِّسَاءِ قِسْمَانِ:

★ مُحَرَّمَاتٌ إِلَى الْأَبَدِ، وَهُنَّ ثَلَاثَةُ أَقْسَامٍ:

١. مُحَرَّمَاتٌ بِالنَّسَبِ، وَبَدَأَ اللَّهُ تَعَالَى بِهِنَّ؛ لِأَنَّهُنَّ أَشَدُّ الْمُحَرَّمَاتِ فَقَالَ: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ﴾ وَإِنْ عَلَوْنَ ﴿وَبَنَاتُكُمْ﴾ وَإِنْ سَفَلْنَ ﴿وَأَخَوَاتُكُمْ﴾ سَوَاءٌ كُنَّ شَقَائِقَ أَوْ لِأَبٍ أَوْ لِأُمٍّ، ﴿وَعَمَّاتُكُمْ﴾ سَوَاءٌ كُنَّ عَمَّاتٍ مُبَاشَرَاتٍ لِلشَّخْصِ نَفْسِهِ أَوْ عَمَّاتٍ لِلْآبَاءِ وَالْأُمَّهَاتِ، ﴿وَخَالَاتُكُمْ﴾ سَوَاءٌ كُنَّ خَالَاتٍ مُبَاشَرَاتٍ أَوْ خَالَاتٍ لِأَبِيهِ أَوْ أُمِّهِ ﴿وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ﴾ وَيَدْخُلُ فِيهِنَّ أَوْلَادُهُمْ، هَذِهِ هِيَ النِّسَاءُ الْمُحَرَّمَاتُ بِالنَّسَبِ.

➥ **وَضَابِطُ الْمُحَرَّمَاتِ مِنَ النَّسَبِ**: أَنَّ جَمِيعَ أَقَارِبِ الرَّجُلِ مِنَ النَّسَبِ حَرَامٌ عَلَيْهِ إِلَّا بَنَاتُ أَعْمَامِهِ وَبَنَاتُ عَمَّاتِهِ وَبَنَاتُ أَخْوَالِهِ وَبَنَاتُ خَالَاتِهِ، فَهَذِهِ الْأَرْبَعُ حَلَالٌ لَهُ، وَهُنَّ اللَّاتِي أَحَلَّهُنَّ اللَّهُ لِرَسُولِهِ ﷺ بِقَوْلِهِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ ٱلَّٰتِىٓ ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَٰلَٰتِكَ ٱلَّٰتِى هَاجَرْنَ مَعَكَ وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِىِّ إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِىُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأحزاب: ٥٠].

☆ **ثُمَّ ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى الْقِسْمَ الثَّانِيَ مِنَ الْمُحَرَّمَاتِ إِلَى الْأَبَدِ:** وَهُنَّ الْمُحَرَّمَاتُ بِالرَّضَاعِ فَقَالَ: ﴿وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ مِنَ الرَّضَاعَةِ﴾ ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى صِنْفَيْنِ مِنَ الرَّضَاعَةِ وَيُلْحَقُ بِهِمَا بَاقِي الْأَصْنَافُ السَّبْعَةُ وَهُنَّ: الْبَنَاتُ وَالْعَمَّاتُ وَالْخَالَاتُ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ؛ لِحَدِيثِ عَائِشَةَ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا- عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**يَحْرُمُ مِنَ الرَّضَاعِ مَا يَحْرُمُ مِنَ النَّسَبِ**»[٤٦]. فَدَلَّ هَذَا الْحَدِيثُ عَلَى أَنَّ كُلَّ امْرَأَةٍ حَرُمَتْ بِالنَّسَبِ حَرُمَ مِثْلُهَا مِنَ الرَّضَاعِ إِلَّا أُمَّ أُخْتِهِ، وَأُخْتَ ابْنِهِ مِنَ الرَّضَاعِ فَلَا تَحْرُمُ، **وَالرَّضَاعُ الْمُحَرِّمُ:** خَمْسُ رَضَعَاتٍ فَأَكْثَرُ إِذَا كَانَتْ فِي الْحَوْلَيْنِ لِدَلَالَةِ السُّنَّةِ عَلَى ذَلِكَ.

☆ **ثُمَّ ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى الْقِسْمَ الثَّالِثَ وَهُنَّ:** الْمُحَرَّمَاتُ بِالْمُصَاهَرَةِ فَقَالَ: ﴿وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ﴾؛ **أَيْ:** أُمَّهَاتُ زَوْجَاتِكُمْ، فَإِذَا تَزَوَّجَ الرَّجُلُ امْرَأَةً حَرُمَتْ عَلَيْهِ أُمُّهَا وَإِنْ عَلَتْ بِمُجَرَّدِ الْعَقْدِ وَلَوْ لَمْ يَدْخُلْ بِهَا، ﴿وَرَبَائِبُكُمْ﴾ جَمْعُ رَبِيبَةٍ، وَهِيَ: بِنْتُ الزَّوْجَةِ وَإِنْ نَزَلَتْ، فَإِذَا تَزَوَّجَ الرَّجُلُ امْرَأَةً وَدَخَلَ بِهَا حَرُمَ عَلَيْهِ تَحْرِيمًا مُؤَبَّدًا التَّزَوُّجُ بِابْنَتِهَا ﴿اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ مِنْ نِسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ﴾، قَوْلُهُ: ﴿فِي حُجُورِكُمْ﴾ وَصْفٌ أَغْلَبِيٌّ لَا مَفْهُومَ لَهُ بِدَلِيلِ:

١. أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى ذَكَرَ وَصْفَيْنِ ﴿اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ﴾.

٢. وَالثَّانِي ﴿مِنْ نِسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ﴾.

❁ **ثُمَّ قَالَ:** ﴿فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ وَسَكَتَ عَنِ الْوَصْفِ الْأَوَّلِ مِمَّا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ غَيْرُ مُعْتَبَرٍ، **وَلِذَا ذَهَبَ جَمَاهِيرُ أَهْلِ الْعِلْمِ إِلَى أَنَّهُ لَا يُشْتَرَطُ فِي الرَّبِيبَةِ أَنْ تَكُونَ فِي حَجْرِ الزَّوْجِ.**

وَأَمَّا الْوَصْفُ الثَّانِي ﴿اللَّاتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ﴾؛ أَيْ: جَامَعْتُمُوهُنَّ، فَهُوَ وَصْفٌ مُعْتَبَرٌ وَلَا بُدَّ مِنْهُ، فَإِذَا خَلَا بِهَا وَعَاشَرَهَا دُونَ أَنْ يُجَامِعَهَا ثُمَّ طَلَّقَهَا فَإِنَّ بِنْتَهَا تَكُونُ حَلَالًا لَهُ مِنْ جِهَةِ النِّكَاحِ لَهُ أَنْ يَتَزَوَّجَهَا.

[٤٦] أخرجه البخاري (٥١١١) باختلاف يسير، ومسلم (١٤٤٥).

❁ ﴿وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمْ﴾؛ أَيْ: زَوْجَاتِهِمْ ﴿الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ﴾؛ أَيْ: مِنْ ظُهُورِكُمْ، وَتَكُونُ حَلِيلَةً بِمُجَرَّدِ الْعَقْدِ، وَقَوْلُهُ: ﴿مِنْ أَصْلَابِكُمْ﴾ قَيْدٌ لِإِخْرَاجِ مَنْ تَبَنَّاهُ الْإِنْسَانُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ فَلَهُ نِكَاحُ حَلِيلَتِهِ، لِأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ تَزَوَّجَ زَيْنَبَ بِنْتَ جَحْشٍ زَوْجَةَ زَيْدِ بْنِ حَارِثَةَ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا-؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكُمْ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِكُمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا﴾ [الأحزاب: ٣٧]، وَهَذَا قَوْلُ عَامَّةِ الْمُفَسِّرِينَ.

➥ **وَذَهَبَ أَهْلُ الظَّاهِرِ إِلَى:** أَنَّ الْقَيْدَ الْمَذْكُورَ لِإِخْرَاجِ ابْنِ الرَّضَاعِ فَلَهُ نِكَاحُ زَوْجَةِ ابْنِهِ مِنَ الرَّضَاعِ، وَاخْتَارَهُ ابْنُ تَيْمِيَّةَ وَقَالَ: "**إِنَّ الرَّضَاعَ لَا يُؤَثِّرُ فِي الْمُصَاهَرَةِ، وَأَنَّ زَوْجَةَ ابْنِهِ مِنَ الرَّضَاعِ أَجْنَبِيَّةٌ مِنْهُ، لَا تُكْشَفُ لَهُ، وَلَا يَخْلُو بِهَا، وَلَا يُسَافِرُ بِهَا، لِأَنَّهَا أَجْنَبِيَّةٌ مِنْهُ، وَاللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ: ﴿وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ﴾ [النِّسَاءُ: ٢٣]، وَالنَّبِيُّ ﷺ يَقُولُ: «يَحْرُمُ مِنَ الرَّضَاعِ مَا يَحْرُمُ مِنَ النَّسَبِ». وَزَوْجَةُ الِابْنِ لَيْسَتْ حَرَامًا عَلَى أَبِيهِ مِنَ النَّسَبِ وَلَكِنَّهَا حَرَامٌ عَلَيْهِ مِنَ الْمُصَاهَرَةِ، فَلَيْسَ بَيْنَ أَبِيهِ وَبَيْنَهَا نَسَبٌ بَلْ هِيَ حَرَامٌ عَلَيْهِ بِالْمُصَاهَرَةِ**".[٤٧]

[٤٧] لقاء الباب المفتوح (٥٥/ص: ٢٣).

↩ **لَكِنَّ عَامَّةَ الْعُلَمَاءِ** عَلى أَنَّ زَوْجَةَ الِابْنِ مِنَ الرَّضَاعِ كَزَوْجَةِ الِابْنِ مِنَ النَّسَبِ لِعُمُومِ حَدِيثِ عَائِشَةَ الْمُتَقَدِّمِ، وَاَللَّهُ أَعْلَمُ، **وَالْخُلَاصَةُ**: أَنَّ الْمُحَرَّمَاتِ بِالْمُصَاهَرَةِ أَرْبَعٌ وَهِيَ: أُمَّهَاتُ النِّسَاءِ، وَزَوْجَاتُ الْأَبْنَاءِ وَزَوْجَاتُ الْآبَاءِ، وَيَخْرُجْنَ بِمُجَرَّدِ الْعَقْدِ لِعُمُومِ الْآيَةِ فِيهِنَّ، وَالرَّبَائِبُ عَلَى التَّفْصِيلِ السَّابِقِ، وَضَابِطُ الْمُحَرَّمَاتِ بِالْمُصَاهَرَةِ كَمَا قَالَ ابْنُ تَيْمِيَّةَ: "**كُلُّ نِسَاءِ الصِّهْرِ حَلَالٌ لَهُ إِلَّا أَرْبَعَةَ أَصْنَافٍ بِخِلَافِ الْأَقَارِبِ، فَأَقَارِبُ الْإِنْسَانِ كُلُّهُنَّ حَرَامٌ إِلَّا أَرْبَعَةَ أَصْنَافٍ، وَأَقَارِبُ الزَّوْجَيْنِ كُلُّهُنَّ حَلَالٌ إِلَّا أَرْبَعَةَ أَصْنَافٍ، وَهُنَّ حَلَائِلُ الْآبَاءِ وَالْأَبْنَاءِ، وَأُمَّهَاتُ النِّسَاءِ وَبَنَاتُهُنَّ، فَيَحْرُمُ عَلَى كُلٍّ مِنَ الزَّوْجَيْنِ أُصُولُ الْآخَرِ وَفُرُوعُهُ، وَيَحْرُمُ عَلَى الرَّجُلِ أُمُّ امْرَأَتِهِ وَأُمُّ أُمِّهَا وَأَبِيهَا وَإِنْ عَلَتْ، وَتَحْرُمُ عَلَيْهِ بِنْتُ امْرَأَتِهِ – وَهِيَ الرَّبِيبَةُ– وَبِنْتُ بِنْتِهَا وَإِنْ سَفَلَتْ، وَبِنْتُ الرَّبِيبِ أَيْضًا حَرَامٌ كَمَا نَصَّ عَلَيْهِ الْأَئِمَّةُ الْمَشْهُورُونَ: الشَّافِعِيُّ وَأَحْمَدُ وَغَيْرُهُمَا، وَلَا أَعْلَمُ فِيهِ نِزَاعًا، وَيَحْرُمُ عَلَيْهِ أَنْ يَتَزَوَّجَ بِامْرَأَةِ أَبِيهِ وَإِنْ عَلَا، وَامْرَأَةِ ابْنِهِ وَإِنْ سَفَلَ، فَهَؤُلَاءِ الْأَرْبَعَةُ هُنَّ الْمُحَرَّمَاتُ بِالْمُصَاهَرَةِ فِي كِتَابِ اللَّهِ**"[٤٨].

وَبَعْدَ أَنْ ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى الْمُحَرَّمَاتِ إِلَى الْأَبَدِ، ذَكَرَ الْمُحَرَّمَاتِ إِلَى أَمَدٍ مُحَدَّدٍ فَقَالَ: ﴿**وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ**﴾ مِنْ نَسَبٍ أَوْ رَضَاعٍ بِالنِّكَاحِ، فَإِذَا مَاتَتْ أَوْ طُلِّقَتْ حَلَّتْ الْأُخْرَى بَعْدَ انْتِهَاءِ الْعِدَّةِ، وَيُلْحَقُ بِهِمَا الْجَمْعُ بَيْنَهَا وَبَيْنَ عَمَّتِهَا أَوْ خَالَتِهَا؛ لِحَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ– أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**لَا يُجْمَعُ بَيْنَ الْمَرْأَةِ وَعَمَّتِهَا، وَلَا بَيْنَ الْمَرْأَةِ وَخَالَتِهَا**»[٤٩]، فَإِنْ تَزَوَّجَهُمَا فِي عَقْدٍ وَاحِدٍ فَكِلَا الْعَقْدَيْنِ بَاطِلٌ وَإِنْ سَبَقَ أَحَدُهُمَا الْآخَرَ فَالسَّابِقُ هُوَ الصَّحِيحُ ﴿**إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ**﴾؛ أَيْ: لَكِنْ مَا قَدْ تَقَدَّمَ وَمَضَى لَكُمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ مِنْ نِكَاحِهِمْ فَلَا حَرَجَ عَلَيْكُمْ فِيهِ بِدَلِيلِ ﴿**إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا**﴾.

---

[٤٨] مجموع الفتاوى (٣٢/ص: ٦٥).
[٤٩] أخرجه البخاري (٥١١٠)، ومسلم (١٤٠٨).

﴿۞ وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡۖ كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡۚ وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمۡ أَن تَبۡتَغُواْ بِأَمۡوَٰلِكُم مُّحۡصِنِينَ غَيۡرَ مُسَٰفِحِينَۚ فَمَا ٱسۡتَمۡتَعۡتُم بِهِۦ مِنۡهُنَّ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةٗۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ فِيمَا تَرَٰضَيۡتُم بِهِۦ مِنۢ بَعۡدِ ٱلۡفَرِيضَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمٗا﴾ [النساء: ٢٤].

● لَا يَزَالُ الْكَلَامُ مَوْصُولًا فِي ذِكْرِ الْمُحَرَّمَاتِ مِنَ النِّسَاءِ إِلَى أَمَدٍ مُحَدَّدٍ، فَمِنَ النِّسَاءِ الْمُحَرَّمَاتِ إِلَى أَمَدٍ مُحَدَّدٍ زَوْجَةُ الْغَيْرِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُهُ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾؛ أَيْ: وَحَرَّمَ عَلَيْكُمْ نِكَاحَ الْمُتَزَوِّجَاتِ إِلَّا مَا مَلَكْتُمُوهُنَّ بِالسَّبْيِ مِنْ دَارِ الْحَرْبِ فَإِنَّهَا تَحِلُّ لِمَالِكِهَا لِحَدِيثِ أَبِي سَعِيدٍ وَسَيَأْتِي، وَلِأَنَّهُ بِالسَّبْيِ يَرْتَفِعُ النِّكَاحُ بَيْنَهَا وَبَيْنَ زَوْجِهَا بَعْدَ الِاسْتِبْرَاءِ بِحَيْضَةٍ؛ لِحَدِيثِ أَبِي سَعِيدٍ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ فِي سَبَايَا أَوْطَاسٍ: «لَا تُوطَأُ حَامِلٌ حَتَّى تَضَعَ وَلَا غَيْرُ ذَاتِ حَمْلٍ حَتَّى تَحِيضَ حَيْضَةً»[٥٠].

➥ وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- قَالَ: "أَصَبْنَا سَبَايَا يَوْمَ أَوْطَاسَ، لَهُنَّ أَزْوَاجٌ مِنْ أَهْلِ الشِّرْكِ، فَكَأَنَّ أُنَاسًا مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ تَحَرَّجُوا مِنْ غَشَيَانِهِنَّ، فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ كِتَابُ اللهِ عَلَيْكُمْ﴾.[٥١] كَتَبَ اللَّهُ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ كِتَابًا، وَفَرَضَهُ فَرْضًا وَقَوْلُهُ: ﴿كِتَابَ اللهِ عَلَيْكُمْ﴾ مَفْعُولٌ مُطْلَقٌ لِفِعْلٍ مَحْذُوفٍ تَقْدِيرُهُ "كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ كِتَابًا ".

❁ ﴿وَأُحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكُمْ﴾؛ أَيْ: مَا عَدَا ذَلِكُمْ مِنَ النِّسَاءِ، وَهَذَا فِيهِ أَنَّ الْحَرَامَ مَحْدُودٌ، وَالْحَلَالَ لَيْسَ لَهُ حَدٌّ، وَهَذَا مِنْ كَرَمِ اللهِ وُجُودِهِ وَإِحْسَانِهِ، ﴿أَنْ تَبْتَغُوا﴾؛ أَيْ: تَطْلُبُوا النِّسَاءَ بِأَمْوَالِكُمْ ﴿مُحْصِنِينَ﴾ مُتَزَوِّجِينَ ﴿غَيْرَ مُسَافِحِينَ﴾ غَيْرَ زَانِينَ، وَإِنَّمَا غَرَضُكُمْ مِنْ زَوَاجِكُمُ الْعِفَّةَ عَنِ الْوُقُوعِ فِي الزِّنَا ﴿فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ﴾ بِالنِّكَاحِ الشَّرْعِيِّ.

❁ ﴿فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾؛ أَيْ: مُهُورَهُنَّ ﴿فَرِيضَةً﴾ نُصِبَ عَلَى الْمَصْدَرِ فِي مَوْضِعِ الْحَالِ، وَهَذَا هُوَ الصَّوَابُ فِي تَفْسِيرِ الْآيَةِ بِلَا شَكٍّ، وَهُوَ الَّذِي عَلَيْهِ الْمُحَقِّقُونَ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ، وَقِيلَ: الْمُرَادُ بِالِاسْتِمْتَاعِ هُنَا نِكَاحُ الْمُتْعَةِ وَهَذَا فِيهِ نَظَرٌ؛ لِأَنَّهُ لَوْ كَانَتِ الْآيَةُ فِي الْمُتْعَةِ لَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:

---

[٥٠] أخرجه أبو داود (٢١٥٧).
[٥١] أخرجه مسلم (١٤٥٦).

﴿مُحْصَنِينَ﴾؛ لِأَنَّ الْمُتْعَةَ لَا تُحْصِنُ، وَإِنَّمَا الَّذِي يُحْصِنُ هُوَ النِّكَاحُ الشَّرْعِيُّ الصَّحِيحُ الْمُعْتَبَرُ، وَلِأَنَّ سِيَاقَ الْآيَاتِ مِنْ أَوَّلِ السُّورَةِ إِلَى مَا بَعْدَ هَذِهِ الْآيَةِ مُنْصَبٌّ فِي بَيَانِ أَحْكَامِ النِّكَاحِ الشَّرْعِيِّ وَلَيْسَ نِكَاحَ الْمُتْعَةِ، وَتَأَمَّلْ فِي الْآيَةِ الَّتِي بَعْدَ هَذِهِ الْآيَةِ مُبَاشَرَةً ﴿وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ﴾.

وَأَيْضًا الْآيَاتُ الَّتِي قَبْلَهَا يَتَبَيَّنُ لَكَ بِوُضُوحٍ أَنَّ الْآيَاتِ كُلَّهَا فِي بَيَانِ أَحْكَامِ النِّكَاحِ الشَّرْعِيِّ، وَلَوْ سَلَّمْنَا تَسْلِيمًا جَدَلِيًّا بِأَنَّهُ الْمُرَادُ فَهُوَ مَنْسُوخٌ بِالْأَحَادِيثِ الصَّحِيحَةِ الصَّرِيحَةِ الَّتِي تُفِيدُ تَحْرِيمَ نِكَاحِ الْمُتْعَةِ تَحْرِيمًا مُؤَبَّدًا ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ﴾؛ أَيْ: لَا حَرَجَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُمْ بِهِ مِنْ إِسْقَاطِ شَيْءٍ مِنَ الْمَهْرِ أَوْ الْإِبْرَاءِ مِنْهُ أَوْ الزِّيَادَةِ عَلَيْهِ بَعْدَ اتِّفَاقِكُمْ عَلَى تَحْدِيدِ الْمَهْرِ ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ فِيمَا شَرَعَ وَبَيَّنَ مِنْ أَحْكَامِ النِّكَاحِ.

﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۚ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِكُم ۚ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ مُحْصَنَٰتٍ غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍ ۚ فَإِذَآ أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَٰحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى ٱلْمُحْصَنَٰتِ مِنَ ٱلْعَذَابِ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ ٱلْعَنَتَ مِنكُمْ ۚ وَأَن تَصْبِرُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النساء: ٢٥].

❁ ﴿وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا﴾؛ أَيْ: سَعَةً وَغِنًى وَقُدْرَةً عَلَى تَكَالِيفِ الزَّوَاجِ ﴿أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ﴾ الْحَرَائِرَ ﴿الْمُؤْمِنَاتِ فَمِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾؛ أَيْ: فَلَهُ أَنْ يَنْكِحَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ﴿مِنْ فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ﴾ وَفِي الْآيَةِ دَلِيلٌ على أَنَّهُ لَا يَجُوزُ نِكَاحُ الْأَمَةِ الْكِتَابِيَّةِ وَهُوَ مَذْهَبُ الْجُمْهُورِ، خِلَافًا لِأَبِي حَنِيفَةَ فَإِنَّهُ جَوَّزَ لِلْمُسْلِمِ نِكَاحَ الْأَمَةِ الْكِتَابِيَّةِ، **وَمَأْخَذُ الْمَسْأَلَةِ هَلْ يُحْتَجُّ بِمَفْهُومِ الْمُخَالَفَةِ أَمْ لَا؟** فَالْجُمْهُورُ اعْتَبَرُوهُ مِنَ الْأَدِلَّةِ الشَّرْعِيَّةِ وَخَالَفَهُمْ أَبُو حَنِيفَةَ رَحِمَهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا، وَأَمَّا وَطْؤُهَا بِمِلْكِ الْيَمِينِ فَجَائِزٌ بِالِاتِّفَاقِ، بِخِلَافِ وَطْءِ الْأَمَةِ الْمُشْرِكَةِ فَقَدْ وَقَعَ خِلَافٌ قَوِيٌّ بَيْنَ الْعُلَمَاءِ فِي حُكْمِ وَطْءِ الْأَمَةِ الْمُشْرِكَةِ، فَذَهَبَ جَمَاهِيرُ أَهْلِ الْعِلْمِ إِلَى أَنَّهُ لَا يَجُوزُ لِعُمُومِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَ﴾ [البقرة: ٢٢١].

➥ **وَالْقَوْلُ الثَّانِي**: الْجَوَازُ وَهُوَ اخْتِيَارُ شَيْخِ الْإِسْلَامِ وَتِلْمِيذِهِ ابْنِ الْقَيِّمِ، وَاسْتَدَلُّوا بِحَدِيثِ أَبِي سَعِيدٍ الْمُتَقَدِّمِ فِي قِصَّةِ سَبَايَا أَوْطَاسٍ وَهُوَ نَصٌّ صَرِيحٌ فِي الْمَسَالَةِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

❁ ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ﴾؛ أَيْ: وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِقُوَّةِ إِيمَانِكُمْ، فَاعْمَلُوا عَلَى الظَّاهِرِ فِي الْإِيمَانِ فَإِنَّكُمْ مُتَعَبَّدُونَ بِمَا ظَهَرَ، وَأَمَّا السَّرَائِرُ فَاللَّهُ تَعَالَى هُوَ الْعَلِيمُ بِهَا، وَهُوَ مَنْ يُحَاسِبُ عَلَيْهَا، فَإِذَا كَانَتْ الْأُمَّة مُؤْمِنَةً فِي الظَّاهِرِ فَنِكَاحُهَا صَحِيحٌ، وَبَاطِنُهَا إلَى الله تَعَالَى، وَهَذَا فِيهِ أَنَّ أَحْكَامَ الدُّنْيَا كُلَّهَا مَبْنِيَّةٌ عَلَى الظَّاهِرِ لَا عَلَى الْبَاطِنِ؛ **كَمَا قَالَ الْفَارُوقُ عُمَرُ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ–: (إنَّ أُنَاسًا كَانُوا يُؤْخَذُونَ بِالْوَحْيِ فِي عَهْدِ رَسُولِ الله ﷺ، وَإِنَّ الْوَحْيَ قَدِ انْقَطَعَ، وَإِنَّمَا نَأْخُذُكُمُ الْآنَ بِمَا ظَهَرَ لَنَا مِنْ أَعْمَالِكُمْ، فَمَنْ أَظْهَرَ لَنَا خَيْرًا، أَمِنّاهُ، وَقَرَّبْنَاهُ، وَلَيْسَ إلَيْنَا مِنْ سَرِيرَتِهِ شَيْءٌ اللَّهُ يُحَاسِبُهُ فِي سَرِيرَتِهِ، وَمَنْ أَظْهَرَ لَنَا سُوءًا لَمْ نَأْمَنْهُ، وَلَمْ نُصَدِّقْهُ، وَإِنْ قَالَ: إنَّ سَرِيرَتَهُ حَسَنَةٌ)**[٥٢].

❁ ﴿بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ﴾؛ أَيْ: كُلُّكُمْ أَصْلُكُمْ وَاحِدٌ وَدِينُكُمْ الْإِسْلَامُ فَلَا تَسْتَنْكِفُوا مِنْ نِكَاحِهِنَّ، وَهَذَا فِيهِ تَأْنِيسُهُمْ بِنِكَاحِ الْإِمَاءِ، وَفِيهِ أَنَّ مَنَاطَ التَّفَاخُرِ إنَّمَا هُوَ بِالْإِيمَانِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ وَلَيْسَ بِالتَّبَاهِي بِالْأَحْسَابِ وَالْأَنْسَابِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَى إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ﴾ [سبأ: ٣٧]، وَقَالَ ﷺ: «وَمَنْ بَطَّأَ بِهِ عَمَلُهُ لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ»[٥٣].

❁ **ثُمَّ بَيَّنَ اللَّهُ تَعَالَى كَيْفِيَّةَ نِكَاحِهِنَّ فَقَالَ:** ﴿فَانْكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ﴾ الْمَالِكِينَ لَهُنَّ ﴿وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ مُهُورَهُنَّ، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُنَّ أَحَقُّ بِالْمَهْرِ مِنْ مَالِكِهِنَّ، وَهَذَا مَذْهَبُ الْإِمَامِ مَالِك، وَذَهَبَ الْجُمْهُورُ إلَى أَنَّهُنَّ لَا يَمْلِكْنَ الْمَهْرَ، وَإِنَّمَا يَكُونُ لِمَالِكِيهِنَّ؛ لِقَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: «مَنْ بَاعَ عَبْدًا لَهُ مَالٌ فَمَالُهُ لِلَّذِي بَاعَهُ إِلَّا أَنْ يَشْتَرِطَ الْمُبْتَاعُ»[٥٤]، فَمُقْتَضَى هَذَا الْحَدِيثِ أَنَّ الْأَمَةَ لَا تَمْلِكُ إنَّمَا الَّذِي يَمْلِكُ هُوَ مَالِكُهَا.

---

[٥٢] أخرجه البخاري (٢٦٤١).
[٥٣] أخرجه مسلم (٢٦٩٩).
[٥٤] أخرجه البخاري (٢٣٧٩)، ومسلم (١٥٤٣).

❁ ﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾؛ أَيْ: بِمَا هُوَ مَعْرُوفٌ عِنْدَ النَّاسِ وَأَقَرَّهُ الشَّرْعُ مِنْ غَيْرِ مَطْلٍ وَنَقْصٍ ﴿مُحْصَنَاتٍ﴾؛ أَيْ: عَفِيفَاتٍ، **وَهِيَ**: حَالٌ مِنَ الْمَفْعُولِ فِي قَوْلِهِ: ﴿فَانْكِحُوهُنَّ﴾؛ أَيْ: فَانْكِحُوهُنَّ حَالَ كَوْنِهِنَّ عَفِيفَاتٍ عَنِ الْفَاحِشَةِ ﴿غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ﴾ حَالٌ أَيْضًا؛ أَيْ: غَيْرَ زَانِيَاتٍ، وَ"**الْمُسَافِحُ الزَّانِي –وَالْعِيَاذُ بِاللهِ– وَسُمِّيَ مُسَافِحًا؛ لِأَنَّهُ لَيْسَ لَهُ هَمٌّ إِلَّا سَفْحُ الْمَاءِ فِي الْقُبُلِ، لَا يُرِيدُ أَوْلَادًا وَلَا عِشْرَةً وَلَا مَوَدَّةً وَإِنَّمَا هُوَ كَالتَّيْسِ يُرِيدُ أَنْ يَقْضِيَ نَهْمَتَهُ فَقَطْ**" قاله ابن عثيمين.[٥٥]

❁ ﴿ولا مُتَّخِذات أخْدان﴾ وَهَذَا أَيْضًا تَأْكِيدٌ آخَرُ؛ **أَيْ**: أَصْدِقَاءُ وَأَصْحَابٌ يَزْنُونَ بِهِنَّ سِرًّا؛ لِأَنَّهُمْ كَانُوا فِي الْجَاهِلِيَّةِ يُحَرِّمُونَ الزِّنَا عَلَانِيَةً، وَيَسْمَحُونَ فِيهِ سِرًّا، وَإِنَّمَا قَيَّدَ اللَّهُ تَعَالَى نِكَاحَ الْإِمَاءِ بِهَذِهِ الْقُيُودِ؛ لِأَنَّ الزِّنَا كَانَ مَعْرُوفًا فِيهِمْ أَيَّامَ الْجَاهِلِيَّةِ بِخِلَافِ الْحَرَائِرِ، وَلِهَذَا قَالَتْ هِنْدُ بِنْتُ عُتْبَةَ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ عِنْدَ بَيْعَةِ النِّسَاءِ: (**وَهَلْ تَزْنِي الْحُرَّةُ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟**)[٥٦]، وَهِيَ قِصَّةٌ مَشْهُورَةٌ ذَكَرَهَا الْمُفَسِّرُونَ فِي تَفْسِيرِ آيَةِ بَيْعَةِ النِّسَاءِ فِي سُورَةِ الْمُمْتَحَنَةِ.

❁ ﴿فَإِذَا أُحْصِنَّ﴾؛ أَيْ: تَزَوَّجْنَ ﴿فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ﴾ زِنًا ﴿فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ﴾ الْحَرَائِرِ الْأَبْكَارِ إِذَا زَنَيْنَ ﴿مِنَ الْعَذَابِ﴾، الْحَدّ فَيُجْلَدْنَ خَمْسِينَ وَيُغَرَّبْنَ نِصْفَ سَنَةٍ وَيُقَاسُ عَلَيْهِنَّ الْعَبِيدُ، وَمَفْهُومُ الْآيَةِ أَنَّهُ لَا حَدَّ عَلَى الْأَمَةِ إِلَّا إِذَا تَزَوَّجَتْ، لَكِنْ جَاءَتِ السُّنَّةُ بِجَلْدِهَا وَإِنْ لَمْ تَتَزَوَّجْ؛ **كَمَا فِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ– قَالَ: قَالَ** ﷺ: «**إذا زَنَتْ أَمَةُ أحَدِكُمْ، فَتَبَيَّنَ زِناها، فَلْيَجْلِدْها الحَدَّ، ولا يُثَرِّبْ عَلَيْها، ثُمَّ إنْ زَنَتْ، فَلْيَجْلِدْها الحَدَّ، ولا يُثَرِّبْ عَلَيْها، ثُمَّ إنْ زَنَتِ الثّالِثَةَ، فَتَبَيَّنَ زِناها، فَلْيَبِعْها، ولَوْ بِحَبْلٍ مِن شَعَرٍ**»[٥٧].

---

[٥٥] تفسير سورة النساء (١/ص: ٢٢٠).
[٥٦] أخرجه مطولا ابن سعد في الطبقات الكبرى (١١٩٤١)، وسعيد بن منصور في سننه (٥١٧٥).
[٥٧] أخرجه البخاري (٢٢٣٤)، ومسلم (١٧٠٣).

➥ **فَهَذَا الْحَدِيثُ نَصٌّ فِي أَنَّهَا يُقَامُ عَلَيْهَا الْحَدُّ**؛ لِأَنَّهُ لَمْ يُفَرِّقْ بَيْنَ الْأَمَةِ الْمُتَزَوِّجَةِ وَغَيْرِهَا، وَهُوَ مَنْطُوقٌ فَيُقَدَّمُ عَلَى مَفْهُومِ الْآيَةِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ، وَلَا تُرْجَمُ بِالِاتِّفَاقِ، **وَهَلْ تُغَرَّبُ؟ الْمَشْهُورُ مِنَ الْمَذْهَبِ**: وَهُوَ قَوْلُ أَبِي حَنِيفَةَ وَمَالِك: لَا تُغَرَّبُ، وَهُوَ الْأَقْرَبُ لِحَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- الْمُتَقَدِّمِ وَلَمْ يَذْكُرْ فِيهِ تَغْرِيبًا، وَلَوْ كَانَ وَاجِبًا لَذَكَرَهُ؛ لِأَنَّهُ لَا يَجُوزُ تَأْخِيرُ الْبَيَانِ عَنْ وَقْتِهِ.

➥ **وَقَالَ الشَّافِعِيُّ**: تُغَرَّبُ نِصْفُ سَنَةٍ.

❁ ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ﴾ الزِّنَا ﴿مِنكُمْ﴾ فَتَبَيَّنَ مِمَّا سَبَقَ أَنَّهُ لَا يَجُوزُ لِلْحُرِّ الْمُسْلِمِ نِكَاحُ أَمَةٍ إِلَّا بِشُرُوطٍ أَرْبَعَةٍ؛ ذَكَرَهَا اللَّهُ تَعَالَى فِي هَذِهِ الْآيَةِ: أَنْ تَكُونَ الْأَمَةُ مُؤْمِنَةً وَعَفِيفَةً، وَأَيْضًا عَدَمُ الْقُدْرَةِ عَلَى مَهْرِ الْحُرَّةِ، وَخَوْفُ الزِّنَا.

❁ ﴿وَأَن تَصْبِرُوا﴾ عَنْ نِكَاحِ الْإِمَاءِ ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾، وَقَدْ قَالَ عُمَرُ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-: "أَيُّمَا حُرٍ تَزَوَّجَ أَمَةً فَقَدْ أَرَقَّ نِصْفَهُ، وَأَيُّمَا عَبْدٍ يَتَزَوَّجُ حُرَّةً فَقَدْ أَعْتَقَ نِصْفَهُ"[٥٨]، ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [النساء: ٢٦].

❁ ﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ﴾؛ أَيْ: يُرِيدُ اللَّهُ تَعَالَى بِهَذِهِ الْأَحْكَامِ الْعَظِيمَةِ أَنْ يُوَضِّحَ لَكُمْ شَرَائِعَ دِينِكُمْ وَمَصَالِحَ أَمْرِكُمْ ﴿وَيَهْدِيَكُمْ﴾ يُرْشِدَكُمْ وَيَدُلَّكُمْ، ﴿سُنَنَ﴾ طُرُقَ ﴿الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ وَالصَّالِحِينَ لِتَقْتَدُوا بِهِمْ.

❁ ﴿وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾؛ أَيْ: يُوَفِّقُكُمْ لِلتَّوْبَةِ وَيَتُوبُ عَلَى التَّائِبِينَ وَيَغْفِرُ ذُنُوبَ الْمُذْنِبِينَ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ﴾ [الشورى: ٢٥]، وَهَذَا وَاللهِ مِنْ كَرَمِ اللهِ وُجُودِهِ وَإِحْسَانِهِ، فَلَهُ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ وَالْفَضْلُ ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

[٥٨] أخرجه سعيد بن منصور في سننه (٧١٤).

﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡكُمۡ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُواْ مَيۡلًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٢٧].

❁ ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ عَلَى الْمُؤْمِنِ الْمُوَفَّقِ الَّذِي يُرِيدُ النَّجَاةَ لِنَفْسِهِ أَنْ يَتَعَرَّضَ لِهَذِهِ الْإِرَادَةِ، وَيَسْتَشْعِرَ بِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَفْرَحُ بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ أَشَدَّ فَرَحًا مِنْ رَجُلٍ كَانَ عَلَى رَاحِلَتِهِ، بِأَرْضٍ فَلَاةٍ، فَانْفَلَتَتْ مِنْهُ، وَعَلَيْهَا طَعَامُهُ وَشَرَابُهُ، فَأَيِسَ مِنْهَا، فَأَتَى شَجَرَةً، فَاضْطَجَعَ فِي ظِلِّهَا، قَدْ أَيِسَ مِنْ رَاحِلَتِهِ، فَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ، إِذْ هُوَ بِهَا قَائِمَةٌ عِنْدَهُ، فَأَخَذَ بِخِطَامِهَا، ثُمَّ قَالَ — مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ —: اللَّهُمَّ أَنْتَ عَبْدِي، وَأَنَا رَبُّكَ! أَخْطَأَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ؛ كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ مِنْ حَدِيثِ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَكَرَّرَ اللَّهُ تَعَالَى إِرَادَةَ التَّوْبَةِ مِنَّا تَوْطِئَةً وَمُقَابَلَةً؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ﴾ مِنْ أَهْلِ الْكُفْرِ وَالنِّفَاقِ وَالْفُسُوقِ وَالْعِصْيَانِ.

❁ ﴿أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا﴾؛ **أَيْ**: أَنْ تَبْتَعِدُوا عَنِ التَّوْبَةِ وَالْأَخْذِ بِأَسْبَابِهَا بِمُوَافَقَتِهِمْ عَلَى اتِّبَاعِ الشَّهَوَاتِ فَتَكُونُوا مِثْلَهُمْ، فَإِرَادَتُهُمْ تَتَمَثَّلُ فِي الْمَيْلِ بِالنَّاسِ عَنْ طَرِيقِ التَّوْبَةِ إِلَى طَرِيقِ الشُّبُهَاتِ وَالشَّهَوَاتِ الَّتِي تَعْصِفُ بِالْقُلُوبِ وَتُزْهِقُ النُّفُوسَ وَتُورِدُ الْمَهَالِكَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَوَصَفَ الْمَيْلَ بِالْعِظَمِ لِإِفَادَةِ أَنَّهُمْ لَا يَقْنَعُونَ بِالْمَيْلِ الْيَسِيرِ، فَذَلِكَ لَا يُرْضِيهِمْ، وَإِنَّمَا يُرِيدُونَ مَيْلًا عَظِيمًا تُقْلَبُ فِيهِ الْمَفَاهِيمُ وَتُنَكَّسُ فِيهِ الْفِطَرُ، وَيَبْتَعِدُ النَّاسُ فِيهِ عَنْ دِينِ اللهِ الْقَوِيمِ وَصِرَاطِهِ الْمُسْتَقِيمِ.

❁ وَالْآيَةُ فِيهَا إِرَادَتَانِ:

١. **إِرَادَةٌ مِنَ اللهِ تَعَالَى** أَنْ يَتُوبَ عَلَيْنَا وَتَضَمَّنَتْ هَذِهِ الْإِرَادَةُ تَعْلِيمَهُ إِيَّانَا التَّوْبَةَ وَهِدَايَتَنَا لِطَرِيقِهَا، وَفَتْحَ أَبْوَابِهَا لَنَا وَقَبُولَهَا مِنَّا فَلَهُ الْحَمْدُ عَلَى ذَلِكَ حَمْدًا كَثِيرًا.

٢. **وَإِرَادَةٌ مِنْ أَهْلِ الشَّهَوَاتِ**، وَتَتَمَثَّلُ فِي الْمَيْلِ الْعَظِيمِ عَنْ طَرِيقِ التَّوْبَةِ وَالْإِصْرَارِ عَلَى الذَّنْبِ وَالْبُعْدِ عَنِ اللهِ وَعَنْ دِينِهِ الْقَوِيمِ وَصِرَاطِهِ الْمُسْتَقِيمِ، فَشَتَّانَ مَا بَيْنَ الْإِرَادَتَيْنِ، وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ.

﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمۡۚ وَخُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ ضَعِيفٗا﴾ [النساء: ٢٨].

❁ ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ﴾؛ أَيْ: يُسَهِّلَ عَلَيْكُمْ فِي شَرَائِعِهِ وَأَحْكَامِهِ، وَقَدْ خَفَّفَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى هَذِهِ الْأُمَّةِ فِي شَرَائِعِهَا وَأَحْكَامِهَا، وَيَظْهَرُ ذَلِكَ جَلِيًّا لِمَنْ تَأَمَّلَ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَمَقَاصِدِ الشَّرِيعَةِ، فَالشَّرِيعَةُ يُسْرٌ كُلُّهَا، لَا عُسْرَ فِيهَا بِوَجْهٍ مِنَ الْوُجُوهِ، وَقَدْ دَلَّ عَلَى هَذَا قَوْلُ اللهِ تَعَالَى: ﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [المائدة: ٦]، وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨]، وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥]، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

❁ وَمَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ﴾ أَنَّهُ ﷺ جَاءَ بِالتَّيْسِيرِ وَالسَّمَاحَةِ، وَقَوْلُ الرَّسُولِ ﷺ: «بُعِثْتُ بِالْحَنِيفِيَّةِ السَّمْحَةِ»[٥٩]، وَقَوْلُ النَّبِيِّ ﷺ: «يَسِّرُوا وَلَا تُعَسِّرُوا»[٦٠]، وَقَوْلُهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «إِنَّ هَذَا الدِّينَ يُسْرٌ وَلَنْ يُشَادَّ الدِّينَ أَحَدٌ إِلَّا غَلَبَهُ»[٦١]، وَاسْتَنْبَطَ الْعُلَمَاءُ مِنْ هَذِهِ النُّصُوصِ وَغَيْرِهَا قَاعِدَةً عَظِيمَةً تُعْتَبَرُ مِنَ الْقَوَاعِدِ الْخَمْسِ الْكُلِّيَّةِ الْكُبْرَى وَهِيَ: الْمَشَقَّةُ تَجْلِبُ التَّيْسِيرَ، وَفَرَّعُوا عَلَى هَذِهِ الْقَاعِدَةِ الْعَظِيمَةِ قَوَاعِدَ فَرْعِيَّةً كَثِيرَةً مِنْهَا:

١. قَوْلُهُمْ: (الضَّرُورَاتُ تُبِيحُ الْمَحْظُورَاتِ).

٢. وَقَوْلُهُمْ: (الضَّرُورَاتُ تُقَدَّرُ بِقَدْرِهَا).

٣. وَقَوْلُهُمْ: (الْحَاجَةُ تَنْزِلُ مَنْزِلَةَ الضَّرُورَةِ، عَامَّةً كَانَتْ أَوْ خَاصَّةً).

---

[٥٩] أخرجه أحمد (٢٢٣٤٥).
[٦٠] أخرجه البخاري (٦٩)، ومسلم (١٧٣٤).
[٦١] أخرجه البخاري (٣٩).

٤. وَقَوْلُهُمْ: (إِذَا ضَاقَ الْأَمْرُ اتَّسَعَ).

٥. وَقَوْلُهُمْ: (لَا وَاجِبَ مَعَ الْعَجْزِ).

٦. وَقَوْلُهُم: (الرُّخَصُ لَا تُنَاطُ بِالْمَعَاصِي) بِمَعْنَى: أَنَّ الْمَشَاقَّ الْمُتَوَلِّدَةَ عَنِ الْمَعَاصِي لَا تَكُونُ سَبَبًا لِلتَّيْسِيرِ وَالتَّخْفِيفِ.

٧. وَقَوْلُهُمْ: (الْمَيْسُورُ لَا يَسْقُطُ بِالْمَعْسُورِ).

٨. وَقَوْلُهُمْ: (مَا جَازَ لِعُذْرٍ بَطَلَ بِزَوَالِهِ).

٩. وَقَوْلُهُمْ: (الِاضْطِرَارُ لَا يُبْطِلُ حَقَّ الْغَيْرِ).

١٠. وَقَوْلُهُمْ: (إِذَا تَعَذَّرَ الْأَصْلُ يُصَارُ إِلَى الْبَدَلِ) وَغَيْرِهَا، وَالْأَمْثِلَةُ عَلَى هَذِهِ الْقَاعِدَةِ كَثِيرَةٌ جِدًّا، وَيَصْعُبُ تَتَبُّعُهَا، لَكِنَّ جَمِيعَ رُخَصِ الشَّرْعِ وَتَخْفِيفَاتِهِ تَخْرُجُ مِنْ قَاعِدَةِ (الْمَشَقَّةُ تَجْلِبُ التَّيْسِيرَ).

❁ ﴿وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ﴾ يَشْمَلُ الرَّجُلَ وَالْمَرْأَةَ مَعًا، فَـ (الْإِنْسَانُ) فِي هَذِهِ الْآيَةِ وَنَحْوِهَا لَفْظٌ عَامٌّ، يَشْمَلُ الرَّجُلَ وَالْمَرْأَةَ ﴿ضَعِيفًا﴾ أَفْضَلُ مَا يُقَالُ فِي نَوْعِ هَذَا الضَّعْفِ أَنَّهُ عَامٌّ كَمَا يَقُولُ الْحَافِظُ ابْنُ الْقَيِّمِ -رَحِمَهُ اللَّهُ- وَغَيْرُهُ، فَالْإِنْسَانُ ضَعِيفٌ فِي كُلِّ أَحْوَالِهِ، ضَعِيفٌ فِي أَصْلِهِ فَخَلْقُهُ مِنْ مَاءٍ مُهِينٍ، وَضَعِيفٌ فِي نَشْأَتِهِ حَيْثُ يَبْدَأُ طِفْلًا صَغِيرًا، ثُمَّ يَبْدَأُ يَكْبُرُ، ثُمَّ يَضْعُفُ مَرَّةً أُخْرَى، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً﴾ الْآيَةَ [الروم: ٥٤]، وَضَعِيفٌ فِي بُنْيَتِهِ وَقُوَّتِهِ وَإِرَادَتِهِ وَعِلْمِهِ وَصَبْرِهِ، وَضَعِيفٌ أَيْضًا أَمَامَ نَوَازِعِ النَّفْسِ وَالشَّهْوَةِ، وَالْآفَاتُ إِلَيْهِ مَعَ هَذَا الضَّعْفِ أَسْرَعُ مِنَ السَّيْلِ فِي الْحُدُورِ، وَمِنْ ضَعْفِهِ الشَّدِيدِ أَيْضًا أَنَّ كُلًّا مِنَ الرَّجُلِ وَالْأُنْثَى ضَعِيفٌ أَمَامَ الْآخَرِ، وَأَنَّ كُلًّا مِنْهُمَا فِي مَوْضِعِ ابْتِلَاءٍ وَاخْتِبَارٍ، وَأَنَّ عَلَى كُلٍّ مِنْهُمَا أَنْ لَا يَنْسَاقَ وَرَاءَ هَذَا الضَّعْفِ، بَلْ عَلَيْهِ أَنْ يَتَغَلَّبَ عَلَيْهِ بِالصَّبْرِ وَالْمُجَاهَدَةِ وَالْتِزَامِ مَا شَرَعَ اللَّهُ، لِيَجْتَازَ هَذَا الِاخْتِبَارَ بِسَلَامٍ وَنَجَاحٍ، وَيَكُونَ عِنْدَ اللهِ مِنْ عِبَادِهِ الْمُتَّقِينَ، وَهَذَا النَّوْعُ مِنَ الضَّعْفِ هُوَ مُقْتَضَى سِيَاقِ الْآيَاتِ.

↩ لَكِنْ حَمَلْنَا الْآيَةَ عَلَى الْعُمُومِ؛ لِأَنَّ الْقَاعِدَةَ الْمُهِمَّةَ فِي التَّفْسِيرِ "أَنَّهُ كُلَّمَا كَانَ مِنَ الْمُمْكِنِ حَمْلُ مَعَانِي الْقُرْآنِ عَلَى الْعُمُومِ وَالشُّمُولِ كَانَ أَقْرَبَ إِلَى الصَّوَابِ؛ وَأَنَّ الْأَقْوَالَ إِذَا لَمْ تَكُنْ مُتَنَاقِضَةً، وَأَمْكَنَ حَمْلُ الْآيَةِ عَلَيْهَا جَمِيعِهَا كَانَ أَوْفَقَ فِي التَّفْسِيرِ"، وقَوْله تَعَالَى: ﴿وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا﴾ تَعْلِيلٌ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ﴾؛ أَيْ: يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ فِي شَرَائِعِهِ وَأَحْكَامِهِ؛ لِأَنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ ضَعِيفًا فَكَانَتْ الشَّرَائِعُ وَالْأَحْكَامُ خَفِيفَةً مُيَسَّرَةً، وَأَيْضًا مُنَاسِبَةً لِحَالِ الْإِنْسَانِ وَلَيْسَ فِيهَا مَا هُوَ فَوْقَ طَاقَتِهِ، وَهَذِهِ الْآيَاتُ الثَّلَاثُ آيَاتٌ عَظِيمَةٌ يَظْهَرُ فِيهَا كَرَمُ اللَّهِ وُجُودُهُ وَإِحْسَانُهُ وَفَضْلُهُ عَلَى هَذِهِ الْأُمَّةِ.

↩ وَلِهَذَا يَقُولُ ابْنُ عَبَّاسٍ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا–:

"ثَمَانُ آيَاتٍ فِي سُورَةِ النِّسَاءِ هِيَ خَيْرٌ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ مِمَّا طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ وَغَرَبَتْ، أَوَّلُهُنَّ: (يُرِيدُ اللهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ) ثَلَاثًا مُتَتَابِعَاتٍ، وَالرَّابِعَةُ: (إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا)، وَالْخَامِسَةُ: (إِنَّ اللهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا) الْآيَةَ، وَالسَّادِسَةُ: (وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللهَ يَجِدِ اللهَ غَفُورًا رَحِيمًا)، وَالسَّابِعَةُ: (إِنَّ اللهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ) الْآيَةَ، وَالثَّامِنَةُ: (وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ) الْآيَةَ".[٦٢]

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم بَيۡنَكُم بِٱلۡبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٖ مِّنكُمۡۚ وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمۡ رَحِيمٗا﴾ [النساء: ٢٩].

❁ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ﴾؛ أَيْ: لَا يَأْكُلْ بَعْضُكُمْ أَمْوَالَ بَعْضٍ ﴿بِالْبَاطِلِ﴾؛ أَيْ: عَلَى وَجْهٍ لَا يُبِيحُهُ الشَّرْعُ، وَوُجُوهُ ذَلِكَ كَثِيرَةٌ كَالرِّبَا وَالْغَصْبِ وَالْقِمَارِ وَالْغِشِّ وَنَحْوِ ذَلِكَ مِنَ الْبُيُوعِ الْمَنْهِيِّ عَنْهَا ﴿إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً﴾؛ أَيْ: لَكِنْ إِنْ كَانَتْ التِّجَارَةُ مَشْرُوعَةً وَوَقَعَتْ ﴿عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ﴾ وَطِيبِ نَفْسٍ فَلَكُمْ أَنْ تَأْكُلُوهَا لِضَرُورَةِ النَّاسِ لِذَلِكَ.

[٦٢] أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٧١٤٥).

➥ **وَفِي الْآيَةِ:** دَلِيلٌ عَلَى تَحْرِيمِ أَكْلِ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ، وَإِبَاحَةِ التِّجَارَةِ وَالرِّبْحِ فِيهَا، وَأَنَّ مِنْ أَهَمِّ شُرُوطِ الْبَيْعِ التَّرَاضِي بَيْنَ الْمُتَعَاقِدَيْنِ، وَأَنَّ بَيْعَ الْمُكْرَهِ بَاطِلٌ إِلَّا إِذَا كَانَ بِحَقٍّ.

❁ ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ أَوْ إِخْوَانَكُمْ الْمُؤْمِنِينَ؛ لِأَنَّهُمْ بِمَنْزِلَةِ أَنْفُسِكُمْ، وَهَذَا النَّهْيُ مِنَ اللهِ تَعَالَى مِنْ مُقْتَضَى رَحْمَتِهِ بِعِبَادِهِ.

➥ **وَلِهَذَا قَالَ:** ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ وَقَدِ احْتَجَّ بِهَذِهِ الآيَةِ عَمْرُو بْنُ العاصِ عَلَى مَسْأَلَةِ التَّيَمُّمِ لِلْبَرْدِ، وأَقَرَّهُ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى احْتِجاجِهِ، قالَ: «**لَمّا بَعَثَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ عامَ ذاتِ السَّلاسِلِ، قالَ: احْتَلَمْتُ في لَيْلَةٍ بارِدَةٍ شَدِيدَةِ البَرْدِ، فَأَشْفَقْتُ إنِ اغْتَسَلْتُ أنْ أهْلَكَ، فَتَيَمَّمْتُ ثُمَّ صَلَّيْتُ بأصْحابِي صَلاةَ الصُّبْحِ، قالَ: فَلَمّا قَدِمْنا عَلى رَسُولِ اللهِ ﷺ ذَكَرْتُ ذَلِكَ لَهُ فَقالَ: يا عَمْرُو صَلَّيْتَ بأصْحابِكَ وأنْتَ جُنُبٌ؟! قالَ: قُلْتُ: نَعَمْ يا رَسُولَ اللَّهِ، إنِّي احْتَلَمْتُ في لَيْلَةٍ بارِدَةٍ شَدِيدَةِ البَرْدِ فَأشْفَقْتُ إنِ اغْتَسَلْتُ أنْ أهْلَكَ، وذَكَرْتُ قَوْلَ اللهِ عَزَّ وجَلَّ: ﴿ولا تَقْتُلُوا أنْفُسَكم إنَّ اللَّهَ كانَ بِكم رَحِيمًا﴾ فَتَيَمَّمْتُ ثُمَّ صَلَّيْتُ فَضَحِكَ رَسُولُ اللهِ ﷺ ولَمْ يَقُلْ شَيْئًا**»[٦٣].

﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَٰنًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾ [النساء: ٣٠].

❁ ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ﴾؛ أَيْ: مَا سَبَقَ مِنْ أَكْلِ الْمَالِ بِالْبَاطِلِ وَقَتْلِ الْأَنْفُسِ، ﴿عُدْوَانًا﴾ مُتَجَاوِزًا بِذَلِكَ حُدُودَ اللهِ تَعَالَى، ﴿وَظُلْمًا﴾؛ أَيْ: بِدُونِ حَقٍّ، وَقَوْلُهُ: ﴿عُدْوَانًا وَظُلْمًا﴾ فِيهَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ فِعْلَ النَّاسِي وَالْمُخْطِئِ وَالْمُكْرَهَ لَا يَدْخُلُ فِي ذَلِكَ، لِأَنَّ هَذِهِ الْأَفْعَالَ لَا تَتَّصِفُ بِالظُّلْمِ وَالْعُدْوَانِ، لَكِنْ عَلَيْهِ الضَّمَانُ لِلْآدَمِيِّ وَالْكَفَّارَةُ فِي قَتْلِ النَّفْسِ ﴿فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نارًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرًا﴾، وَالْآيَةُ فِيهَا الْوَعِيدُ الشَّدِيدُ لِمَنْ أَكَلَ الْمَالَ بِالْبَاطِلِ، وَقَتَلَ الْأَنْفُسَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا بِإِصْلَائِهِ نَارًا، وَهِيَ عُقُوبَةٌ يَسِيرَةٌ عَلَى اللهِ تَعَالَى.

[٦٣] أخرجه أبو داود (٣٣٤) واللفظ له، وأحمد (١٧٨٤٥).

﴿إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا﴾ [النساء: ٣١].

❁ ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ﴾ وَهِيَ كُلّ ذَنْبٍ رُتِّبَ عَلَيْهِ حَدٌّ فِي الدُّنْيَا أَوْ وَعِيدٌ فِي الْآخِرَةِ بِنَارٍ أَوْ غَضَبٍ أَوْ لَعْنَةٍ أَوْ عَذَابٍ أَوْ وَعِيدٍ أَوْ مَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، ﴿نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ الَّتِي هِيَ دُونَ الْكَبَائِرِ بِالصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ وَصَوْمِ رَمَضَانَ وَالْعُمْرَةِ وَنَحْوِهَا.

➥ كَمَا فِي الْحَدِيثِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ– قَالَ ﷺ: «الصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ وَالْجُمُعَةُ إِلَى الْجُمُعَةِ وَرَمَضَانُ إِلَى رَمَضَانَ مُكَفِّرَاتٌ لِمَا بَيْنَهُنَّ إِذَا اُجْتُنِبَتْ الْكَبَائِرُ».[٦٤]

➥ وَعَنْهُ أيضًا –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ– عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: «الْعُمْرَةُ إِلَى الْعُمْرَةِ كَفَّارَةٌ لِمَا بَيْنَهُمَا وَالْحَجُّ الْمَبْرُورُ لَيْسَ لَهُ جَزَاءٌ إِلَّا الْجَنَّةُ».[٦٥]

❁ ﴿وَنُدْخِلْكُمْ مَدْخَلًا كَرِيمًا﴾ شَرِيفًا حَسَنًا وَهُوَ الْجَنَّةُ، نَسْأَلُ اللَّهَ تَعَالَى الْكَرِيمَ مِنْ فَضْلِهِ، وَقَدْ دَلَّتْ هَذِهِ الْآيَةُ عَلَى أَنَّ الذُّنُوبَ كَبَائِرُ وَصَغَائِرُ، وَأَنَّ الصَّغَائِرَ تُكَفَّرُ بِاجْتِنَابِ الْكَبَائِرِ، وَأَمَّا الْكَبَائِرُ فَلَا بُدَّ لَهَا مِنْ تَوْبَةٍ.

﴿وَلَا تَتَمَنَّوْاْ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُواْ ۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَ ۚ وَسْـَٔلُواْ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا﴾ [النساء: ٣٢].

❁ عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا– قَالَتْ: (يَا رَسُولَ الله يَغْزُو الرِّجَالُ وَلَا تَغْزُو النِّسَاءُ، وَإِنَّمَا لَنَا نِصْفُ الْمِيرَاثِ. فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى هَذِهِ الْآيَةَ).[٦٦]

❁ ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ فِي الْمَوَاهِبِ وَالْأَرْزَاقِ وَغَيْرِهَا مِنَ الْأُمُورِ الدُّنْيَوِيَّةِ؛ لِئَلَّا يُؤَدِّيَ إِلَى التَّحَاسُدِ وَالتَّبَاغُضِ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ جَعَلَ لِكُلِّ أَحَدٍ مَكَاسِبَ تَخْتَصُّ

[٦٤] أخرجه مسلم (٢٣٣).
[٦٥] أخرجه البخاري (١٧٧٣)، ومسلم (١٣٤٩).
[٦٦] أخرجه الترمذي (٣٠٢٢)، وقال: هذا حديث مرسل.

بِهِ فَ ﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ﴾ ثَوَابٌ ﴿مِمَّا اكْتَسَبُوا﴾ بِسَبَبِ مَا عَمِلُوا مِنَ الْجِهَادِ وَالِاسْتِشْهَادِ وَكَسْبِ الْحَلَالِ وَالْإِنْفَاقِ وَغَيْرِ ذَلِكَ.

❁ ﴿وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبْنَ﴾ مِنَ الْحَمْلِ وَالْوِلَادَةِ وَالْإِرْضَاعِ وَالْقِيَامِ عَلَى الْأَوْلَادِ وَالْبُيُوتِ وَطَاعَةِ الزَّوْجِ وَحِفْظِ الْفَرْجِ ﴿وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ﴾؛ أَيْ: مِنْ خَزَائِنِهِ الَّتِي لَا تَنْفَدُ وَعَطَايَاهُ الَّتِي لَا تَفْنَى، فَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- : أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «يَدُ الله مَلْأَى لاَ يَغِيضُهَا نَفَقَةٌ، سَحَّاءُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ، وَقَالَ: أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْفَقَ مُنْذُ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ، فَإِنَّهُ لَمْ يَغِضْ مَا فِي يَدِهِ، وَقَالَ: عَرْشُهُ عَلَى المَاءِ، وَبِيَدِهِ الأُخْرَى المِيزَانُ، يَخْفِضُ وَيَرْفَعُ»[٦٧].

➥ **وَلِهَذَا مِنْ جَوَامِعِ الدُّعَاءِ**: مَا ثَبَتَ عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ كَانَ يَدْعُو: «اللَّهُمَّ احْفَظْنِي بِالْإِسْلَامِ قَائِمًا، وَاحْفَظْنِي بِالْإِسْلَامِ قَاعِدًا، وَاحْفَظْنِي بِالْإِسْلَامِ رَاقِدًا، وَ لَا تُشْمِتْ بِي عَدُوًّا وَ لَا حَاسِدًا، اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُك مِنْ كُلِّ خَيْرٍ خَزَائِنُهُ بِيَدِك، وَ أَعُوذُ بِك مِنْ كُلِّ شَرٍّ خَزَائِنُهُ بِيَدِك»[٦٨].

❁ ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ فَهُوَ يَعْلَمُ مَنْ يَسْتَحِقُّ فَيُعْطِيهِ مِنْ فَضْلِهِ، وَيَعْلَمُ مَنْ لَا يَسْتَحِقُّ فَيَمْنَعُهُ بِعَدْلِهِ، وَفِي الْآيَةِ النَّهْيُ عَنْ تَمَنِّي الْعَبْدِ مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ غَيْرَهُ عَلَيْهِ، وَإِذَا امْتَثَلَ الْعَبْدُ هَذَا الْأَمْرَ وَتَخَلَّقَ بِهَذَا الْخُلُقِ الْعَظِيمِ صَارَ لَدَيْهِ مِنَ الْقَنَاعَةِ وَالرِّضَا وَرَاحَةِ النَّفْسِ وَطَهَارَةِ الْقَلْبِ مَا يَفُوقُ الْوَصْفَ، فَنَسْأَلُ اللَّهَ تَعَالَى الْكَرِيمَ مِنْ فَضْلِهِ، وَيَنْبَغِي لِلْعَبْدِ أَنْ يَعْلَمَ يَقِينًا لَا شَكَّ فِيهِ أَنَّ التَّفْضِيلَ قِسْمَةٌ مِنَ اللَّهِ، صَادِرَةٌ عَنْ حِكْمَةٍ وَتَدْبِيرٍ وَعِلْمٍ بِأَحْوَالِ الْعِبَادِ، فَعَلَيْهِ أَنْ يَرْضَى بِمَا قُسِمَ لَهُ، وَلَا يَحْسُدَ أَخَاهُ عَلَى حَظِّهِ.

---

[٦٧] أخرجه البخاري (٤٦٨٤)، ومسلم (٩٩٣).

[٦٨] أخرجه الطبراني في الدعاء (١٤٤٥)، والحاكم (١٩٢٤)، وقال: هذا حديث صحيح على شرط البخاري، ولم يخرجاه.

➥ **وَالْآيَةُ أَيْضًا**: تَضَمَّنَتْ النَّهْيَ عَنِ الْحَسَدِ وَهُوَ تَمَنِّي زَوَالِ النِّعْمَةِ عَنْ غَيْرِهِ إِلَيْهِ وَهُوَ كَبِيرَةٌ مِنْ كَبَائِرِ الذُّنُوبِ، وَقَدْ وَرَدَ فِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ مَرْفُوعًا (**إِيَّاكُمْ وَالْحَسَدَ، فَإِنَّهُ يَأْكُلُ الْحَسَنَاتِ كَمَا تَأْكُلُ النَّارُ الْحَطَبَ**)[٦٩]. أَمَّا إِذَا لَمْ يَتَمَنَّ زَوَالَهَا وَإِنَّمَا تَمَنَّى لِنَفْسِهِ مِثْلَهَا فَهَذَا لَا بَأْسَ بِهِ عِنْدَ جَمَاهِيرِ أَهْلِ الْعِلْمِ، وَهُوَ الَّذِي يُسَمَّى **غِبْطَةً**، وَقَدْ ثَبَتَ مِنْ حَدِيثِ ابْنِ مَسْعُودٍ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «**لَا حَسَدَ إِلَّا فِي اثْنَتَيْنِ، رَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ مَالًا فَسُلِّطَه عَلَى هَلَكَتِهِ فِي الْحَقِّ، وَرَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ الْحِكْمَةَ فَهُوَ يَقْضِي بِهَا وَيُعَلِّمُهَا**»[٧٠].

➥ **وَثَبَتَ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ**: «**لَا حَسَدَ إِلَّا فِي اثْنَتَيْنِ: رَجُلٌ عَلَّمَهُ اللَّهُ الْقُرْآنَ فَهُوَ يَتْلُوهُ آنَاءَ اللَّيْلِ وَآنَاءَ النَّهَارِ، فَسَمِعَهُ جَارٌ لَهُ، فَقَالَ: لَيْتَنِي أُوتِيتُ مِثْلَ مَا أُوتِيَ فُلَانٌ فَعَمِلْتُ مِثْلَ مَا يَعْمَلُ، وَرَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ مَالًا فَهُوَ يُهْلِكُهُ فِي الْحَقِّ، فَقَالَ رَجُلٌ: لَيْتَنِي أُوتِيتُ مِثْلَ مَا أُوتِيَ فُلَانٌ فَعَمِلْتُ مِثْلَ مَا يَعْمَلُ**»[٧١].

۞ **فَفِي هَذِهِ الْأَحَادِيثِ أَنَّ الْحَسَدَ لَا يَكُونُ مَحْمُودًا إِلَّا فِي أَمْرَيْنِ؛**

- **الْأَوَّلُ**: «**رَجُلٌ عَلَّمَهُ اللَّهُ الْقُرْآنَ فَهُوَ يَتْلُوهُ آنَاءَ اللَّيْلِ وَآنَاءَ النَّهَارِ**».

- **وَالثَّانِي**: «**وَرَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ مَالًا فَهُوَ يُهْلِكُهُ فِي الْحَقِّ**»؛ **أَيْ**: يُنْفِقُهُ كُلَّهُ فِي الطَّاعَاتِ وَالْبِرِّ، «**فَقَالَ رَجُلٌ: لَيْتَنِي أُوتِيتُ مِثْلَ مَا أُوتِيَ فُلَانٌ، فَعَمِلْتُ مِثْلَ مَا يَعْمَلُ**»، وَأَمَّا التَّمَنِّي فِي غَيْرِ هَذَيْنِ الْأَمْرَيْنِ وَإِنَّمَا عَلَى سَبِيلِ الِاسْتِزَادَةِ مِنَ الدُّنْيَا دُونَ حَاجَةٍ تَدْعُو إِلَى ذَلِكَ فَلَا يُشْرَعُ.

---

[٦٩] أخرجه أبو داود (٤٩٠٣).
[٧٠] أخرجه البخاري (٧٣)، ومسلم (٨١٥).
[٧١] أخرجه البخاري (٧٥٢٩)، ومسلم (٨١٥).

﴿وَلِكُلّٖ جَعَلۡنَا مَوَٰلِيَ مِمَّا تَرَكَ ٱلۡوَٰلِدَانِ وَٱلۡأَقۡرَبُونَۚ وَٱلَّذِينَ عَقَدَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ فَـَٔاتُوهُمۡ نَصِيبَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٣٣].

❁ ﴿وَلِكُلٍّ﴾ الْمُضَافُ إِلَى "كُلٍّ" هُنَا مَحْذُوفٌ عُوِّضَ عَنْهُ التَّنْوِينُ، وَالتَّقْدِيرُ: وَلِكُلِّ مِنْكُمْ ﴿جَعَلْنَا مَوَالِيَ﴾ عَصَبَةً وَوَرَثَةً يُعْطَوْنَ ﴿مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ﴾ لَهُمْ مِنَ الْمَالِ ﴿وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا﴾؛ أَيْ: وَالَّذِينَ حَالَفْتُمُوهُمْ وَتَآخَيْتُمْ مَعَهُمْ فَأَعْطَوْهُمْ نَصِيبَهُمْ مِنَ الْمِيرَاثِ، وَكَانُوا يَجْعَلُونَ لَهُمْ نَصِيبًا فِي الْإِرْثِ وَهُوَ السُّدُسُ.

❁ **وَقَدْ ذَهَبَ جَمَاهِيرُ أَهْلِ الْعِلْمِ إِلَى**: أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ مَنْسُوخَةٌ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ [الأحزاب: ٦]، كَمَا اسْتَدَلُّوا أَيْضًا بِحَدِيثِ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «لَا حِلْفَ فِي الْإِسْلَامِ، وَأَيُّمَا حِلْفٍ كَانَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ لَمْ يَزِدْهُ الْإِسْلَامُ إِلَّا شِدَّةً»[٧٢]، **قَالُوا**: هَذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُ جَاءَ الْإِسْلَامُ فَنَسَخَ ذَلِكَ وَأَقَرَّ الْقَدِيمَ، وَذَهَبَ الْحَنَفِيَّةُ وَهُوَ رِوَايَةٌ عَنِ الْإِمَامِ أَحْمَدَ واخْتَارَهَا شَيْخُ الْإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ إِلَى أَنَّ الْآيَةَ مُحْكَمَةٌ وَأَنَّهُمْ لَا يَرِثُونَ إِلَّا عِنْدَ فُقْدَانِ ذَوِي الْأَرْحَامِ، **وَحِينَئِذٍ** فَلَا تَعَارُضَ بَيْنَ هَذِهِ الْآيَةِ وَبَيْنَ قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

[٧٢] أخرجه مسلم (٢٥٣٠).

﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡۚ فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٞ لِّلۡغَيۡبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُۚ وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهۡجُرُوهُنَّ فِي ٱلۡمَضَاجِعِ وَٱضۡرِبُوهُنَّۖ فَإِنۡ أَطَعۡنَكُمۡ فَلَا تَبۡغُواْ عَلَيۡهِنَّ سَبِيلًاۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيّٗا كَبِيرٗا﴾ [النساء: ٣٤].

❁ ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ﴾ **جَمْعُ** قِوَامٍ، وَالْقِوَامُ صِيغَةُ مُبَالَغَةٍ، **فَيُقَالُ**: قَيِّمٌ وَقِوَامٌ وَهُوَ الَّذِي يَقُومُ عَلَى الشَّيْءِ إِصْلَاحًا وَرِعَايَةً وَحِمَايَةً وَإِنْفَاقًا وَتَعْلِيمًا، فَالرَّجُلُ قَيِّمٌ عَلَى الْمَرْأَةِ وَمَسْؤُولٌ عَنْهَا، يَتَوَلَّى أَمْرَهَا وَيُؤَدِّبُهَا وَيَصُونُهَا وَيَأْخُذُ عَلَى يَدَيْهَا، وَيَلْزَمُهَا طَاعَتُهُ وَقَبُولُ أَمْرِهِ مَا لَمْ يَكُنْ مَعْصِيَةً، وَقَيِّمُ الْمَرْأَةِ هُوَ زَوْجُهَا أَوْ وَلِيُّهَا؛ لِأَنَّهُ يَقُومُ بِأَمْرِهَا وَمَا تَحْتَاجُهُ، وَالْقِوَامَةُ تَكْلِيفٌ لِلزَّوْجِ وَتَشْرِيفٌ وَتَكْرِيمٌ لِلْمَرْأَةِ بِأَنْ جَعَلَهَا تَحْتَ قَيِّمٍ يَقُومُ عَلَى شُؤُونِهَا وَيَنْظُرُ فِي مَصَالِحِهَا.

❁ ﴿بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾؛ **أَيْ**: جَعَلَ اللَّهُ تَعَالَى الْقِوَامَةَ عَلَى الْمَرْأَةِ لِلرَّجُلِ بِسَبَبِ تَفْضِيلِ الرَّجُلِ عَلَى الْمَرْأَةِ وَذَلِكَ بِأَمْرَيْنِ:

✯ **الْأَوَّلُ**: كَمَالُ الدِّينِ وَالْعَقْلِ وَهَذَا الَّذِي بَيَّنَهُ النَّبِيُّ ﷺ بِقَوْلِهِ: «مَا رَأَيْتُ مِنْ نَاقِصَاتِ عَقْلٍ وَدِينٍ أَسْلَبَ لِلُبِّ الرَّجُلِ الْحَازِمِ مِنْكُنَّ. قُلْنَ: وَمَا ذَلِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: أَلَيْسَ إِحْدَاكُنَّ تَمْكُثُ اللَّيَالِيَ لَا تُصَلِّي وَلَا تَصُومُ؛ فَذَلِكَ مِنْ نُقْصَانِ دِينِهَا. وَشَهَادَةُ إِحْدَاكُنَّ عَلَى النِّصْفِ مِنْ شَهَادَةِ الرَّجُلِ، فَذَلِكَ مِنْ نُقْصَانِ عَقْلِهَا»[٧٣].

✯ **الثَّانِي**: بَذْلُهُ الْمَالَ مِنَ الصَّدَاقِ وَالنَّفَقَةِ، وَقَدْ ذَكَرَهُ اللَّهُ تَعَالَى هَاهُنَا.

﴿فَالصَّالِحَاتُ﴾ مِنْهُنَّ ﴿قَانِتَاتٌ﴾ مُطِيعَاتٌ لِلَّهِ وَلِأَزْوَاجِهِنَّ ﴿حَافِظَاتٌ لِلْغَيْبِ﴾؛ أَيْ: حَافِظَاتٌ لِمَا يَجِبُ عَلَيْهِنَّ حِفْظُهُ فِي حَالِ الْغَيْبَةِ مِنَ الْفُرُوجِ وَالْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَالْبُيُوتِ ﴿بِمَا حَفِظَ اللَّهُ﴾؛ أَيْ: بِحِفْظِ اللهِ وَتَوْفِيقِهِ وَرِعَايَتِهِ لَهُنَّ.

[٧٣] أخرجه البخاري (٣٠٤).

❁ ﴿وَاللَّاتِي تَخَافُونَ﴾ تَعْلَمُونَ ﴿نُشُوزَهُنَّ﴾ عِصْيَانَهُنَّ وَسُوءَ عِشْرَتِهِنَّ وَتَرَفُّعَهُنَّ عَنْ مُطَاوَعَتِكُمْ ﴿فَعِظُوهُنَّ﴾ فَخَوِّفُوهُنَّ اللَّهَ ﴿وَاهْجُرُوهُنَّ﴾ إِذَا لَمْ يَنْفَعْ الْوَعْظُ وَالتَّذْكِيرُ ﴿فِي الْمَضَاجِعِ﴾ بِأَنْ يُوَلِّيَهَا ظَهْرَهُ وَلَا يُجَامِعَهَا وَلَا يَتَحَدَّثُ مَعَهَا، فَيَكُونُ الْهَجْرُ فِي الْمَضْجَعِ لَا فِي الْبَيْتِ كَمَا فِي حَدِيثِ حَكِيمِ بْنِ مُعَاوِيَةَ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: **(قُلْت يَا رَسُولَ اللهِ مَا حَقُّ زَوْجِ أَحَدِنَا عَلَيْهِ؟ قَالَ: تُطْعِمُهَا إذَا أَكَلْت وَتَكْسُوهَا إذَا اكْتَسَيْت، وَلَا تَضْرِبْ الْوَجْهَ وَلَا تُقَبِّحْ وَلَا تَهْجُرْ إلَّا فِي الْبَيْتِ)**[٧٤].

❁ ﴿وَاضْرِبُوهُنَّ﴾ ضَرْبًا غَيْرَ مُبَرِّحٍ؛ أَيْ: غَيْرَ مُؤْلِمٍ، فَأَمَرَ تَعَالَى أَوَّلًا بِوَعْظِهِنَّ، ثُمَّ بِهُجْرَانِهِنَّ فِي الْمَضَاجِعِ، ثُمَّ بِالضَّرْبِ إِنْ لَمْ يَنْجَحْ فِيهِنَّ الْوَعْظُ وَالْهُجْرَانُ، فَالْأُمُورُ ثَلَاثَةٌ مَرْتَبَةٌ يَجِبُ أَنْ يُتَدَرَّجَ فِيهَا مَعَ الْمَرْأَةِ النَّاشِزِ ﴿فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ﴾؛ أَيْ: رَجَعْنَ عَنِ النُّشُوزِ إِلَى الطَّاعَةِ ﴿فَلَا تَبْغُوا﴾ تَطْلُبُوا ﴿عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا﴾ طَرِيقًا إِلَى التَّعَدِّي عَلَيْهِنَّ وَإِيذَائِهِنَّ بِالْقَوْلِ وَالْفِعْلِ.

❁ ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا﴾ فَاحْذَرُوهُ أَنْ يُعَاقِبَكُمْ فَإِنَّ قُدْرَتَهُ سُبْحَانَهُ عَلَيْكُمْ أَعْظَمُ مِنْ قُدْرَتِكُمْ عَلَى نِسَائِكُمْ، وَهَذِهِ الْآيَةُ هِيَ الْأَصْلُ فِي قِوَامَةِ الزَّوْجِ عَلَى زَوْجَتِهِ، فَعَلَى الزَّوْجِ أَنْ يَسْتَشْعِرَ هَذِهِ الْمَسْؤُولِيَّةَ وَأَنْ يَقُومَ بِهَا خَيْرَ قِيَامٍ امْتِثَالًا لِقَوْلِ اللهِ تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾ [التحريم: ٦]، وَقَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: «مَا مِنْ عَبْدٍ يَسْتَرْعِيهِ اللَّهُ رَعِيَّةً، يَمُوتُ يَوْمَ يَمُوتُ، وَهُوَ غَاشٍ لِرَعِيَّتِهِ إِلَّا حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ»[٧٥].

---

[٧٤] أخرجه أبو داود (٢١٤٢)، والنسائي في الكبرى (٩١٧١)، وابن ماجه (١٨٥٠)، وأحمد (٢٠٠١٣).
[٧٥] أخرجه البخاري (٧١٥٠)، ومسلم (١٤٢).

﴿وَإِنۡ خِفۡتُمۡ شِقَاقَ بَيۡنِهِمَا فَٱبۡعَثُواْ حَكَمٗا مِّنۡ أَهۡلِهِۦ وَحَكَمٗا مِّنۡ أَهۡلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصۡلَٰحٗا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيۡنَهُمَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرٗا﴾ [النساء: ٣٥].

إِذَا لَمْ تَنْفَعْ الْمَرَاتِبُ الثَّلَاثُ الْمُتَقَدِّمَةُ وَخِيفَ مِنْ اتِّسَاعِ الْخِلَافِ بَيْنَهُمَا **فَيَنْتَقِلُ إِلَى الْمَرْتَبَةِ الرَّابِعَةِ وَهِيَ**: بَعْثُ الْحَكَمَيْنِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿**وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا**﴾؛ أَيْ: وَإِنْ عَلِمْتُمْ خِلَافًا بَيْنَ **الزَّوْجَيْنِ** ﴿**فَابْعَثُوا**﴾؛ أَيْ: أَرْسِلُوا إِلَيْهِمَا ﴿**حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ**﴾؛ أَيْ: رَجُلًا عَدْلًا مِنْ أَقَارِبِ الزَّوْجِ ﴿**وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا**﴾؛ أَيْ: وَرَجُلًا عَدْلًا مِنْ أَقَارِبِ الزَّوْجَةِ ﴿**إِنْ يُرِيدَا**﴾؛ أَيْ: الْحَكَمَانِ ﴿**إِصْلَاحًا يُوَفِّقُ اللَّهُ بَيْنَهُمَا**﴾؛ أَيْ: يُوقِعُ الْأُلْفَةَ وَالْمَحَبَّةَ وَالْمُوَافَقَةَ بَيْنَ الزَّوْجَيْنِ.

❁ **وَفِي قَوْلِهِ**: ﴿**إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا**﴾ إِشَارَةٌ إِلَى أَهَمِّيَّةِ صَلَاحِ النِّيَّةِ مِنَ الْحَكَمَيْنِ ﴿**إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا**﴾ بِالْبَاطِنِ وَالظَّاهِرِ وَلَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ سُبْحَانَهُ وَبِحَمْدِهِ، وَقَدِ اسْتَدَلَّ ابْنُ عَبَّاسٍ -رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُمَا- بِهَذِهِ الْآيَةِ عَلَى الْخَوَارِجِ فِي إِنْكَارِهِمُ التَّحْكِيمَ فِي قِصَّةِ عَلِيٍّ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-، وَهُوَ أَحَدُ أُمُورٍ ثَلَاثَةٍ عَلِقَتْ فِي أَذْهَانِهِمْ فَأَبْطَلَهَا كُلَّهَا -رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ، فَرَجَعَ مِنْهُمْ عِشْرُونَ أَلْفًا، وَلِهَذَا تَكُونُ هَذِهِ الْآيَةُ أَصْلٌ فِي جَوَازِ التَّحْكِيمِ فِي سَائِرِ الْحُقُوقِ.

﴿۞ وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗا وَبِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡجَارِ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡجَارِ ٱلۡجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلۡجَنۢبِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخۡتَالٗا فَخُورًا﴾ [النساء: ٣٦].

➥ **هَذِهِ الْآيَةُ تُسَمَّى آيَةَ الْحُقُوقِ الْعَشَرَةِ؛** لِأَنَّهَا اشْتَمَلَتْ عَلَى حُقُوقِ عَشَرَةٍ:

- **أَوَّلُهَا:** حَقُّ اللهِ تَعَالَى وَهُوَ الْأَمْرُ بِالتَّوْحِيدِ ثُمَّ عَطَفَ عَلَيْهِ التِّسْعَةَ الْبَاقِيَةَ.

❁ **فَقَالَ:** ﴿**وَاعْبُدُوا اللَّهَ**﴾؛ أَيْ: وَحِّدُوهُ وَ أَطِيعُوهُ وَأَفْرِدُوهُ بِالْعِبَادَةِ ﴿**وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا**﴾ وَالشِّرْكُ: تَسْوِيَةُ غَيْرِ اللهِ بِاللهِ فِيمَا هُوَ مِنْ خَصَائِصِ اللهِ، وَقَوْلُهُ: ﴿**شَيْئًا**﴾ نَكِرَةٌ فِي سِيَاقِ النَّهْيِ فَتَعُمُّ كُلَّ شَيْءٍ ﴿**وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا**﴾ وَيَكُونُ بِبِرِّهِمَا وَالْإِحْسَانِ إِلَيْهِمَا بِالْقَوْلِ وَالْفِعْلِ وَالنَّفَقَةِ عَلَيْهِمَا إِذَا احْتَاجَا إِلَى ذَلِكَ.

❁ ﴿**وَبِذِي الْقُرْبَى**﴾؛ أَيْ: صَاحِبِ الْقَرَابَةِ وَلَوْ كَانَ بَعِيدًا ﴿**وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى**﴾ هُوَ الَّذِي لَهُ مَعَ حَقِّ الْجِوَارِ حَقُّ الْقَرَابَةِ، **فَالْجَارُ الْقَرِيبُ لَهُ ثَلَاثَةُ حُقُوقٍ:**

١. حَقُّ الْإِسْلَامِ.

٢. وَحَقُّ الْقَرَابَةِ.

٣. وَحَقُّ الْجِوَارِ.

❁ ﴿**وَالْجَارِ الْجُنُبِ**﴾ الَّذِي لَيْسَ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ قَرَابَةٌ، فَهَذَا لَهُ حَقَّانِ حَقُّ الْإِسْلَامِ وَحَقُّ الْجِوَارِ، وَقَدْ وَرَدَ بِإِسْنَادٍ ضَعِيفٍ عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِاللهِ مَرْفُوعًا (**الْجِيرَانُ ثَلَاثَةٌ: جَارٌ لَهُ حَقٌّ وَاحِدٌ وَهُوَ أَدْنَى الْجِيرَانِ حَقًّا، وَجَارٌ لَهُ حَقَّانِ، وَجَارٌ لَهُ ثَلَاثَةُ حُقُوقٍ وَهُوَ أَفْضَلُ الْجِيرَانِ حَقًّا. فَأَمَّا الْجَارُ الَّذِي لَهُ حَقٌّ وَاحِدٌ فَالْجَارُ الْمُشْرِكُ لَا رَحِمَ لَهُ وَلَهُ حَقُّ الْجِوَارِ.**

وَأَمّا الَّذِي لَهُ حَقّانِ فَالْجَارُ الْمُسْلِمُ لَا رَحِمَ لَهُ وَلَهُ حَقُّ الْإِسْلَامِ وَحَقُّ الْجِوَارِ، وَأَمّا الَّذِي لَهُ ثَلَاثَةُ حُقُوقٍ فَجَارٌ مُسْلِمٌ ذُو رَحِمٍ لَهُ حَقُّ الْإِسْلَامِ وَحَقُّ الْجِوَارِ وَحَقُّ الرَّحِمِ، وَأَدْنَى حَقِّ الْجِوَارِ أَلّا تُؤْذِيَ جَارَكَ بِقُتَارِ قِدْرِكَ إِلّا أَنْ تَقْدَحَ لَهُ مِنْهَا)[٧٦].

❁ ﴿وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ﴾ الصَّاحِبِ الْمُرَافِقِ لَكُمْ فِي الْحَضَرِ وَالسَّفَرِ، ﴿وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ الْمُسَافِرِ الْمُنْقَطِعِ فِي سَفَرِهِ ﴿وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ مِنَ الْأَرِقّاءِ ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا﴾ مُتَكَبِّرًا ﴿فَخُورًا﴾ يَتَفَاخَرُ عَلَيْهِمْ بِمَدْحِ نَفْسِهِ وَتَعْدَادِ مَنَاقِبِهَا، وَحَذَرَ اللَّهُ تَعَالَى فِي خِتَامِ هَذِهِ الْآيَةِ مِنَ الِاخْتِيَالِ وَالْفَخْرِ؛ لِأَنَّ هَاتَيْنِ الصِّفَتَيْنِ تَحْمِلَانِ صَاحِبَهُمَا فِي الْغَالِبِ عَلَى الِاسْتِكْبَارِ عَنْ أَدَاءِ هَذِهِ الْحُقُوقِ الْعَشَرَةِ، فَالْغَالِبُ أَنَّ مَنْ تَهَاوَنَ عَنْ أَدَاءِ هَذِهِ الْحُقُوقِ أَنَّ فِيهِ اخْتِيَالًا وَفَخْرًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمُرَادِهِ .

﴿ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ وَيَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبُخۡلِ وَيَكۡتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۗ وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا﴾ [النساء: ٣٧].

❁ ﴿الَّذِينَ﴾ مُبْتَدَأٌ، وَخَبَرُهُ[٧٧] ﴿أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾.

❁ ﴿يَبْخَلُونَ﴾ يَمْنَعُونَ مَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ بَذْلُهُ مِنَ الزَّكَاةِ وَالنَّفَقَةِ وَنَحْوِهَا ﴿وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ﴾؛ أَيْ: يُخْفُونَ ﴿مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ مِنَ الْعِلْمِ وَالْمَالِ، وَيَدْخُلُ فِي الْآيَةِ دُخُولًا أَوَّلِيًّا الْيَهُودُ الَّذِينَ كَتَمُوا نُبُوَّةَ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ ﷺ، وَهُمْ يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ ﴿وَأَعْتَدْنَا﴾؛ أَيْ: هَيَّأْنَا ﴿لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾ مُخْزِيًا، وَفِي الْآيَةِ أَنَّ الْبُخْلَ بِالْعِلْمِ مِنْ أَسْوَأِ أَنْوَاعِ الْبُخْلِ وَأَقْبَحِهَا، بِحَيْثُ يَكْتُمُ الْعَالِمُ عِلْمَهُ عَمَّنْ يَحْتَاجُهُ.

---

[٧٦] أخرجه الطبراني في مسند الشاميين (٢٤٥٨)، وأبو نعيم في حلية الأولياء (٥/ص: ٢٠٧).

[٧٧] وقيل: خبرٌ لمبتدإ محذوف؛ أي: هم الذين.
وقيل: هي بدل مِنْ (مُخْتَالًا).
وقيل: مفعول به لفعل محذوف تقديره: أَذُمُّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ.

↩ وَقَدْ وَرَدَ فِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ– قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «مَنْ سُئِلَ عَنْ عِلْمٍ فَكَتَمَهُ أُلْجِمَ بِلِجَامٍ مِنْ نَارٍ»[٧٨]، فَالْوَاجِبُ عَلَى الْعَالِمِ عَدَمُ الْبُخْلِ بِعِلْمِهِ، وَأَنْ يَبْذُلَ عِلْمَهُ لِمَنْ احْتَاجَهُ مِنَ النَّاسِ، وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ.

﴿وَٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۗ وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيۡطَٰنُ لَهُۥ قَرِينٗا فَسَآءَ قَرِينٗا﴾ [النساء: ٣٨].

❁ ﴿وَالَّذِينَ﴾ عُطِفَ عَلَى الَّذِينَ قَبْلَهُ، ﴿يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ﴾ لَا لِوَجْهِ الله وَإِنَّمَا غَرَضُهُمْ مِنَ الْإِنْفَاقِ مَدْحُ النَّاسِ وَثَنَاؤُهُمْ، وَقَدْ ثَبَتَ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ– قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: «أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي، تَرَكْتُهُ وَشِرْكَه»[٧٩].

❁ ﴿وَلَا يُؤْمِنُونَ بِالله وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ كَالْمُنَافِقِينَ وَأَهْلِ مَكَّةَ ﴿وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا﴾ صَاحِبًا ﴿فَسَاءَ قَرِينًا﴾؛ لِأَنَّهُ يُضِلُّهُ عَنِ الْهُدَى وَالْإِيمَانِ، وَيُزَيِّنُ لَهُ الرِّيَاءَ وَالْكُفْرَ وَالضَّلَالَ وَالْعِيَاذُ بِالله.

↩ وَفِي الْآيَةِ: التَّحْذِيرُ الشَّدِيدُ مِنَ الْإِنْفَاقِ رِئَاءَ النَّاسِ فَكَمَا أَنَّ مَنْ بَخِلَ بِمَا آتَاهُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ، وَكَتَمَ مَا مَنَّ اللَّهُ بِهِ عَلَيْهِ مِنَ الْعِلْمِ عَاصٍ آثِمٌ مُخَالِفٌ لِرَبِّهِ، فَكَذَلِكَ مَنْ أَنْفَقَ وَتَعَبَّدَ لِغَيْرِ الله فَإِنَّهُ آثِمٌ عَاصٍ لِرَبِّهِ مُسْتَوْجِبٌ لِلْعُقُوبَةِ، لِأَنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَمَرَ بِإِخْلَاصِ الْعِبَادَةِ لَهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ، فَقَالَ: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [البينة: ٥]، فَالْإِنْفَاقُ لَا يَنْفَعُ بِدُونِ الْإِخْلَاصِ.

---

[٧٨] أخرجه أبو داود (٣٦٥٨)، والترمذي (٢٦٤٩)، وابن ماجه (٢٦٦).
[٧٩] أخرجه مسلم (٢٩٨٥).

﴿وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ وَكَانَ ٱللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا﴾ [النساء: ٣٩].

❁ ﴿وماذا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا بِالله واليَوْم الآخِر وأَنْفَقُوا مِمّا رَزَقَهُمُ اللَّه﴾ الِاسْتِفْهَامُ لِلتَّوْبِيخِ وَالْإِنْكَارِ، **وَالْمَعْنَى**: وَأَيُّ تَبِعَةٍ وَمَذَمَّةٍ عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا بِالله وَحْدَهُ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ ابْتِغَاءَ وَجْهِ الله لَا يُرِيدُونَ مِنَ النَّاسِ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا، وَإِنَّمَا التَّبِعَةُ وَالْمَذَمَّةُ فِيمَا هُمْ عَلَيْهِ ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا﴾ وَسَيُجَازِيهِمْ عَلَى ذَلِكَ.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٠].

❁ ﴿إِنّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ﴾ يُنْقِصُ أَحَدًا ﴿مِثْقَالَ﴾ مِقْدَارَ ﴿ذَرَّةٍ﴾ وَهِيَ النَّمْلَةُ الصَّغِيرَةُ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧]، وَيَقُولُ تَعَالَى: (فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ٧ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ) [الزلزلة: ٧-٨].

➥ **وَقَدْ أَخْرَجَ الشَّيْخَانِ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ-، عَنْ رَسُولِ الله ﷺ فِي حَدِيثِ الشَّفَاعَةِ الطَّوِيلِ وَفِيهِ:** «فَيَقُولُ اللَّهُ: ارْجِعُوا فَمَنْ وَجَدْتُمْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالَ حَبَّةِ خَرْدَلٍ مِنْ إِيمَانٍ، فَأَخْرِجُوهُ مِنَ النَّارِ، وَفِي لَفْظٍ: أَدْنَى أَدْنَى أَدْنَى مِثْقَالِ ذَرَّةٍ مِنْ إِيمَانٍ، فَأَخْرِجُوهُ مِنَ النَّارِ فَيُخْرِجُونَ خَلْقًا كَثِيرًا، ثُمَّ يَقُولُ أَبُو سَعِيدٍ: اقْرَءُوا إِنْ شِئْتُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ»[٨٠].

➥ **وَعَنْ أَنَسٍ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ:** «إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مُؤْمِنًا حَسَنَةً، يُعْطَى بِهَا فِي الدُّنْيَا، وَيُجْزَى بِهَا فِي الْآخِرَةِ، وَأَمَّا الْكَافِرُ فَيُطْعَمُ بِحَسَنَاتِ مَا عَمِلَ لِلَّهِ تَعَالَى فِي الدُّنْيَا، حَتَّى إِذَا أَفْضَى إِلَى الْآخِرَةِ لَمْ يَكُنْ لَهُ حَسَنَةٌ يُجْزَى بِهَا»[٨١].

[٨٠] أخرجه البخاري (٧٤٣٩)، ومسلم (١٨٤).
[٨١] أخرجه مسلم (٢٨٠٨).

❁ ﴿وَإِنْ تَكُنْ﴾ الذَّرَّةُ ﴿حَسَنَةً﴾ مِنْ مُؤْمِنٍ، وَقَرَأَ ابْنُ كَثِيرٍ وَنَافِعٍ بِالرَّفْعِ عَلَى أَنَّ "تَكُن" مُضَارِعٌ كَانَ التَّامَّةَ؛ أَيْ: وَإِنْ تُوجَدْ حَسَنَةٌ ﴿يُضَاعِفْهَا﴾؛ أَيْ: يُضَاعِفُ ثَوَابَهَا مِنْ عَشْرٍ إِلَى أَكْثَرَ وَرُبَّمَا بَلَغَتْ سَبْعَمِائَةِ ضِعْفٍ إِلَى مَا شَاءَ اللَّهُ، وَهَذِهِ الْمُضَاعَفَاتُ كَمَا قَالَ شَيْخُنَا عَبْدُالْكَرِيمِ الْخُضَيْرُ -حَفِظَهُ اللَّهُ- مَرَدُّهَا إِلَى قُوَّةِ الْإِخْلَاصِ لِلَّهِ جَلَّ وَعَلَا وَحُسْنِ الْعَمَلِ.

❁ وَلِهَذَا يَقُولُ أَهْلُ الْعِلْمِ: خَابَ وَخَسِرَ مَنْ فَاقَتْ آحَادُهُ عَشَرَاتُهُ.

❁ ﴿وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ﴾؛ أَيْ: يُعْطِي زِيَادَةً مِنْ عِنْدِهِ مَعَ الْمُضَاعَفَةِ ﴿أَجْرًا عَظِيمًا﴾ وَلَا يَعْلَمُ مِقْدَارَهُ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ، **وَقِيلَ**: هُوَ الْجَنَّةُ نَسْأَلُ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى الْكَرِيمَ مِنْ فَضْلِهِ وَنَعِيمِهِ.

﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١].

❁ ﴿فَكَيْفَ﴾ خَبَرٌ لِمُبْتَدَأٍ مَحْذُوفٍ، تَقْدِيرُهُ: كَيْفَ حَالُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ﴾ بِنَبِيٍّ يَشْهَدُ عَلَيْهَا بِعَمَلِهَا، فَكُلُّ نَبِيٍّ يَشْهَدُ عَلَى قَوْمِهِ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ ﴿وَجِئْنَا بِكَ﴾ يَا مُحَمَّدُ ﴿عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾؛ أَيْ: عَلَى قَوْمِهِ بِأَنَّهُ ﷺ قَدْ بَلَغَهُمْ الرِّسَالَةَ، وَأَيْضًا عَلَى هَؤُلَاءِ الْأَنْبِيَاءِ بِأَنَّهُمْ قَدْ بَلَّغُوا الرِّسَالَةَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣]، وَنَظِيرُ هَذِهِ الْآيَةِ قَوْلُهُ تَعَالَى فِي سُورَةِ النَّحْلِ ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ﴾.

↩ **وَفِي الْحَدِيثِ عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- قَالَ: قَالَ لِي رَسُولُ اللهِ ﷺ:** «اقْرَأْ عَلَيَّ. فَقُلْتُ: يا رَسُولَ اللَّهِ! أَقْرَأُ عَلَيْكَ وعَلَيْكَ أُنْزِلَ؟! قالَ: نَعَمْ، إنِّي أُحِبُّ أنْ أسْمَعَهُ مِن غَيْرِي فَقَرَأْتُ عَلَيْهِ سُورَةَ النِّساءِ، حَتّى أتَيْتُ إلى هَذِهِ الآيَةِ: ﴿فَكَيْفَ إذا جِئْنا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ

وجِئْنا بِكَ عَلى هَؤُلاءِ شَهِيدًا﴾ فَقالَ: حَسْبُكَ الآنَ فَإذا عَيْناهُ تَذْرِفانِ»[٨٢]، زادَ مُسْلِم: «شَهِيدًا ما دُمْتُ فِيهِمْ، أوْ قالَ: ما كُنْتُ فِيهِمْ» شَكَّ أحَدُ رُواتِهِ.

﴿يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَعَصَوُاْ ٱلرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٤٢].

❁ ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ يَوْمَ الْقِيامَةِ ﴿يَوَدّ﴾ يَتَمَنَّى ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوْا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوّى بِهِمْ الْأَرْضُ﴾؛ أيْ: يَكُونُونَ تُرابًا حَتَّى يَتَخَلَّصُوا مِنْ أهْوالِ يَوْمِ الْقِيامَةِ؛ كَما قالَ تَعالَى في سُورَةِ النَّبَأ: ﴿يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنْت تُرَابًا﴾.

❁ ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾؛ أيْ: لا يَكْتُمُونَ يَوْمَ الْقِيامَةِ عَنِ اللهِ شَيْئًا، فَإنْ قِيلَ كَيْفَ هَذا مَعَ قَوْلِهِمْ: ﴿وَاللهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣]، وَقَوْلِهِمْ: ﴿مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ﴾ [النحل: ٢٨]، وَقَوْلِهِمْ: ﴿بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُوا مِنْ قَبْلُ شَيْئًا﴾ [غافر: ٧٤]، قِيلَ: هُوَ مَا بَيَّنَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا- بِقَوْلِهِ: (بِأَنَّ أَلْسِنَتَهُمْ تَقُولُ وَاللهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ فَيَخْتِمُ اللَّهُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ، وَتَشْهَدُ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)، فَكَتَمَ الْحَقَّ بِاعْتِبَارِ اللِّسَانِ، وَعَدَمِهِ بِاعْتِبَارِ الْأَيْدِي وَالْأَرْجُلِ.

↩ وَهَذَا الْجَمْعُ يُشِيرُ إلَيْهِ قَوْله تَعَالَى: ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [يس: ٦٥]، وَأَجَابَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ كَمَا فِي تَفْسِيرِ الْجَلَالِينَ وَغَيْرِهِ أَنَّهُمْ يَكْتُمُونَ فِي وَقْتٍ وَلَا يَكْتُمُونَ فِي وَقْتٍ آخَرَ وَالْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ.

[٨٢] أخرجه البخاري (٤٥٨٢)، ومسلم (٨٠٠).

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمۡ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعۡلَمُواْ مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغۡتَسِلُواْۚ وَإِن كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوۡ جَآءَ أَحَدٞ مِّنكُم مِّنَ ٱلۡغَآئِطِ أَوۡ لَٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمۡ تَجِدُواْ مَآءٗ فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدٗا طَيِّبٗا فَٱمۡسَحُواْ بِوُجُوهِكُمۡ وَأَيۡدِيكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوّٗا غَفُورٗا﴾ [النساء: ٤٣].

❁ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى﴾؛ أَيْ: لَا تُصَلُّوا وَلَا تَقْرَبُوا الْمَسَاجِدَ وَأَنْتُمْ فِي حَالِ سُكْرٍ، وَجُمْلَة ﴿وَأَنْتُمْ سُكَارَى﴾ جُمْلَةٌ حَالِيَّةٌ، وَكَانَ هَذَا قَبْلَ نُزُولِ تَحْرِيمِ الْخَمْرِ ﴿حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾؛ أَيْ: حَتَّى يَزُولَ عَنْكُمْ أَثَرُ السُّكْرِ وَتَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَتُفِيقُوا مِنَ السُّكْرِ، فَإِذَا عَلِمْتُمْ مَا تَقُولُونَ جَازَ لَكُمْ فِعْلُ الصَّلَاةِ وَأَيْضًا دُخُولُ الْمَسْجِدِ.

۞ وَفِي قَوْلِهِ: ﴿حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾ إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّهُ يَنْبَغِي لِمَنْ أَرَادَ الصَّلَاةَ أَنْ يَتَفَرَّغَ لَهَا تَفَرُّغًا تَامًّا وَيَقْطَعَ عَنْهُ كُلَّ شَاغِلٍ يَشْغَلُ بَالَهُ وَتَفْكِيرَهُ حَتَّى يُقْبِلَ عَلَيْهَا بِقَلْبِهِ وَقَالَبِهِ.

❁ ﴿وَلَا جُنُبًا﴾ عَطْفٌ عَلَى قَوْلِهِ: ﴿وَأَنْتُمْ سُكَارَى﴾ إِذْ الْجُمْلَةُ أَيْضًا حَالِيَّةٌ ﴿إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا﴾ وَالْمَعْنَى: وَلَا تُصَلُّوا أَيْضًا، وَلَا تَقْرَبُوا الْمَسَاجِدَ وَالْحَالُ أَنَّكُمْ عَلَى جَنَابَةٍ إِلَّا مَنْ كَانَ مِنْكُمْ مُجْتَازًا مِنْ بَابٍ إِلَى بَابٍ، حَتَّى تَغْتَسِلُوا مِنَ الْجَنَابَةِ، وَاسْتَدَلَّ عَامَّةُ أَهْلِ الْعِلْمِ بِهَذِهِ الْآيَةِ عَلَى تَحْرِيمِ الْمُكْثِ فِي الْمَسْجِدِ لِلْجُنُبِ، كَمَا اسْتَدَلَّ بَعْضُهُمْ بِقَوْلِهِ: ﴿إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ﴾ عَلَى أَنَّهُ يَجُوزُ لِلْجُنُبِ عُبُورُ الْمَسْجِدِ، وَهُوَ الْمَذْهَبُ عِنْدَ الْحَنَابِلَةِ، وَهُوَ مَذْهَبُ الشَّافِعِيَّةِ، وَهُوَ الصَّحِيحُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ.

➥ وَالْمَشْهُورُ مِنَ الْمَذْهَبِ: أَنَّهُ يَجُوزُ لِلْجُنُبِ إِذَا تَوَضَّأَ أَنْ يَمْكُثَ فِي الْمَسْجِدِ لِقَوْلِ عَطَاءِ بْنِ يَسَارٍ: "رَأَيْتُ رِجَالًا مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ يَجْلِسُونَ فِي الْمَسْجِدِ وَهُمْ مُجْنِبُونَ إِذَا تَوَضَّؤُوا وُضُوءَ الصَّلَاةِ "مُجْنِبُونَ إِذَا تَوَضَّؤُوا وُضُوءَ الصَّلَاةِ"[٨٣]، وَذَهَبَ بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ إِلَى أَنَّهُ يُبَاحُ الْمُكْثُ فِي الْمَسْجِدِ لِلْجُنُبِ مُطْلَقًا، وَذَكَرُوا بِأَنَّ مَعْنَى الْآيَةِ ﴿وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ﴾ عَلَى ظَاهِرِهَا؛ أَيْ: لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ فِي حَالَةِ الْجَنَابَةِ إِلَّا الْمُسَافِرَ الَّذِي عَدِمَ الْمَاءَ وَهُوَ جُنُبٌ يَتَيَمَّمُ وَيُصَلِّي.

[٨٣] أخرجه سعيد بن منصور في سننه (٦٤٦).

⬅ وَقَدْ صَحَّ عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ– أَنَّهُ قَالَ: "نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ فِي الْمُسَافِرِ ﴿وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا﴾ قَالَ: إِذَا أَجْنَبَ فَلَمْ يَجِدْ الْمَاءَ تَيَمَّمَ وَصَلَّى حَتَّى يُدْرِكَ الْمَاءَ، فَإِذَا أَدْرَكَ الْمَاءَ اغْتَسَلَ"،[٨٤] وَقَدْ ذَكَرَ الْبَغَوِيّ –رَحِمَهُ اللهُ– فِي شَرْحِ السُّنَّةِ: (أَنَّ الْإِمَامَ أَحْمَدَ ذَهَبَ إِلَى هَذَا التَّفْسِيرِ ﴿وإِنْ كنتم مرضى﴾؛ أَيْ: مَرَضًا لَا تَسْتَطِيعُونَ مَعَهُ اسْتِعْمَالَ الْمَاءِ ﴿أَوْ عَلَى سَفَرٍ﴾ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ) وَ" الْغَائِطُ " هُوَ الْمَكَانُ الْمُنْخَفِضُ لِقَضَاءِ الْحَاجَةِ فِيهِ.

❁ ﴿أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ﴾ وَهُوَ كِنَايَةٌ عَنِ الْجِمَاعِ عَلَى الْأَظْهَرِ، وَهُوَ اخْتِيَارُ شَيْخِ الْمُفَسِّرِينَ ابْنِ جَرِيرٍ الطَّبَرِيِّ –رَحِمَهُ اللَّهُ–، ﴿فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا﴾، وَقَدْ اخْتَلَفُوا فِي الْمُرَادِ بِالصَّعِيدِ: فَالْمَشْهُورُ مِنَ الْمَذْهَبِ وَهُوَ قَوْلُ أَكْثَرِ الْفُقَهَاءِ أَنَّ الصَّعِيدَ هُوَ التُّرَابُ فَقَطْ، دُونَ سَائِرِ أَجْزَاءِ الْأَرْضِ، وَذَهَبَ أَبُو حَنِيفَةَ وَمَالِك وَغَيْرُهُمَا إِلَى أَنَّ الصَّعِيدَ وَجْهُ الْأَرْضِ.

❁ ﴿طَيِّبًا﴾ تَمَسَّحُوا بِتُرَابٍ طَيِّبٍ مُنْبِتٍ، وَالْكَلَامُ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ طَوِيلٌ جِدًّا، وَلَا شَكَّ أَنَّهُ يَنْبَغِي الِاحْتِيَاطُ لِلْعِبَادَةِ، لَا سِيَّمَا مَعَ قُوَّةِ الْخِلَافِ فِي الْمَسْأَلَةِ، فَمَتَى وُجِدَ التُّرَابُ فَإِنَّهُ لَا يُعْدَلُ عَنْهُ إِلَى غَيْرِهِ مِنْ أَجْزَاءِ الْأَرْضِ؛ لِأَنَّ التَّيَمُّمَ بِهِ صَحِيحٌ مُجْزِئٌ بِإِجْمَاعِ أَهْلِ الْعِلْمِ، أَمَّا التَّيَمُّمُ بِغَيْرِهِ فَفِيهِ خِلَافٌ، وَالْخُرُوجُ مِنَ الْخِلَافِ فِي مِثْلِ هَذَا مُتَأَكِّدٌ مَا أَمْكَنَ، فَإِنْ لَمْ يَجِدْ التُّرَابَ فَالْأَقْرَبُ أَنَّهُ يَتَيَمَّمُ بِمَا وَجَدَ مِنْ أَجْزَاءِ الْأَرْضِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

❁ ﴿طَيِّبًا﴾ طَاهِرًا، ﴿فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ﴾ وَقَدْ أَخْرَجَ الشَّيْخَانِ مِنْ حَدِيثِ عَمَّارِ بْنِ يَاسِرٍ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ–، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ لَهُ فِي صِفَةِ التَّيَمُّمِ: «إِنَّمَا كَانَ يَكْفِيك أَنْ تَقُولَ بِيَدَيْك هَكَذَا، ثُمَّ ضَرَبَ بِيَدَيْهِ الْأَرْضَ ضَرْبَةً وَاحِدَةً، ثُمَّ مَسَحَ الشِّمَالَ عَلَى الْيَمِينِ وَظَاهِرَ كَفَّيْهِ وَوَجْهَهِ»[٨٥]، فَإِذًا صِفَةُ التَّيَمُّمِ الْمَشْرُوعَةُ الَّتِي دَلَّ عَلَيْهَا الْقُرْآنُ وَالسُّنَّةُ: أَنْ يَنْوِيَ، ثُمَّ يُسَمِّيَ وَالتَّسْمِيَةُ هُنَا كَالتَّسْمِيَةِ فِي الْوُضُوءِ؛ لِأَنَّ الْبَدَلَ لَهُ حُكْمُ الْمُبْدَلِ مِنْهُ، ثُمَّ يَضْرِبُ بِيَدَيْهِ الْأَرْضَ ضَرْبَةً وَاحِدَةً ثُمَّ يَمْسَحُ وَجْهَهُ وَكَفَّيْهِ.

---

[٨٤] أخرجه البيهقي (١/ص: ٢١٦)، وابن جرير في تفسيره (٥/ص: ٦٢).
[٨٥] أخرجه البخاري (٣٣٨)، ومسلم (٣٦٨).

❁ ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ وَفِي خَتْمِ هَذِهِ الْآيَةِ الْعَظِيمَةِ بِهَذَيْنِ الِاسْمَيْنِ الْكَرِيمَيْنِ إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ أَحْكَامَ هَذِهِ الشَّرِيعَةِ مَبْنِيَّةٌ عَلَى التَّخْفِيفِ وَالتَّيْسِيرِ وَرَفْعِ الْحَرَجِ وَالضِّيقِ، وَهِيَ مُنَاسِبَةٌ لِجَمِيعِ أَحْوَالِ الْعِبَادِ حَسَبَ طَاقَاتِهِمْ وَقُدُرَاتِهِمْ، وَأَحْكَامُهَا مُخْتَلِفَةٌ حَسَبَ حَالِ الْعَبْدِ مِنَ السَّعَةِ وَالرَّخَاءِ، وَالْعَبْدُ لَا يُكَلَّفُ مِنَ الْعِبَادَاتِ مَا لَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾، وَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يَشْتَرُونَ ٱلضَّلَٰلَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّواْ ٱلسَّبِيلَ﴾ [النساء: ٤٤].

❁ ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَيُّهَا الرَّسُولُ أَمْرَ الْيَهُودِ ﴿الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا﴾ حَظًّا ﴿مِنَ الْكِتَابِ﴾ وَهُوَ التَّوْرَاةُ ﴿يَشْتَرُونَ﴾ يَسْتَبْدِلُونَ ﴿الضَّلَالَةَ﴾ بِالْهُدَى، وَهُوَ الْبَقَاءُ عَلَى دِينِهِمْ بَعْدَ ظُهُورِ الْآيَاتِ الْوَاضِحَةِ لَهُمْ عَلَى صِدْقِ رِسَالَةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَأَنَّهُ هُوَ الرَّسُولُ الْمُبَشَّرُ بِهِ فِي التَّوْرَاةِ.

❁ ﴿وَيُرِيدُونَ أَنْ تَضِلُّوا السَّبِيلَ﴾؛ أَيْ: يَتَمَنَّوْنَ أَنْ تَكُونُوا مِثْلَهُمْ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً﴾ [النساء: ٨٩]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ﴾ [البقرة: ١٠٩].

﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَآئِكُمْ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرًا﴾ [النساء: ٤٥].

❁ ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ﴾ مِنْكُمْ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ، وَقَدْ أَخْبَرَكُمْ بِعَدَاوَتِهِمْ وَبِمَا يُبَيِّتُونَ لَكُمْ فِي آيَاتٍ كَثِيرَةٍ فَاحْذَرُوهُمْ أَشَدَّ الْحَذَرِ، ﴿وَكَفَى بِاللهِ وَلِيًّا﴾ يَلِي أَمْرَكُمْ وَيَحْفَظُكُمْ ﴿وَكَفَى بِاللهِ نَصِيرًا﴾ يَدْفَعُ عَنْكُمْ مَكْرَهُمْ وَكَيْدَهُمْ، وَكَرَّرَ اللَّهُ تَعَالَى الْفِعْلَ "**كَفَى**" لِإِلْقَاءِ الطُّمَأْنِينَةِ وَالسَّكِينَةِ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ، فَكَأَنَّهُ يَقُولُ: لَا تُبَالُوا بِهِمْ وَلَا تَكُونُوا فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ وَاكْتَفُوا بِوِلَايَةِ اللهِ وَنُصْرَتِهِ.

﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعۡنَا وَعَصَيۡنَا وَٱسۡمَعۡ غَيۡرَ مُسۡمَعٖ وَرَٰعِنَا لَيَّۢا بِأَلۡسِنَتِهِمۡ وَطَعۡنٗا فِي ٱلدِّينِۚ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ قَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَا وَٱسۡمَعۡ وَٱنظُرۡنَا لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡ وَأَقۡوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفۡرِهِمۡ فَلَا يُؤۡمِنُونَ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ [النساء: ٤٦].

❁ ﴿مِنْ الَّذِينَ هَادُوا﴾ قَوْمُ سُوءٍ وَهُمْ عُلَمَاؤُهُمْ ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ﴾؛ أَيْ: يُغَيِّرُونَ الْكَلَامَ الَّذِي أَنْزَلَهُ اللَّهُ تَعَالَى فِي التَّوْرَاةِ مِنْ نَعتِ مُحَمَّدٍ ﷺ وَزَمَانِهِ وَنُبُوَّتِهِ ﴿عَنْ مَوَاضِعِهِ﴾ الَّتِي وُضِعَ عَلَيْهَا ﴿وَيَقُولُونَ﴾ لِلنَّبِيِّ ﷺ إذَا أَمَرَهُمْ بِشَيْءٍ ﴿سَمِعْنَا﴾ قَوْلَك ﴿وَعَصَيْنَا﴾ أَمْرَك، وَهَذَا غَايَةُ مَا يَكُونُ مِنَ الْعِنَادِ وَالْكِبْرِ وَالْعِيَاذُ بِاللهِ، وَقَدْ قَالَهَا أَسْلَافُهُمْ لِمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمْ الْعِجْلَ﴾ [البقرة: ٩٣].

❁ ﴿وَاسْمَعْ﴾ مِنَّا ﴿غَيْرَ مُسْمَعٍ﴾ (غَيْرَ) حَالٍ مَنْصُوبَةٍ؛ أَيْ: غَيْرَ مَأْمُورٍ بِأَنْ تَسْمَعَ، فَيُوهِمُونَ أَنَّهُمْ قَصَدُوا الظَّاهِرَ الْمُتَبَادَرَ مِنْ قَوْلِهِمْ: غَيْرَ مُسْمَعٍ، أَيْ غَيْرَ مَأْمُورٍ بِأَنْ تَسْمَعَ، وَهُمْ أَرَادُوا بِهَا مَعْنًى آخَرَ وَهُوَ الدُّعَاءُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ بِعَدَمِ السَّمْعِ، ﴿وَ﴾ يَقُولُونَ لَهُ ﴿رَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ﴾ وَهِيَ أَيْضًا كَلِمَةٌ ذَاتُ وَجْهَيْنِ، فَهِيَ مُحْتَمِلَةٌ لِلْخَيْرِ بِحَمْلِهَا عَلَى مَعْنَى رَاعِ أَحْوَالَنَا، وَمُحْتَمِلَةٌ لِلشَّرِّ وَتَكُونُ مِنَ الرُّعُونَةِ، وَهُوَ الْحُمْقُ، وَهِيَ كَلِمَةُ سَبٍّ بِلُغَتِهِمْ، فَهُمْ يَقُولُونَهَا وَهُمْ يَقْصِدُونَ مَعْنَى الرُّعُونَةِ، وَلِهَذَا نَهَى اللَّهُ تَعَالَى الْمُؤْمِنِينَ عَنْ قَوْلِ هَذِهِ الْكَلِمَةِ كَمَا فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ وَأَنْ يَقُولُوا بَدَلَهَا (أُنْظُرْنَا).

❁ ﴿لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ﴾؛ أَيْ: أَنَّهُمْ يُرِيدُونَ بِاللَّفْظِ خِلَافَ مَعْنَاهُ الظَّاهِرِ مِنْهُ، فَيَضَعُونَ "رَاعِنَا" مَوْضِعَ "أُنْظُرْنَا"، ﴿وَطَعْنًا فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ بَدَلَ قَوْلِهِمْ: "سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا" ﴿وَاسْمَعْ﴾ بَدَلَ قَوْلِهِمْ "غَيْرَ مُسْمَعٍ" ﴿وَانْظُرْنَا﴾ بَدَلَ قَوْلِهِمْ "رَاعِنَا" ﴿لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ﴾ عِنْدَ اللهِ مِمَّا قَالُوهُ.

❁ ﴿وَأَقْوَمُ﴾ أَعْدَلُ وَأَصْوَبُ، ﴿وَلَكِنْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ﴾ طَرَدَهُمْ وَأَبْعَدَهُمْ عَنْ رَحْمَتِهِ ﴿بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ ﴿قَلِيلًا﴾ صِفَةٌ لِمَصْدَرٍ مَحْذُوفٍ تَقْدِيرُهُ "إِلَّا إِيمَانًا قَلِيلًا" وَهُوَ الْإِيمَانُ بِبَعْضِ الْكُتُبِ وَالرُّسُلِ، وَهَذَا الْإِيمَانُ لَا يَنْفَعُهُمْ، وَهَذِهِ الْآيَةُ فِيهَا بَعْضُ جَرَائِمِ الْيَهُودِ، كَتَحْرِيفِهِمْ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ، وَشِدَّةِ عِنَادِهِمْ وَاسْتِكْبَارِهِمْ، وَأَيْضًا عَدَاوَتِهِمْ الظَّاهِرَةِ لِنَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ ﷺ وَسُوءِ أَدَبِهِمْ مَعَهُ، وَطَعْنِهِمْ فِي هَذَا الدِّينِ وَغَيْرِهَا.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ ءَامِنُواْ بِمَا نَزَّلۡنَا مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبۡلِ أَن نَّطۡمِسَ وُجُوهٗا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدۡبَارِهَآ أَوۡ نَلۡعَنَهُمۡ كَمَا لَعَنَّآ أَصۡحَٰبَ ٱلسَّبۡتِۚ وَكَانَ أَمۡرُ ٱللَّهِ مَفۡعُولًا﴾ [النساء: ٤٧].

❁ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ الْخِطَابُ مُوَجَّهٌ لِلْيَهُودِ ﴿آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا﴾ مِنَ الْقُرْآنِ عَلَى عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ ﴿مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ﴾ مِنَ التَّوْرَاةِ ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهًا﴾ نَمْحُو مَا فِيهَا مِنَ الْعَيْنِ وَالْأَنْفِ وَنَحْوِهِمَا.

❁ ﴿فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا﴾؛ أَيْ: نُحَوِّلُ الْوَجْهَ قَفًا، وَالْعِيَاذُ بِاللهِ ﴿أَوْ نَلْعَنُهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ﴾ الَّذِينَ نُهُوا عن الصَّيْدِ فِيهِ فَلَمْ يَنْتَهُوا، وَقَدْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَسَخَهُمْ قِرَدَةً وَخَنَازِيرَ، كَمَا بَسَطَ اللَّهُ قِصَّتَهُمْ فِي سُورَةِ الْأَعْرَافِ، ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللهِ مَفْعُولًا﴾ نَافِذًا لَا مَحَالَةَ، وَقِيلَ: لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ أَسْلَمَ مِنْهُمْ مَنْ أَسْلَمَ، كَعَبْدِ اللهِ بْنِ سَلَامٍ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- وَغَيْرِهِ فَلَمْ يَقَعْ هَذَا التَّهْدِيدُ الشَّدِيدُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفۡتَرَىٰٓ إِثۡمًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٨].

۞ وَفِي الْآيَةِ فَوَائِدُ جَمَّةٌ مِنْهَا:

١. بَيَانُ خُطُورَةِ الشِّرْكِ وَأَنَّهُ أَعْظَمُ ذَنْبٍ عُصِيَ اللَّهُ تَعَالَى بِهِ، وَأَنَّهُ لَا يُغْفَرُ لِصَاحِبِهِ إِذَا مَاتَ عَلَيْهِ، أَمَّا إِذَا تَابَ مِنْهُ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ [الزمر: ٥٣].

وَهَلْ يَدْخُلُ الشِّرْكُ الْأَصْغَرُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ؟

فِيهِ خِلَافٌ بَيْنَ الْعُلَمَاءِ عَلَى قَوْلَيْنِ:

اَلْأَوَّلُ: أَنَّهُ يَدْخُلُ فِي الشِّرْكِ الْأَكْبَرِ، وَلَيْسَ تَحْتَ الْمَشِيئَةِ، وَهَذَا قَالَ بِهِ إِمَامُ الدَّعْوَةِ الشَّيْخُ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الْوَهَّابِ -رَحِمَهُ اللهُ- وَالشَّيْخُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ حَسَن -رَحِمَهُ اللهُ-، وَحُجَّتُهُمْ بِأَنَّ الْآيَةَ عَامَّةٌ تَشْمَلُ الشِّرْكَ الْأَكْبَرَ وَالْأَصْغَرَ.

وَالْقَوْلُ الثَّانِي: وَهُوَ قَوْلُ بَعْضِ أَئِمَّةِ الدَّعْوَةِ أَنَّ الشِّرْكَ الْأَصْغَرَ لَا يَدْخُلُ، وَأَنَّهُ تَحْتَ الْمَشِيئَةِ كَسَائِرِ الْكَبَائِرِ، وَهَذَا الَّذِي يَظْهَرُ وَاللهُ أَعْلَمُ لِوُجُوهٍ:

١. أَنَّ الْمُرَادَ بِالشِّرْكِ فِي الْآيَةِ الشِّرْكُ الْأَكْبَرُ دُونَ الْأَصْغَرِ لِأُمُورٍ.

٢. أَنَّ الشِّرْكَ إِذَا أُطْلِقَ فِي الْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ فَالْمُرَادُ بِهِ الشِّرْكُ الْأَكْبَرُ، وَهَذَا وَاضِحٌ وَجَلِيٌّ لِمَنْ تَأَمَّلَهُ، فَمَثَلًا:

أ. قَوْله تَعَالَى: ﴿إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مَنْ أَنْصَارٍ﴾ [المائدة: ٧٢].

ب. وَفِي سُورَةِ التَّوْبَةِ: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣١].

ج. وَفِي سُورَةِ يُونُسَ: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللهِ﴾ [يونس: ١٨].

د. وَفِي سُورَةِ الْكَهْفِ: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٨].

ذ. وَفِي سُورَةِ الْفُرْقَانِ: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ [الفرقان: ٦٨].

هـ. وَفِي سُورَةِ الْحَجِّ (وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج: ٣١].

و. وَفِي سُورَةِ الْعَنْكَبُوتِ ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٥].

ي- وَفِي سُورَةِ الزُّمَرِ ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ قَبْلَكَ لَأَنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الزمر: ٦٥]، وَالْآيَاتُ فِي هَذَا كَثِيرَةٌ جِدًّا.

➥ **وَعَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ– عَنِ النَّبِيِّ ﷺ**: «مَنْ مَاتَ يُشْرِكُ بِاللهِ شَيْئًا دَخَلَ النَّارَ».[٨٦]

➥ **وَعَنْ جَابِرٍ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ– قَالَ**: أَتَى النَّبِيَّ ﷺ رَجُلٌ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ مَا الْمُوجِبَتَانِ؟ فَقَالَ «مَنْ مَاتَ لَا يُشْرِكُ بِاللهِ شَيْئًا دَخَلَ الْجَنَّةَ، وَمَنْ مَاتَ يُشْرِكُ بِاللهِ شَيْئًا دَخَلَ النَّارَ».[٨٧]

➥ **وَعَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ– قَالَ**: سَأَلْت رَسُولَ اللهِ ﷺ: أَيُّ الذَّنْبِ أَعْظَمُ؟ قَالَ: «أَنْ تَجْعَلَ لِلَّهِ نِدًّا، وَهُوَ خَلَقَك»[٨٨]. وَالْأَحَادِيثُ أَيْضًا فِي هَذَا كَثِيرَةٌ، وَالْمُرَادُ بِهَذِهِ النُّصُوصِ كَمَا هُوَ وَاضِحٌ وَجَلِيٌّ الشِّرْكُ الْأَكْبَرُ الْمُخْرِجُ مِنَ الْمِلَّةِ الَّذِي صَاحِبُهُ خَالِدٌ مُخَلَّدٌ فِي النَّارِ، وَالْعِيَاذُ بِاللهِ.

٣– أَنَّ سِيَاقَ الْآيَةِ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْمُرَادَ بِهَا الشِّرْكُ الْأَكْبَرُ؛ لِأَنَّ الْآيَاتِ الَّتِي قَبْلَهَا وَالَّتِي بَعْدَهَا تَتَحَدَّثُ عَنِ الْيَهُودِ وَعَنْ شَيْءٍ مِنْ جَرَائِمِهِمْ، وَالْيَهُودُ قَبَّحَهُمُ اللَّهُ مَعَ ارْتِكَابِهِمْ لِهَذِهِ الْجَرَائِمِ الْعَظِيمَةِ يَقُولُونَ ﴿سَيُغْفَرُ لَنَا﴾ كَمَا فِي آيَةِ الْأَعْرَافِ ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا﴾.

❁ **فَرَدَّ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِمْ رَدًّا قَاطِعًا بِقَوْلِهِ**: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾، وَلِهَذَا أَمَرَهُمْ فِي الْآيَةِ الَّتِي قَبْلَ هَذِهِ الْآيَةِ بِوُجُوبِ الْإِيمَانِ بِالْقُرْآنِ الْكَرِيمِ الْمُنَزَّلِ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ ﷺ، وَأَنَّ مَنْ لَمْ يُؤْمِنْ مِنْهُمْ بِذَلِكَ وَأَقَامَ عَلَى دِينِهِ فَهُوَ مُشْرِكٌ كَافِرٌ، وَالْآيَةُ وَإِنْ نَزَلَتْ فِيهِمْ فِيمَا يَظْهَرُ مِنَ السِّيَاقِ إِلَّا أَنَّهَا عَامَّةٌ، وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ وَرَدُّ الْعِلْمِ إِلَيْهِ أَسْلَمُ.

٤– أَنَّ الَّذِي أَفْهَمُهُ مِنْ كَلَامِ مَنْ قَرَأْت لَهُ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ أَنَّهُمْ فَسَّرُوا الْآيَةَ بِالشِّرْكِ الْأَكْبَرِ وَإِلَيْك شَيْئًا يَسِيرًا مِنْ كَلَامِ بَعْضِهِمْ:

☆ قَالَ شَيْخُ الْمُفَسِّرِينَ الْإِمَامُ أَبُو جَعْفَرٍ الطَّبَرِيُّ –رَحِمَهُ اللَّهُ–: "**يَعْنِي بِذَلِكَ جَلَّ ثَنَاؤُهُ: "وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ" فِي عِبَادَتِهِ غَيْرَهُ مِنْ خَلْقِهِ فَقَدْ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا**"، يَقُولُ: فَقَدْ اخْتَلَقَ إِثْمًا عَظِيمًا، وَإِنَّمَا

---

[٨٦] أخرجه البخاري (١٢٣٨)، ومسلم (٩٢).
[٨٧] أخرجه مسلم (٩٣).
[٨٨] أخرجه البخاري (٤٤٧٧)، ومسلم (٨٦).

جَعَلَهُ اللَّهُ تَعَالَى ذِكْرَهُ "مُفْتَرِيًا "؛ لِأَنَّهُ قَالَ زُورًا وَإِفْكًا بِجُحُودِهِ وَحْدَانِيَّةَ اللَّهِ، وَإِقْرَارِهِ بِأَنَّ لِلَّهِ شَرِيكًا مِنْ خَلْقِهِ وَصَاحِبَةً أَوْ وَلَدًا، فَقَائِل ذَلِكَ مُفْتَرٍ. وَكَذَلِكَ كُلُّ كَاذِبٍ، فَهُوَ مُفْتَرٍ فِي كَذِبِهِ مُخْتَلِقٌ لَهُ"، انْتَهَى.[٨٩]

☆ **وَقَالَ أَبُو السُّعُودِ**: "والمُرادُ بِالشِّرْكِ: مُطْلَقُ الكُفْرِ المُنْتَظِمِ لِكُفْرِ اليَهُودِ انْتِظامًا أوَّلِيًّا، فَإنَّ الشَّرْعَ قَدْ نَصَّ عَلى إشْراكِ أهْلِ الكِتابِ قاطِبَةً وقَضى بِخُلُودِ أصْنافِ الكَفَرَةِ في النّارِ، ونُزُولُهُ في حَقِّ اليَهُودِ كَما قالَ مُقاتِلٌ، وهو الأنْسَبُ بِسِياقِ النَّظْمِ الكَرِيمِ وسِياقُهُ لا يَقْتَضِي اخْتِصاصَهُ بِكُفْرِهِمْ، بَلْ يَكْفِي انْدِراجُهُ فِيهِ قَطْعًا بَلْ لا وجْهَ لَهُ أصْلًا لِاقْتِضائِهِ جَوازَ مَغْفِرَةِ ما دُونَ كُفْرِهِمْ في الشِّدَّةِ مِنْ أنْواعِ الكُفْرِ؛ أيْ: لا يَغْفِرُ الكُفْرَ لِمَنِ اتَّصَفَ بِهِ بِلا تَوْبَةٍ وإيمانٍ لِأنَّ الحِكْمَةَ التَّشْرِيعِيَّةَ مُقْتَضِيَةٌ لِسَدِّ بابِ الكُفْرِ، وجَوازُ مَغْفِرَتِهِ بِلا إيمانٍ مِمّا يُؤَدِّي إلى فَتْحِهِ ولِأنَّ ظُلُماتِ الكُفْرِ والمَعاصِي إنَّما يَسْتُرُها نُورُ الإيمانِ فَمَن لَمْ يَكُنْ لَهُ إيمانٌ لَمْ يُغْفَرْ لَهُ شَيْءٌ مِنَ الكُفْرِ والمَعاصِي".[٩٠]

✹ **وَمِنْ فَوَائِدِ هَذِهِ الْآيَةِ الْعَظِيمَةِ**: أَنَّ مَا دُونَ الشِّرْكِ مِنَ الذُّنُوبِ فَهُوَ تَحْتَ مَشِيئَةِ اللهِ تَعَالَى إِنْ شَاءَ غَفَرَ لَهُ وَإِنْ شَاءَ عَذَّبَهُ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ فَهَذِهِ الْآيَةُ مِنْ أَقْوَى الْأَدِلَّةِ لِمَذْهَبِ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ الْقَائِلِينَ: بِأَنَّ صَاحِبَ الْكَبِيرَةِ يَسْتَحِقُّ الْوَعِيدَ الْمُرَتَّبَ عَلَى ذَلِكَ الذَّنْبِ، كَمَا وَرَدَتْ بِذَلِكَ النُّصُوصُ الشَّرْعِيَّةُ مِنَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَهُوَ بِذَلِكَ لَا يَخْرُجُ مِنَ الْإِسْلَامِ، وَلَا يُحْكَمُ عَلَيْهِ بِالْخُلُودِ فِي النَّارِ، وَيَقُولُونَ: هُوَ مُؤْمِنٌ بِإِيمَانِهِ، فَاسِقٌ بِكَبِيرَتِهِ، وَهُوَ فِي مَشِيئَةِ اللهِ تَعَالَى، إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى عَذَّبَهُ بِقَدْرِ مَعْصِيَتِهِ، وَإِنْ شَاءَ سُبْحَانَهُ عَفَا عَنْهُ وَغَفَرَ لَهُ، فَكَانُوا بِهَذَا أَسْعَدَ الْخَلْقِ؛ حَيْثُ أَعْمَلُوا النُّصُوصَ فِي مَوَاضِعِهَا كَمَا قَالَ ابْنُ أَبِي الْعِزِّ -رَحِمَهُ اللَّهُ- فِي شَرْحِ الْعَقِيدَةِ الطَّحَاوِيَّةِ، وَهَذِهِ الْمَسْأَلَةُ الْعَظِيمَةُ مِنْ أَهَمِّ الْمَسَائِلِ الْفَارِقَةِ بَيْنَ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ وَبَيْنَ غَيْرِهِمْ مِنَ الْفِرَقِ الضَّالَّةِ، فَقَدْ ذَكَرَهَا جَمِيعُ مَنْ صَنَّفُوا فِي الْعَقَائِدِ الْمُخْتَصَرَةِ عَلَى مَذْهَبِ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ.

✹ **وَمِنْ فَوَائِدِ هَذِهِ الْآيَةِ**: أَنَّ فِيهَا الرَّدَّ عَلَى الْخَوَارِجِ وَالْمُعْتَزِلَةِ وَغَيْرِهِمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ إِنَّ مُرْتَكِبَ الْكَبِيرَةِ مُخَلَّدٌ فِي النَّارِ، وَاخْتَلَفُوا فِي تَسْمِيَتِهِ فِي الدُّنْيَا؛ فَالْخَوَارِجُ تُسَمِّيهِ كَافِرًا، وَالْمُعْتَزِلَةُ تَجْعَلُهُ فِي مَنْزِلَةٍ بَيْنَ الْمَنْزِلَتَيْنِ وَتُسَمِّيهِ فَاسِقًا، وَالْخِلَافُ بَيْنَهُمَا لَفْظِيٌّ فَقَطْ، وَقَوْلُهُمْ مُخَالِفٌ لِلْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَإِجْمَاعِ الصَّحَابَةِ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَجْمَعِينَ- وَسَائِرِ أَهْلِ السُّنَّةِ، وَلَوْ تَتَبَّعْنَا فَوَائِدَ هَذِهِ الْآيَةِ الْعَظِيمَةِ لَطَالَ بِنَا

[٨٩] تفسير الطبري (٨/ص: ٤٥١).
[٩٠] إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم (٢/ص: ١٨٧).

الْمَقَامُ، لَكِنْ يَكْفِي مِنَ الْقِلَادَةِ مَا أَحَاطَ بِالْعُنُقِ، **وَقَدْ وَرَدَ عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- قَالَ:** مَا فِي الْقُرْآنِ آيَةٌ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ «**إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ**»[٩١].

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمْۚ بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ [النساء: ٤٩].

❁ ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ﴾ وَهُمُ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى حَيْثُ قَالُوا نَحْنُ أَبْنَاءُ اللهِ وَأَحِبَّاؤُهُ، وَقَالُوا: لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى، وَيَدْخُلُ فِي الْآيَةِ كُلُّ مَنْ زَكَّى نَفْسَهُ وَوَصَفَهَا بِالْإِيمَانِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ وَالتَّحَلِّي بِالصِّفَاتِ الطَّيِّبَةِ وَالتَّخَلِّي عَنِ الْأَخْلَاقِ الرَّدِيئَةِ.

❁ ﴿بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي﴾ يُثْنِي عَلَى ﴿مَنْ يَشَاءُ﴾ بِالْإِيمَانِ، وَفِيهِ إِشَارَةٌ عَلَى أَنَّ ثَنَاءَ اللهِ تَعَالَى هُوَ الْمُعْتَدُّ بِهِ دُونَ ثَنَاءِ غَيْرِهِ، فَإِنَّهُ تَعَالَى هُوَ الْمُطَّلِعُ عَلَى مَا فِي الْقُلُوبِ وَهُوَ الَّذِي يَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْلٌ لِلثَّنَاءِ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى﴾ [النجم: ٣٢].

❁ ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ﴾ يُنْقَصُونَ مِنْ أَعْمَالِهِمْ ﴿فَتِيلًا﴾ وَالْفَتِيلُ الْقِشْرَةُ الرَّقِيقَةُ الَّتِي فِي نَوَاةِ التَّمْرِ، وَإِذَا كَانَ اللَّهُ تَعَالَى لَا يَظْلِمُ مِثْلَ هَذَا الشَّيْءِ الْحَقِيرِ فَغَيْرُهُ مِنْ بَابِ أَوْلَى، وَهَذِهِ الْآيَةُ تَدُلُّ عَلَى النَّهْيِ عَنْ تَزْكِيَةِ النَّفْسِ، وَأَنَّ الْأَصْلَ فِيهِ الْمَنْعُ إِلَّا إِذَا دَعَتْ الْحَاجَةُ إِلَى ذَلِكَ مَعَ أَمْنِ الْفِتْنَةِ؛ كَقَوْلِ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٥٥].

﴿ٱنظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَۖ وَكَفَىٰ بِهِۦٓ إِثْمًا مُّبِينًا﴾ [النساء: ٥٠].

❁ ﴿انْظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ﴾ يَخْتَلِقُونَ ﴿عَلَى اللهِ الْكَذِبَ﴾؛ أَيْ: فِي تَزْكِيَتِهِمْ أَنْفُسَهُمْ، وَدَعْوَاهُمْ أَنَّهُمْ أَبْنَاءُ اللهِ وَأَحِبَّاؤُهُ، وَقَوْلُهُمْ: ﴿لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى﴾ [البقرة: ١١١]، ﴿وَكَفَى بِهِ إِثْمًا مُبِينًا﴾ عَنْ فَسَادِ قَوْلِهِمْ وَاعْتِقَادِهِمْ.

[٩١] أخرجه الترمذي (٣٠٣٧)، وقال: هذا حديث حسن غريب.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ سَبِيلًا﴾ [النساء: ٥١].

❁ ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنْ الْكِتَابِ﴾ يَعْنِي: عُلَمَاءَ الْيَهُودِ، ﴿يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ﴾ وَهُوَ السِّحْرُ كَمَا قَالَ عُمَرُ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-، وَعَنْ قَبِيصَةَ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ الْعِيَافَةَ وَالطَّرْقَ وَالطِّيَرَةَ مِنَ الْجِبْتِ»[٩٢].

الْعِيَافَةُ: زَجْرُ الطَّيْرِ مِنْ أَجْلِ التَّشَاؤُمِ وَالتَّفَاؤُلِ.

وَالطُّرْقُ: الْخَطُّ يُخَطُّ فِي الْأَرْضِ.

❁ ﴿وَالطَّاغُوتِ﴾ كُلُّ مَا تَجَاوَزَ بِهِ الْعَبْدُ حَدَّهُ مِنْ مَعْبُودٍ أَوْ مَتْبُوعٍ أَوْ مُطَاعٍ ﴿وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ كُفَّارُ قُرَيْشٍ ﴿هَؤُلَاءِ﴾؛ أَيْ: أَنْتُمْ ﴿أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ يَعْنُونَ مُحَمَّدًا ﷺ وَأَصْحَابَهُ ﴿سَبِيلًا﴾ دِينًا، وَهُمْ يَعْلَمُونَ أَنَّهُمْ كَاذِبُونَ فِي كَلَامِهِمْ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَنْ يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا﴾ يَمْنَعُ عَنْهُ عُقُوبَةَ اللهِ تَعَالَى، وَفِي الْآيَتَيْنِ الْإِنْكَارُ وَالتَّعَجُّبُ مِنْ حَالِ الْيَهُودِ الَّذِينَ أَعْطَاهُمُ اللَّهُ حَظًّا مِنَ الْعِلْمِ وَمَعَ ذَلِكَ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ، وَيُفَضِّلُونَ أَهْلَ الْكُفْرِ عَلَى أَهْلِ الْإِيمَانِ، وَمِنْ أَجْلِ هَذَا لَعَنَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى وَأَبْعَدَهُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ.

[٩٢] أخرجه أبو داود (٣٩٠٧)، وأحمد (٢٠٦٠٣).

﴿أَمۡ لَهُمۡ نَصِيبٞ مِّنَ ٱلۡمُلۡكِ فَإِذٗا لَّا يُؤۡتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا﴾ [النساء: ٥٣].

أَيْ: لَيْسَ لَهُمْ نَصِيبٌ وَلا حَظٌّ مِنَ الملكِ وَالرِّياسَةِ فَيُفَضِّلونَ مَنْ شَاؤُوا، وَلَوْ كَانَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنَ الْمُلْكِ وَالسُّلْطانِ لَمَا أَعْطَوْا أَحَدًا مِنْهُ شَيْئًا، وَلَوْ كَانَ مِقْدارَ نَقيرٍ لِشِدَّةِ بُخْلِهِمْ.

وَالنَّقيرُ: النُّقْرَةُ أو النُّكْتَةُ الَّتي تَكونُ فِي شَقِّ النَّواةِ مِنْها تَنْبُتُ النَّخْلَةُ[٩٣]، يُضْرَبُ بِها الْمَثَلُ لِلْقِلَّةِ وَالْحَقارَةِ، مِثْلُ الْفَتيلِ وَالْقِطْميرِ. وَفِي الْمَثَلِ: "لا يَمْلِكُ شَرْوى نَقيرٍ".

وَقَدْ وَرَدَتْ لَفظَةُ "النَّقيرِ" فِي سورَةِ النِّساءِ مَرَّتَيْنِ؛ الْأَوَّلُ فِي هَذِهِ الآيَةِ، والثَّاني فِي قَوْلِهِ تعالى: ﴿فَأُولَئِكَ يَدْخُلونَ الْجَنَّةَ وَلا يُظْلَمونَ نَقيرًا﴾ [النساء: ١٢٤].

وَفِي الْآيَةِ مِنَ الْفَوائِدِ:

١- شِدَّةُ بُخْلِ الْيَهُودِ لِقَوْلِهِ تعالى: ﴿فَإِذٗا لَّا يُؤۡتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا﴾، وَأَنَّهُمْ لَوْ كانُوا مُلوكًا لَبَخِلُوا بِالشَّيْءِ الْيَسيرِ الْحَقيرِ، وَهَذا شَأْنُ النُّفوسِ الْمَجْبولَةِ عَلى الشُّحِّ لَوْ مَلَكَتْ ما مَلَكَتْ لَبَقِيَتْ عَلى شُحِّها.

٢- التَّعْبيرُ بِالْخاصِّ عَنِ الْعامِّ فِي قَوْلِهِ تعالى: ﴿فَإِذٗا لَّا يُؤۡتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا﴾، فَلَيْسَ الْمُرادُ النُّقْرَةُ الَّتي فِي ظَهْرِ النَّواةِ، وَإِنَّما الْمُرادُ نَفْيُ كُلِّ شَيْءٍ.[٩٤]

٣- الْفاءُ فِي "فَإِذًا" تُسَمَّى الْفاءَ الْفَصيحَةَ؛ لِإِفْصاحِها عَنْ مَحْذوفٍ، وَالْمَحْذوفُ هُنا هو الشَّرْطُ الْمُقَدَّرُ؛ أي: إذا جُعِلَ لَهُمْ نَصيبٌ مِنَ الْمُلْكِ فَإِذَنْ...

﴿أَمۡ يَحۡسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۖ فَقَدۡ ءَاتَيۡنَآ ءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَءَاتَيۡنَٰهُم مُّلۡكًا عَظِيمٗا﴾ [النساء: ٥٤].

❁ ﴿أَمْ﴾ بَلْ ﴿يَحْسُدُونَ النَّاسَ﴾؛ أَيْ: النَّبِيَّ ﷺ وَالْمُؤْمِنِينَ، ﴿عَلَى مَا آتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ مِنَ النُّبُوَّةِ وَالْكِتَابِ وَالْعِزِّ وَالنَّصْرِ وَالْغَلَبَةِ ﴿فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ﴾؛ أَيْ: أَهْلَهُ وَذُرِّيَّتَهُ؛ كَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ

[٩٣] أخرجه عن ابن عباس سعيدُ بن منصور في سننه (٦٥٨)، والطبري في تفسيره (٨/ص: ٤٧٣)، وابن المنذر في تفسيره (١٨٨٧)، وابن أبي حاتم في تفسيره (٤٥٦٣).
[٩٤] يُنظر: المغني لابن قدامة (١٣/ص: ٥٤٤).

وَيَعْقُوبَ وَغَيْرِهِمْ -عَلَيْهِمُ السَّلَامُ-، أَعْطَاهُمْ اللهُ ﴿الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ وَالنُّبُوَّةَ ﴿وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا﴾ كَمُلْكِ دَاوُد وَسُلَيْمَانَ وَيُوسُفَ -عَلَيْهِمُ السَّلَامُ-.

❁ ﴿عَظِيمًا﴾ وَاسِعًا، فَكَيْفَ يَحْسُدُونَهُ -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ-، وَهُوَ مِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ -عَلَيْهِ السَّلَامُ-، وَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾ [العنكبوت: ٢٧]، فَلَا يُسْتَبْعَدُ أَنْ يُؤْتَى نَبِيُّنَا مُحَمَّدٌ ﷺ مِثْلَ مَا آتَاهُمْ.

وفي الْآيَةِ تَحْرِيمُ الْحَسَدِ، وَهُوَ مِنْ أَخَصِّ أَوْصَافِ الْيَهُودِ -قَبَّحَهُمْ اللهُ-، وَهو يُنَاقِضُ كَمالَ الْإِيمَانِ؛ وَلِذَا جاءَ في الْحَدِيثِ بِإِسْنادٍ صَحِيحٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال: «وَلَا يَجْتَمِعَانِ فِي قَلْبِ عَبْدٍ الْإِيمَانُ وَالْحَسَدُ»[٩٥]، فَالْمُؤْمِنُ الْحَقُّ لَا يَنْبَغِي أَنْ يُخَالِطَ قلبَهُ الْحَسَدُ.

﴿فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُۚ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا﴾ [النساء: ٥٥].

❁ ﴿فَمِنْهُمْ﴾؛ أَيْ: الْيَهُود ﴿مَنْ آمَنَ بِهِ﴾ بِمُحَمَّدٍ ﷺ وَبِمَا جَاءَ بِهِ مِنَ الْقُرْآنِ، وَهُمْ قِلَّةٌ كَعَبْدِاللهِ ابْنِ سَلَّامٍ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- وَغَيْرِهِ.

❁ ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ صَدَّ﴾ أَعْرَضَ ﴿عَنْهُ﴾ فَلَمْ يُؤْمِنْ بِهِ، ﴿وَكَفَى بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا﴾ لِمَنْ لَا يُؤْمِنُ بِمُحَمَّدٍ ﷺ.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ٥٦].

❁ ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ﴾ نُدْخِلُهُمْ ﴿نَارًا﴾ عَظِيمَةً، وَنُكِّرَتْ لِلتَّهْوِيلِ، ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ﴾ احْتَرَقَتْ، ﴿جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا﴾ بِأَنْ يُعَادَ ذَلِكَ الْجِلْدُ بِعَيْنِهِ عَلَى صُورَةٍ أُخْرَى جَدِيدَةٍ، فَالتَّبْدِيلُ عَلَى حَقِيقَتِهِ.

[٩٥] أخرجه النسائي في سننه (٣١٠٩).

❁ ﴿لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللهَ كَانَ عَزِيزًا﴾ لَا يَغْلِبُهُ غَالِبٌ وَلَا يَمْنَعُ عِقَابَهُ مَانِعٌ ﴿حَكِيمًا﴾ فِي تَدْبِيرِهِ وَتَقْدِيرِهِ.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ لَّهُمۡ فِيهَآ أَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞۖ وَنُدۡخِلُهُمۡ ظِلّٗا ظَلِيلًا﴾ [النساء: ٥٧].

❁ ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ﴾ مِنَ الْأَنْجَاسِ الْحِسِّيَّةِ وَالْمَعْنَوِيَّةِ.

❁ ﴿وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا﴾ دَائِمًا لَا حَرَّ فِيهِ وَلَا بَرْدَ، نَسْأَلُ اللهَ تَعَالَى الْكَرِيمَ مِنْ فَضْلِهِ.

﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا﴾ [النساء: ٥٨].

❁ ﴿إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا﴾ جَمْعُ أَمَانَةٍ، وَهِيَ: كُلُّ حَقٍّ لَزِمَكَ أَدَاؤُهُ وَحِفْظُهُ، وَهُوَ خِطَابٌ يَقْتَضِي عُمُومَهُ سَائِرَ النَّاسِ، وَيَدْخُلُ فِيهِ دُخُولًا أَوَّلِيًّا الْحُكَّامُ وَالْأُمَرَاءُ وَالْقُضَاةُ؛ لِأَنَّ اللهَ تَعَالَى ذَكَرَ الْحُكْمَ وَالْقَضَاءَ بَعْدَ ذَلِكَ، وَالْقَضَاءُ لَا يَكُونُ إِلَّا فِي الْحُكَّامِ وَالْقُضَاةِ وَنَحْوِهِمْ.

➥ وَمِمَّا يُؤَيِّدُ ذَلِكَ أَنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَمَرَ بِطَاعَتِهِمْ فِي الْآيَةِ التَّالِيَةِ، وَسَبَبُ نُزُولِهَا كَمَا ذَكَرَ الْمُفَسِّرُونَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمَّا فَتَحَ مَكَّةَ، وَتَسَلَّمَ مَفَاتِيحَ الْكَعْبَةِ مِنْ بَنِي شَيْبَةَ طَلَبَهَا مِنْهُ الْعَبَّاسُ لِيَجْمَعَ لَهُ بَيْنَ سِقَايَةِ الْحَاجِّ وَسِدَانَةِ الْبَيْتِ، فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى هَذِهِ الْآيَةَ، فَدَفَعَ مَفَاتِيحَ الْكَعْبَةِ إِلَى بَنِي شَيْبَةَ. وَوُرُودُ الْآيَةِ عَلَى هَذَا السَّبَبِ لَا يُنَافِي مَا فِيهَا مِنَ الْعُمُومِ، فَالِاعْتِبَارُ بِعُمُومِ اللَّفْظِ لَا بِخُصُوصِ السَّبَبِ كَمَا تَقَرَّرَ فِي الْأُصُولِ، وَأَجْمَعَ الْعُلَمَاءُ عَلَى أَنَّ الْأَمَانَاتِ مَرْدُودَةٌ إِلَى أَرْبَابِهَا الْأَبْرَارِ مِنْهُمْ وَالْفُجَّارِ كَمَا قَالَ ابْنُ الْمُنْذِرِ -رَحِمَهُ اللهُ-.[٩٦]

[٩٦] تفسير القرطبي (٥/ص:٢٥٦)، بتصرف يسير. والإجماع المذكور عن ابن المنذر حكاه في كتابه الإشراف على مذاهب العلماء (٦/ص: ٣٣٠).

❁ ﴿وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾، وَالْعَدْل: الْحُكْمُ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ؛ أَيْ: بِمَا فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠].

وَلَا بُدَّ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِالْعَدْلِ أَنْ يَكُونَ عَالِمًا بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ؛ لِأَنَّ الْجَاهِلَ لَا يَسْتَطِيعُ ذَلِكَ، وَفَاقِدُ الشَّيْءِ لَا يُعْطِيهِ -كَمَا يُقَالُ-.

❁ ﴿إِنَّ اللهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ﴾؛ أَيْ: يُرْشِدُكُمْ إِلَيْهِ وَيَحُثُّكُمْ عَلَيْهِ، وَالْمَخْصُوصُ بِالْمَدْحِ مَحْذُوفٌ، وَهُوَ: تَأْدِيَةُ الْأَمَانَةِ وَالْحُكْمُ بِالْعَدْلِ.

❁ ﴿إِنَّ اللهَ كَانَ سَمِيعًا﴾ لِأَقْوَالِكُمْ ﴿بَصِيرًا﴾ بِكُلِّ أَفْعَالِكُمْ.

وَفِي الْآيَةِ وُجُوبُ أَدَاءِ الْأَمَانَاتِ إِلَى أَصْحَابِهَا.

➥ **وَيُفْهَمُ مِنَ الْآيَةِ:** تَحْرِيمُ الْخِيَانَةِ، وَقَدْ وَرَدَ فِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- مَرْفُوعًا: «أَدِّ الْأَمَانَةَ إِلَى مَنْ ائْتَمَنَكَ، وَلَا تَخُنْ مَنْ خَانَكَ». [٩٧]

وَفِي الْآيَةِ وُجُوبُ الْحُكْمِ بَيْنَ النَّاسِ بِالْعَدْلِ.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء: ٥٩].

➥ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُما- قَالَ: **"نَزَلَتْ فِي عَبْدِ اللهِ بْنِ حُذَافَةَ بْنِ قَيْسِ بنِ عَدِيٍّ، إِذْ بَعَثَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي سَرِيَّةٍ".** [٩٨]

➥ **وَعَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- قَالَ:** "بَعَثَ النَّبِيُّ ﷺ سَرِيَّةً فَاسْتَعْمَلَ رَجُلًا مِنَ الْأَنْصَارِ وَأَمَرَهُمْ أَنْ يُطِيعُوهُ، فَغَضِبَ، فَقَالَ: أَلَيْسَ أَمَرَكُمُ النَّبِيُّ ﷺ أَنْ تُطِيعُونِي؟ قَالُوا: بَلَى، قَالَ: فَاجْمَعُوا لِي حَطَبًا، فَجَمَعُوا، فَقَالَ: أَوْقِدُوا نَارًا، فَأَوْقَدُوهَا، فَقَالَ: أُدْخُلُوهَا، فَهَمُّوا وَجَعَلَ بَعْضُهُمْ يُمْسِكُ

[٩٧] أخرجه أبو داود (٣٥٣٥)، والترمذي (١٢٦٤)، وقال: هذا حديث حسن غريب.
[٩٨] أخرجه البخاري (٤٥٨٤)، ومسلم (١٨٣٤) باختلاف يسير.

بَعْضًا، وَيَقُولُونَ: فَرَرْنَا إِلَى النَّبِيِّ ﷺ مِنَ النَّارِ، فَمَا زَالُوا حَتَّى خَمَدَتْ النَّارُ، فَسَكَنَ غَضَبُهُ، فَبَلَغَ النَّبِيَّ ﷺ، فَقَالَ: «**لَوْ دَخَلُوهَا مَا خَرَجُوا مِنْهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، الطَّاعَةُ فِي الْمَعْرُوفِ**»[٩٩].

وَلَمَّا أَمَرَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى الْوُلَاةَ بِأَدَاءِ الْأَمَانَاتِ وَالْحُكْمِ بَيْنَ النَّاسِ بِالْعَدْلِ -وَلَا يَكُونُ ذَلِكَ إِلَّا بِتَحْكِيمِ الشَّرِيعَةِ- أَمَرَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ بِطَاعَتِهِمْ فَقَالَ: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ**﴾؛ لِأَنَّهُ لَا يَسْتَقِيمُ لِلنَّاسِ أَمْرُ دِينِهِمْ وَدُنْيَاهُمْ إِلَّا بِطَاعَتِهِمْ، وَطَاعَتُهُمْ -فِيمَا لَمْ يَكُنْ مَعْصِيَةً- كَمَا أُشِيرَ إِلَى ذَلِكَ فِي حَذْفِ الْفِعْلِ عِنْدَ الْأَمْرِ بِطَاعَتِهِمْ مِنْ طَاعَةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ؛ وَطَاعَتُهُ مِنْ طَاعَةِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ؛ وَالْعُلَمَاءُ مِنْ أُولِي الْأَمْرِ أَيْضًا؛ وَهُمُ الْعَامِلُونَ؛ فَإِنَّهُمْ يَأْمُرُونَ بِأَمْرِ اللهِ وَرَسُولِهِ ﷺ.

❁ ﴿**فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ**﴾؛ أَيْ: فَإِنْ اخْتَلَفْتُمْ أَنْتُمْ وَأُولُو الْأَمْرِ فِي أَيِّ شَيْءٍ ﴿**فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ**﴾؛ أَيْ: إِلَى كِتَابِ اللهِ، ﴿**وَالرَّسُولِ**﴾؛ أَيْ: إِلَى سُنَّةِ رَسُولِهِ ﷺ، ﴿**إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ**﴾ شَرْطٌ جَوَابُهُ مَحْذُوفٌ اكْتِفَاءً بِدَلَالَةِ الْمَذْكُورِ عَلَيْهِ.

➥ **وَالْمَعْنَى**: إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ حَقَّ الْإِيمَانِ، فَرُدُّوا مَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ إِلَى كِتَابِ اللهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ ﷺ.

❁ ﴿**ذَلِكَ خَيْرٌ**﴾؛ أَيْ: رَدُّكُمْ مَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ إِلَى الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ خَيْرٌ لَكُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ مِنَ التَّنَازُعِ وَالِاخْتِلَافِ، ﴿**وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا**﴾ عَاقِبَةً فِي دِينِكُمْ وَدُنْيَاكُمْ وَمَعَاشِكُمْ وَأَحْوَالِكُمْ.

وَفِي الْآيَةِ وُجُوبُ طَاعَةِ وُلَاةِ الْأَمْرِ مَا لَمْ يَأْمُرُوا بِمَعْصِيَةٍ، فَإِنْ أَمَرُوا بِمَعْصِيَةٍ فَلَا سَمْعَ وَلَا طَاعَةَ.

➥ **كَمَا فِي حَدِيثِ ابْنِ عُمَرَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- قَالَ**: قَالَ -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ-: «**السَّمْعُ وَالطَّاعَةُ عَلَى الْمَرْءِ الْمُسْلِمِ فِيمَا أَحَبَّ وَكَرِهَ مَا لَمْ يُؤْمَرْ بِمَعْصِيَةٍ، فَإِنْ أُمِرَ بِمَعْصِيَةٍ فَلَا سَمْعَ وَلَا طَاعَةَ**»[١٠٠].

---

[٩٩] أخرجه البخاري (٤٣٤٠).

[١٠٠] أخرجه البخاري (٢٩٥٥)، ومسلم (١٨٣٩).

➥ وَتَقَدَّمَ حَدِيثُ عَلِيٍّ –رَضِيَ اللهُ عَنْهُ– مَرْفُوعًا: (إِنَّمَا الطَّاعَةُ بِالْمَعْرُوفِ)[١٠١]، وَالْأَدِلَّةُ عَلَى هَذَا الْأَصْلِ الْعَظِيمِ كَثِيرَةٌ جِدًّا، وَاللهُ جَلَّ وَعَلَا جَعَلَ طَاعَتَهُمْ تَابِعَةً لِطَاعَتِهِ وَطَاعَةِ رَسُولِهِ ﷺ فَقَالَ: ﴿وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنْكُمْ﴾.

فَحَذَفَ الْفِعْلَ (وَأَطِيعُوا)، وَذَكَرَهُ مَعَ طَاعَةِ الرَّسُولِ ﷺ؛ لِأَنَّ طَاعَةَ الرَّسُولِ تَجِبُ اسْتِقْلَالًا مِنْ غَيْرِ عَرْضِ مَا أَمَرَ بِهِ عَلَى الْكِتَابِ، بَلْ إِذَا أَمَرَ وَجَبَتْ طَاعَتُهُ مُطْلَقًا، سَوَاءٌ كَانَ مَا أَمَرَ بِهِ فِي الْكِتَابِ أَوْ لَمْ يَكُنْ فِيهِ؛ لِأَنَّ السُّنَّةَ وَحْيٌ مِنَ اللهِ تَعَالَى، كَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى (٣) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾ [النجم: ٣-٤]، وَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ﴾ [النساء: ٨٠]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ [الحشر: ٧].

➥ وَثَبَتَ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ –رَضِيَ اللهُ عَنْهُ– أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «مَنْ أَطَاعَنِي فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ عَصَى اللهَ».[١٠٢]

➥ وَعَنْهُ أَيْضًا –رَضِيَ اللهُ عَنْهُ– أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «كُلُّ أُمَّتِي يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ أَبَى» قِيلَ: يَا رَسُولَ اللهِ: وَمَنْ يَأْبَى؟ قَالَ: «مَنْ أَطَاعَنِي دَخَلَ الْجَنَّةَ، وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ أَبَى».[١٠٣] وَبِإِسْنَادٍ صَحِيحٍ عَنِ الْمِقْدَامِ بْنِ مَعْدِي كَرِبَ –رَضِيَ اللهُ عَنْهُ– عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «أَلَا إِنِّي أُوتِيتُ الْكِتَابَ وَمِثْلَهُ مَعَهُ، أَلَا يُوشِكُ رَجُلٌ شَبْعَانُ عَلَى أَرِيكَتِهِ يَقُولُ عَلَيْكُمْ بِهَذَا الْقُرْآنِ فَمَا وَجَدْتُمْ فِيهِ مِنْ حَلَالٍ فَأَحِلُّوهُ وَمَا وَجَدْتُمْ فِيهِ مِنْ حَرَامٍ فَحَرِّمُوهُ».[١٠٤]

✹ فَكُلُّ هَذِهِ الْأَدِلَّةِ وَغَيْرِهَا تَدُلُّ دَلَالَةً وَاضِحَةً عَلَى أَنَّ طَاعَةَ النَّبِيِّ ﷺ طَاعَةٌ مُسْتَقِلَّةٌ عَنْ طَاعَةِ اللهِ، وَهِيَ مِنْ طَاعَةِ اللهِ تَعَالَى بِلَا شَكٍّ، فَالْمُطِيعُ لِلرَّسُولِ ﷺ مُطِيعٌ للهِ كَمَا فِي آيَةِ النِّسَاءِ، وَاللهُ أَعْلَمُ.

✯ وَفِي الْآيَةِ وُجُوبُ الرُّجُوعِ فِي كُلِّ شَيْءٍ تَنَازَعَ فِيهِ النَّاسُ إِلَى كِتَابِ اللهِ، وَسُنَّةِ نَبِيِّهِ ﷺ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللهِ﴾ [الشورى: ١٠].

---

[١٠١] أخرجه البخاري (٧١٤٥).
[١٠٢] أخرجه البخاري (٧١٣٧)، ومسلم (١٨٣٥).
[١٠٣] أخرجه البخاري (٧٢٨٠).
[١٠٤] أخرجه أحمد في المسند (١٧١٧٤)، وأبو داود في سننه (٤٦٠٤).

- **وَيُفْهَمُ مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ**: أَنَّهُ لَا يَجُوزُ التَّحَاكُمُ إِلَى غَيْرِ كِتَابِ اللهِ، وَسُنَّةِ نَبِيِّهِ ﷺ وَأَنَّ مَنْ تَحَاكَمَ إِلَى غَيْرِهِمَا فَلَيْسَ مُؤْمِنًا بِاللهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ [النساء: ٦٠].

❁ ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ﴾ يَقُولُونَ كَاذِبِينَ ﴿أَنَّهُمْ ءَامَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾ وَهُوَ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ، ﴿وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ كَالتَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ، ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ﴾.

جُمْلَةُ "**يُرِيدُونَ**" حَالِيَّةٌ وَأَنَّ وَمَا فِي حَيِّزِهَا مَصْدَرٌ مُؤَوَّلٌ مَفْعُولٌ بِهِ لـ"يُرِيدُونَ"، *وَالتَّقْدِيرُ*: يُرِيدُونَ التَّحَاكُمَ إِلَى الطَّاغُوتِ فِيمَا يَقَعُ بَيْنَهُمْ مِنْ خُصُومَاتٍ.

❁ ﴿وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ﴾؛ أَيْ: بِالطَّاغُوتِ، وَهُوَ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ: الْحُكْمُ بِغَيْرِ مَا أَنْزَلَ اللهُ، ﴿وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ﴾ عَنِ الْهُدَى وَالْحَقِّ ﴿ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ لَا يَرْجِعُونَ عَنْهُ إِلَى دِينِ اللهِ إِلَى الْمَوْتِ.

- **وَقَدْ اخْتَلَفَتِ الرِّوَايَاتُ فِي سَبَبِ نُزُولِ هَذِهِ الْآيَةِ اخْتِلَافًا مُتَقَارِبًا**، وَأَصَحُّهَا مَا ثَبَتَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا- أَنَّهُ قَالَ: "**كَانَ أَبُو بَرْزَةَ الْأَسْلَمِيُّ كَاهِنًا يَقْضِي بَيْنَ الْيَهُودِ فِيمَا يَتَنَافَرُونَ إِلَيْهِ، فَتَنَافَرَ إِلَيْهِ نَاسٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى هَذِهِ الْآيَاتِ**".[١٠٥]

وَفِي الْآيَةِ وُجُوبُ التَّحَاكُمِ إِلَى مَا أَنْزَلَ اللهُ، وَأَنَّ التَّحَاكُمَ إِلَى غَيْرِ مَا أَنْزَلَ اللهُ تَحَاكُمٌ إِلَى الطَّاغُوتِ وَهُوَ كُفْرٌ؛ لِأَنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ أَمَرَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِهِ، وَهُوَ يُنَافِي الْإِيمَانَ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى.

[١٠٥] أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (١٢٠٤٥).

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا﴾ [النساء: ٦١].

❁ ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾؛ أَيْ: لِلْمُنَافِقِين ﴿تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللهُ وَإِلَى الرَّسُولِ﴾ لِيَحْكُمَ بَيْنَكُمْ، وَفِي إِعَادَةِ الْعَامِلِ "إِلَى" دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ التَّحَاكُمَ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى سُنَّتِهِ ﷺ تَجِبُ اسْتِقْلَالًا إِذَا لَمْ يَرِدْ فِي الْقُرْآنِ.

❁ ﴿رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ﴾ يُعْرِضُونَ ﴿عَنْكَ﴾ إِلَى غَيْرِك إِعْرَاضًا تَامًّا؛ لِعِلْمِهِمْ أَنَّك تَحْكُمُ بِالشَّرْعِ وَلَا تَقْبَلُ الرِّشْوَةَ، وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ﴾ يَدُلُّ دَلَالَةً وَاضِحَةً أَنَّ الْآيَاتِ نَزَلَتْ فِي الْمُنَافِقِينَ، وَأَنَّ مِنْ صِفَاتِهِمْ -قَبَّحَهُمْ اللهُ- أَنَّهُمْ إِذَا دُعُوا إِلَى أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى سُنَّتِهِ، لَا يَسْتَجِيبُونَ لِذَلِكَ، بَلْ يَصُدُّونَ عَنْهُ صُدُودًا، بِخِلَافِ الْمُؤْمِنِينَ فَإِنَّهُمْ إِذَا دُعُوا إِلَى التَّحَاكُمِ إِلَى الرَّسُولِ ﷺ وَإِلَى سُنَّتِهِ بَادَرُوا إِلَى الِاسْتِجَابَةِ لِذَلِكَ، وَقَالُوا بِلِسَانِ حَالِهِمْ وَمَقَالِهِمْ: (**سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا**)، وَأَنَّهُمْ يَصِيرُونَ بِذَلِكَ مُفْلِحِينَ، وَيَكُونُونَ مِنَ الْفَائِزِينَ بِجَنَّاتِ النَّعِيمِ كَمَا قَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٥١) وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ [النور: ٥١-٥٢].

﴿فَكَيْفَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا﴾ [النساء: ٦٢].

❁ ﴿فَكَيْفَ﴾ يَكُونُ حَالُهُمْ ﴿إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ﴾؛ أَيْ: إِذَا نَزَلَتْ بِهِمْ عُقُوبَةٌ مِنَ اللهِ تَعَالَى ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ مِنَ الْكُفْرِ وَالْمَعَاصِي الَّتِي مِنْ أَعْظَمِهَا التَّحَاكُمُ إِلَى الطَّاغُوتِ.

❁ ﴿ثُمَّ جَاءُوكَ﴾ يَعْتَذِرُونَ وَ﴿يَحْلِفُونَ بِاللهِ إِنْ أَرَدْنَا﴾، "إِنْ" نَافِيَةٌ، **وَالْمَعْنَى**: مَا أَرَدْنَا بِالتَّحَاكُمِ إِلَى غَيْرِك، ﴿إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا﴾ بَيْنَ الْخَصْمَيْنِ، وَهُمْ كَاذِبُونَ؛ لِأَنَّ الْإِحْسَانَ وَالتَّوْفِيقَ لَا يَكُونُ إِلَّا بِالتَّحَاكُمِ إِلَى مَا أَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُ ٱللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمۡ فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ وَعِظۡهُمۡ وَقُل لَّهُمۡ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ قَوۡلَۢا بَلِيغٗا﴾ [النساء: ٦٣].

❁ ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ مِنَ النِّفَاقِ وَالْكَذِبِ، ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ بِعَدَمِ قَبُولِ اعْتِذَارِهِمْ ﴿وَعِظْهُمْ﴾ رَغِّبْهُم في طاعَةِ الله تعالى وخَوِّفْهُم من ترك الطاعة والانقياد.

❁ ﴿وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا﴾، قُلْ لَهُمْ كَلَامًا مُؤَثِّرًا يُؤَثِّرُ فِي قُلُوبِهِمْ، وَيَكُونُ كَلَامُك فِيمَا بَيْنَك وَبَيْنَهُمْ؛ لِأَنَّهُ أَدْعَى لِلْقَبُولِ وَأَقْرَبُ إلَى الِاسْتِجَابَةِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُون عَنْ نِفَاقِهِمْ.

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ جَآءُوكَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسۡتَغۡفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابٗا رَّحِيمٗا﴾ [النساء: ٦٤].

❁ ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ﴾؛ أَيْ: لِيُتَّبَعَ فِيمَا يَحْكُمُ بِهِ، لَا لِيُطْلَبَ الْحُكْمُ مِنْ غَيْرِهِ، فَطَاعَتُهُ فِيمَا حَكَمَ بِهِ فَرْضٌ ﴿بِإِذْنِ اللهِ﴾ بِقَضَائِهِ وَقَدَرِهِ وَتَوْفِيقِهِ وَإِعَانَتِهِ وَتَيْسِيرِهِ، فَمَنْ أَذِنَ اللهُ لَهُ وَأَرَادَ هِدَايَتَهُ اهْتَدَى، وَمَنْ لَمْ يَأْذَنْ لَهُ فِي هِدَايَتِهِ لَمْ يَهْتَدِ، فَالْأَمْرُ بِيَدِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

❁ ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ﴾ عَائِدٌ عَلَى الْمُنَافِقِينَ ﴿إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ بِالتَّحَاكُمِ إِلَى الطَّاغُوتِ وَتَرْكِهِمُ التَّحَاكُمَ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، ﴿جَاءُوكَ﴾ نَادِمِينَ تَائِبِينَ وَذَلِكَ فِي حَالِ حَيَاتِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

❁ ﴿فَاسْتَغْفَرُوا اللهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ﴾، فِيهِ الْتِفَاتٌ عَنْ لَفْظِ الْخِطَابِ إِلَى لَفْظِ الْمُغَايَبَةِ تَعْظِيمًا لِاسْتِغْفَارِهِ ﷺ، وَإِجْلَالًا لَهُ وَتَفْخِيمًا لِشَأْنِهِ، ﴿لَوَجَدُوا اللهَ تَوَّابًا﴾ عَلَيْهِمْ ﴿رَحِيمًا﴾ بِهِمْ.

﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥].

➥ **عَنْ عُرْوَةَ قَالَ**: "خَاصَمَ الزُّبَيْرُ رَجُلًا فِي شِرَاجِ الْحَرَّةِ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «اسْقِ يَا زُبَيْرُ ثُمَّ أَرْسِلْ الْمَاءَ إِلَى جَارِكَ»، فَقَالَ الْأَنْصَارِيُّ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَنْ كَانَ ابْنَ عَمَّتِكَ؟ فَتَلَوَّنَ وَجْهُ رَسُولِ اللهِ ﷺ، ثُمَّ قَالَ: «اسْقِ يَا زُبَيْرُ، ثُمَّ احْبِسْ الْمَاءَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَى الجَدْرِ، ثُمَّ أَرْسِلْ الْمَاءَ إِلَى جَارِكَ»، وَاسْتَوْعَى النَّبِيُّ ﷺ لِلزُّبَيْرِ حَقَّهُ فِي صَرِيحِ الْحُكْمِ، حِينَ أَحْفَظَهُ الْأَنْصَارِيُّ، وَكَانَ أَشَارَ عَلَيْهِمَا بِأَمْرٍ لَهُمَا فِيهِ سَعَةٌ. قَالَ الزُّبَيْرُ: فَمَا أَحْسَبُ هَذِهِ الْآيَةَ إِلَّا نَزَلَتْ فِي ذَلِكَ: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ الْآيَةَ".[١٠٦]

❁ ﴿فَلَا﴾ "لَا" لَيْسَتْ زَائِدَةً، وَإِنَّمَا هِيَ رَدٌّ عَلَى مَا تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ مِنْ تَحَاكُمِ الْمُنَافِقِينَ إِلَى الطَّاغُوتِ، وَتَرْكِهِمُ التَّحَاكُمَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، **وَالْمَعْنَى**: لَيْسَ الْأَمْرُ كَمَا يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ، وَهُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ ﴿وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾، أَقْسَمَ اللهُ تَعَالَى بِنَفْسِهِ الْعَظِيمَةِ أَنَّ هَؤُلَاءِ الْمُنَافِقِينَ لَا يُؤْمِنُونَ.

❁ ﴿حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ﴾ يَعْنِي مُحَمَّدًا ﷺ، ﴿فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ مِنْ نِزَاعَاتٍ وَخُصُومَاتٍ، ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ﴾؛ أَيْ: لَا يَبْقَى فِي صُدُورِهِمْ ﴿حَرَجًا﴾ ضَيِّقًا، ﴿مِّمَّا قَضَيْتَ﴾ بِهِ ﴿وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ وَيَنْقَادُوا لِحُكْمِكَ انْقِيَادًا تَامًّا بِظَاهِرِهِمْ وَبَاطِنِهِمْ.

➥ **قَالَ ابْنُ سَعْدِيٍّ –رَحِمَهُ اللهُ–**: "فَالتَّحْكِيمُ فِي مَقَامِ الْإِسْلَامِ، وَانْتِفَاءُ الْحَرَجِ فِي مَقَامِ الْإِيمَانِ، وَالتَّسْلِيمُ فِي مَقَامِ الْإِحْسَانِ، فَمَنِ اسْتَكْمَلَ هَذِهِ الْمَرَاتِبَ وَكَمَّلَهَا فَقَدِ اسْتَكْمَلَ مَرَاتِبَ الدِّينِ كُلَّهَا، فَمَنْ تَرَكَ هَذَا التَّحْكِيمَ الْمَذْكُورَ غَيْرَ مُلْتَزِمٍ لَهُ فَهُوَ كَافِرٌ، وَمَنْ تَرَكَهُ مَعَ الْتِزَامِهِ فَلَهُ حُكْمُ أَمْثَالِهِ مِنَ الْعَاصِينَ".[١٠٧]

---

[١٠٦] أخرجه البخاري (٤٥٨٥).
[١٠٧] تيسير الكريم الرحمن، ص: ١٨٤.

★ وَقَدْ دَلَّتْ هَذِهِ الْآيَةُ الْعَظِيمَةُ عَلَى أَنَّهُ يَجِبُ عَلَى الْمُسْلِمِينَ جَمِيعًا التَّحَاكُمُ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ مِنْ خُصُومَاتٍ وَنِزَاعَاتٍ إِلَى شَرْعِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَالرُّضُوخُ لَهُ، وَالتَّسْلِيمُ بِهِ، وَلَا يَجُوزُ التَّحَاكُمُ إِلَى غَيْرِ شَرْعِ اللهِ.

➥ "فَمَنْ زَعَمَ أَنَّهُ يَجُوزُ التَّحَاكُمُ إِلَى غَيْرِ شَرْعِ اللهِ، أَوْ إِلَى الْآبَاءِ أَوْ إِلَى الْأَجْدَادِ أَوْ إِلَى الْقَوَانِينِ الْوَضِيعَةِ فَإِنَّ الْإِيمَانَ مُنْتَفٍ عَنْهُ، وَيَكُونُ بِذَلِكَ كَافِرًا كُفْرًا أَكْبَرَ، فَمَنْ رَأَى أَنَّ شَرْعَ اللهِ لَا يَجِبُ تَحْكِيمُهُ، وَلَكِنْ لَوْ حَكَمَ كَانَ أَفْضَلَ، أَوْ رَأَى أَنَّ الْقَانُونَ أَفْضَلُ، أَوْ رَأَى أَنَّ الْقَانُونَ يُسَاوِي حُكْمَ اللهِ فَهُوَ مُرْتَدٌّ عَنِ الْإِسْلَامِ، أَمَّا الَّذِي يَرَى أَنَّ الْوَاجِبَ تَحْكِيمُ شَرْعِ اللهِ، وَأَنَّهُ لَا يَجُوزُ تَحْكِيمُ الْقَوَانِينِ وَلَا غَيْرِهَا مِمَّا يُخَالِفُ شَرْعَ اللهِ، وَلَكِنَّهُ قَدْ يَحْكُمُ بِغَيْرِ مَا أَنْزَلَ اللهُ لِهَوًى فِي نَفْسِهِ ضِدَّ الْمَحْكُومِ عَلَيْهِ، أَوْ لِرِشْوَةٍ، أَوْ لِأُمُورٍ سِيَاسِيَّةٍ، أَوْ مَا أَشْبَهَ ذَلِكَ مِنَ الْأَسْبَابِ وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّهُ ظَالِمٌ وَمُخْطِئٌ وَمُخَالِفٌ لِلشَّرْعِ فَهَذَا يَكُونُ نَاقِصَ الْإِيمَانِ، وَقَدِ انْتَفَى فِي حَقِّهِ كَمَالُ الْإِيمَانِ الْوَاجِبِ، وَهُوَ بِذَلِكَ يَكُونُ كَافِرًا كُفْرًا أَصْغَرَ، وَظَالِمًا ظُلْمًا أَصْغَرَ، وَفَاسِقًا فِسْقًا أَصْغَرَ، كَمَا صَحَّ مَعْنَى ذَلِكَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا- وَمُجَاهِدٍ وَجَمَاعَةٍ مِنَ السَّلَفِ -رَحِمَهُمُ اللهُ-، وَهُوَ قَوْلُ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ خِلَافًا لِلْخَوَارِجِ وَالْمُعْتَزِلَةِ وَمَنْ سَلَكَ سَبِيلَهُمْ. وَاللهُ الْمُسْتَعَانُ"، قَالَهُ ابْنُ بَازٍ -رَحِمَهُ اللهُ-.[١٠٨]

﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ ٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ أَوِ ٱخْرُجُواْ مِن دِيَٰرِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ ۖ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا﴾ [النساء: ٦٦].

❁ ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا﴾؛ أَيْ: فَرَضْنَا ﴿عَلَيْهِمْ﴾؛ أَيْ: عَلَى هَؤُلَاءِ الْمُنَافِقِينَ الَّذِينَ تَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ ﴿أَنْ اُقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ كَمَا كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ مِن قَتْلِهِمْ أَنْفُسَهُمْ، ﴿أَوْ اُخْرُجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ﴾ كَمَا كَتَبْنَا عَلَى الْمُهَاجِرِينَ ﴿مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ﴾ لِنِفَاقِهِمْ.

➥ **وَقَوْلُهُ**: ﴿قَلِيلٌ﴾ بِالرَّفْعِ عَلَى الْبَدَلِ، وَالنَّصْبِ عَلَى الِاسْتِثْنَاءِ، ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ﴾؛ أَيْ: وَلَوْ أَنَّ هَؤُلَاءِ الْمُنَافِقِينَ ﴿فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ﴾ وَالَّذِي يُوعَظُونَ بِهِ هُوَ الِانْقِيَادُ التَّامُّ لِحُكْمِ اللهِ وَرَسُولِهِ ﷺ ﴿لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ﴾ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ﴿وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا﴾ لِإِيمَانِهِمْ.

[١٠٨] في مجموع فتاويه (٢٤/ص: ٢٢٣)، بتصرف يسير.

﴿وَإِذًا لَآتَيْنَاهُمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء:٦٧].

❁ ﴿وَإِذًا لَآتَيْنَاهُمْ﴾ لَأَعْطَيْنَاهُمْ ﴿مِنْ لَدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا﴾ ثَوَابًا كَثِيرًا لَا يَنْقَطِعُ.

﴿وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ [النساء: ٦٨].

❁ ﴿وَلَهَدَيْنَاهُمْ﴾ وَفَّقْنَاهُمْ وَأَرْشَدْنَاهُمْ، فَيَشْمَلُ الْهِدَايَتَيْنِ:

١. هِدَايَةَ التَّوْفِيقِ.

٢. وَهِدَايَةَ الْإِرْشَادِ.

❁ ﴿صِرَاطًا﴾ طَرِيقًا ﴿مُسْتَقِيمًا﴾ يُوصِلُ إِلَى اللهِ تَعَالَى وَإِلَى جَنَّتِهِ وَهُوَ الْإِسْلَامُ.

وَفِي الْآيَاتِ الْحَثُّ وَالتَّرْغِيبُ فِي فِعْلِ مَا يُوعَظُ بِهِ الْمُؤْمِنُ، وَأَنَّ الِامْتِثَالَ لِأَمْرِ اللهِ تعالى مِنْ أَشَدِّ وَسَائِلِ الثَّبَاتِ عَلَى هَذَا الدِّينِ وَأَقْوَاهَا، وَسَبَبٌ لِلْهِدَايَةِ إِلَى الطَّرِيقِ الْمُسْتَقِيمِ الَّذِي لَا اعْوِجَاجَ فِيهِ، وَالَّذِي يُوصِلُ إِلَى جَنَّتِهِ وَرِضَاهُ.

﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩].

↩ عَنْ عَائِشَةَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهَا- قَالَتْ: "جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ: إِنَّكَ لَأَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ نَفْسِي وَأَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَهْلِي، وَأَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ وَلَدِي، وَإِنِّي لَأَكُونُ فِي الْبَيْتِ فَأَذْكُرُكَ فَمَا أَصْبِرُ حَتَّى آتِيَكَ فَأَنْظُرَ إِلَيْكَ، وَإِذَا ذَكَرْتُ مَوْتِي وَمَوْتَكَ عَرَفْتُ أَنَّكَ إِذَا دَخَلْتَ الْجَنَّةَ رُفِعْتَ مَعَ النَّبِيِّينَ، وَإِنْ دَخَلْتُ الْجَنَّةَ خَشِيتُ أَلَّا أَرَاكَ، فَلَمْ يَرُدَّ عَلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ حَتَّى نَزَلَتْ عَلَيْهِ: ﴿وَمَنْ

يُطِعْ اللهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾".[١٠٩]

❁ ﴿وَمَنْ يُطِعْ اللهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ﴾؛ أَيْ: "هُمْ مَعَهُمْ فِي دَارٍ وَاحِدَةٍ وَنَعِيمٍ وَاحِدٍ يَسْتَمْتِعُونَ بِرُؤْيَتِهِمْ وَالْحُضُورِ مَعَهُمْ، لَا أَنَّهُمْ يُسَاوُونَهُمْ فِي الدَّرَجَةِ، فَإِنَّهُمْ يَتَفَاوَتُونَ، لَكِنَّهُمْ يَتَزَاوَرُونَ لِلِاتِّبَاعِ فِي الدُّنْيَا وَالِاقْتِدَاءِ، وَكُلُّ مَنْ فِيهَا قَدْ رُزِقَ الرِّضَا بِحَالِهِ، وَقَدْ ذَهَبَ عَنْهُ اعْتِقَادُ أَنَّهُ مَفْضُولٌ".[١١٠]

➥ وَمِمَّا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْمَعِيَّةَ لَا يَلْزَمُ مِنْهَا أَنْ يَكُونَ الْجَمِيعُ فِي دَرَجَةٍ وَاحِدَةٍ: مَا ثَبَتَ مِنْ حَدِيثِ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ-: (أَنَّ رَجُلًا سَأَلَ النَّبِيَّ ﷺ عَنِ السَّاعَةِ، فَقَالَ: مَتَى السَّاعَةُ؟ قَالَ: «وَمَاذَا أَعْدَدْتَ لَهَا؟» قَالَ: لاَ شَيْءَ، إِلَّا أَنِّي أُحِبُّ اللهَ وَرَسُولَهُ ﷺ، فَقَالَ: «أَنْتَ مَعَ مَنْ أَحْبَبْتَ». قَالَ أَنَسٌ: فَمَا فَرِحْنَا بِشَيْءٍ فَرَحَنَا بِقَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: «أَنْتَ مَعَ مَنْ أَحْبَبْتَ»، فَأَنَا أُحِبُّ النَّبِيَّ ﷺ وَأَبَا بَكْرٍ، وَعُمَرَ، وَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ مَعَهُمْ بِحُبِّي إِيَّاهُمْ، وَإِنْ لَمْ أَعْمَلْ بِمِثْلِ أَعْمَالِهِمْ).[١١١]

☆ فيُقال: "الْمَعِيَّةُ تَحْصُلُ بِمُجَرَّدِ الِاجْتِمَاعِ فِي شَيْءٍ مَا، وَلَا تَلْزَمُ فِي جَمِيعِ الْأَشْيَاءِ، فَإِذَا اتَّفَقَ أَنَّ الْجَمِيعَ دَخَلُوا الْجَنَّةَ، صَدَقَتِ الْمَعِيَّةُ، وَإِنْ تَفَاوَتَتِ الدَّرَجَاتُ".[١١٢]

❁ ﴿مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ﴾ جَمْعُ صِدِّيقٍ: وَهُوَ مَنْ غَلَبَ عَلَيْهِ الصِّدْقُ فِي أَقْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ لِكَثْرَةِ مَا يَصْدُقُ وَيَتَحَرَّى الصِّدْقَ.

➥ كَمَا وَرَدَ فِي حَدِيثِ ابْنِ مَسْعُودٍ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- مَرْفُوعًا وَفِيهِ: «وَمَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَصْدُقُ وَيَتَحَرَّى الصِّدْقَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللهِ صِدِّيقًا».[١١٣]

❁ ﴿وَالشُّهَدَاءُ﴾ الْقَتْلَى فِي سَبِيلِ اللهِ، ﴿وَالصَّالِحِينَ﴾ الَّذِينَ صَلَحَتْ ظَوَاهِرُهُمْ وَبَوَاطِنُهُمْ ﴿وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾؛ أَيْ: وَحَسُنَ أُولَئِكَ أَصْحَابًا فِي الْجَنَّةِ، نَسْأَلُ اللهَ تَعَالَى الْكَرِيمَ مِنْ فَضْلِهِ.

---

[١٠٩] أخرجه الطبراني في الأوسط (٤٧٧).
[١١٠] تفسير القرطبي (٥/ص: ٢٧٧).
[١١١] أخرجه البخاري (٣٦٨٨).
[١١٢] فتح الباري لابن حجر (١٠/ص: ٥٥٥).
[١١٣] أخرجه البخاري (٦٠٤٩) ومسلم (٢٦٠٧) واللفظ له.

﴿ذَٰلِكَ ٱلۡفَضۡلُ مِنَ ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمٗا﴾ [النساء: ٧٠].

❁ ﴿ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ﴾ مُبْتَدَأٌ وَخَبَرُهُ؛ أَيْ أَنَّ مُرَافَقَةَ الْأَنْبِيَاءِ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ تَمَّتْ لَهُمْ بِفَضْلِ اللهِ وَكَرَمِهِ وُجُودِهِ، لَا أَنَّهُمْ نَالُوهَا بِطَاعَتِهِمْ.

➥ **وَقَدْ ثَبَتَ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ –رَضِيَ اللهُ عَنْهُ– قَالَ:** "قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لَنْ يُدْخِلَ أَحَدًا عَمَلُهُ الْجَنَّةَ. قالُوا: وَلا أَنْتَ يا رَسولَ الله؟ قالَ: لا، وَلا أَنا، إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي الله بِفَضْلٍ وَرَحْمَةٍ».[١١٤]

❁ ﴿وَكَفَى بِاللهِ عَلِيمًا﴾ وَإِنْ لَمْ يُعَلِّمْهُمُ النَّاسُ، فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى يُعَلِّمُهُمْ وَسَيُثِيبُهُمْ عَلَى طَاعَتِهِمْ، وَهَذَا فِيهِ التَّرْغِيبُ عَلَى طَاعَةِ اللهِ، وَالِاجْتِهَادِ الْعَظِيمِ فِي تَكْمِيلِهَا، وَالْحَذَرِ الشَّدِيدِ مِنَ التَّقْصِيرِ وَالتَّهَاوُنِ فِيهَا.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذۡرَكُمۡ فَٱنفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعٗا﴾ [النساء: ٧١].

❁ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ﴾ مِنْ عَدُوِّكُمْ، وَذَلِكَ بِالِاسْتِعْدَادِ لَهُ، ﴿فَانْفِرُوا﴾ أُخْرُجُوا إِلَى الْجِهَادِ ﴿ثُبَاتٍ﴾ فِرَقًا، فِرْقَةً بَعْدَ أُخْرَى ﴿أَوِ انْفِرُوا جَمِيعًا﴾ مُجْتَمِعِينَ مِنْ غَيْرِ تَفَرُّقٍ، وَهَذِهِ الْآيَةُ نَظِيرُ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: ٦٠].

➥ **وَالْآيَةُ فِيهَا:** وُجُوبُ أَخْذِ الْحَذَرِ مِنَ الْعَدُوِّ بِاتِّخَاذِ جَمِيعِ الْأَسْبَابِ الْمُعِينَةِ عَلَى ذَلِكَ.

﴿وَإِنَّ مِنكُمۡ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنۡ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَالَ قَدۡ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيَّ إِذۡ لَمۡ أَكُن مَّعَهُمۡ شَهِيدٗا﴾ [النساء: ٧٢].

❁ ﴿وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لَيُبَطِّئَنَّ﴾ لَيَتَأَخَّرَنَّ عَنِ الْخُرُوجِ لِلْجِهَادِ مُتَثَاقِلًا، وَيُثَبِّطُ غَيْرَهُ، وَاللَّامُ الْأُولَى لِلِابْتِدَاءِ، وَالثَّانِيَةُ جَوَابُ قَسَمٍ تَقْدِيرُهُ: وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ أَقْسَمَ بِاللهِ لَيُبَطِّئَنَّ، وَهُمُ الْمُنَافِقُونَ.

❁ ﴿فَإِنْ أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ﴾ مِنْ شَهَادَةٍ أَوْ جِرَاحٍ ﴿قَالَ﴾ هَذَا الْمُنَافِقُ ﴿قَدْ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيدًا﴾ حَاضِرًا فِي الْمَعْرَكَةِ فَيُصِيبَنِي مَا أَصَابَهُمْ.

[١١٤] أخرجه البخاري (٥٦٧٣)، ومسلم (٢٨١٦).

﴿وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ ٱللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُنۢ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُۥ مَوَدَّةٌ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٧٣].

❁ ﴿وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِنَ اللهِ﴾ نَصْرٌ وَغَنِيمَةٌ وَظَفَرٌ ﴿لَيَقُولَنَّ﴾ هَذَا الْمُنَافِقُ ﴿كَأَنْ لَمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ﴾ صَدَاقَةٌ وَمَعْرِفَةٌ: ﴿يَا لَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ﴾ فِي تِلْكَ الْمَعْرَكَةِ ﴿فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾؛ أي: فَأَظْفَرَ وَأُصِيبَ مِنَ الْغَنَائِمِ بِمِثْلِ مَا ظَفِرُوا بِهِ.

﴿۞ فَلْيُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَمَن يُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٧٤].

❁ ﴿فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللهِ﴾ لِإِعْلَاءِ كَلِمَةِ اللهِ.

➥ **كَمَا ثَبَتَ مِنْ حَدِيثِ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- قَالَ:** قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ قَاتَلَ لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللهِ هِيَ الْعُلْيَا، فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللهِ»،[١١٥] وَكَلِمَةُ اللهِ هِيَ شَرْعُهُ وَحُكْمُهُ وَدِينُهُ كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَكَلِمَةُ اللهِ هِيَ الْعُلْيَا﴾ [التوبة: ٤٠]، وَهِيَ كَلِمَةُ التَّوْحِيدِ.

➥ **كَمَا قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُما-:** (هِيَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ).[١١٦]

❁ ﴿الَّذِينَ يَشْرُونَ﴾ يَبِيعُونَ ﴿الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ﴾؛ أَيْ: بِالْجَنَّةِ، ﴿وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ﴾ يَنْتَصِرُ عَلَى عَدُوِّهِ ﴿فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ﴾ فِي كِلَتَا الْحَالَيْنِ؛ الشَّهَادَةِ أَوْ النَّصْرِ ﴿أَجْرًا عَظِيمًا﴾ الْجَنَّةَ.

➥ **لِمَا ثَبَتَ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- قَالَ:** قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «تَضَمَّنَ اللهُ لِمَنْ خَرَجَ فِي سَبِيلِهِ لَا يُخْرِجُهُ إِلَّا جِهَادًا فِي سَبِيلِي، وَإِيمَانًا بِي، وَتَصْدِيقًا بِرُسُلِي، فَهُوَ عَلَيَّ ضَامِنٌ أَنْ أُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ أَوْ أَرْجِعَهُ إِلَى مَسْكَنِهِ الَّذِي خَرَجَ مِنْهُ نَائِلًا مَا نَالَ مِنْ أَجْرٍ أَوْ غَنِيمَةٍ».[١١٧]

---

[١١٥] أخرجه البخاري (٣١٢٦) واللفظُ له، ومسلم (١٩٠٤).
[١١٦] أخرجه ابن جرير (١١/ص: ٤٦٧)، وابن أبي حاتم (٦/ص: ١٨٠١)، والبيهقي في الأسماء والصفات (٢٠٦).
[١١٧] أخرجه البخاري (٣٦)، ومسلم (١٨٧٦) واللفظ له.

﴿وَمَا لَكُمْ لا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا﴾ [النساء: ٧٥].

فِي هَذِهِ الْآيَةِ أَمَرَ اللهُ تَعَالَى بِالْقِتَالِ، وَحَرَّضَ عَلَيْهِ لِأَجْلِ الْمُسْتَضْعَفِينَ بِمَكَّةَ فَقَالَ: ﴿وَمَا﴾ مُبْتَدَأٌ وَ﴿لَكُمْ﴾ خَبَرُ ﴿لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ﴾؛ أَيْ: وَمَا الَّذِي يَمْنَعُكُمْ مِنَ الْقِتَالِ فِي سَبِيلِ اللهِ ﴿وَالْمُسْتَضْعَفِينَ﴾:

١. مَجْرُورٌ بِالْعَطْفِ عَلَى لَفْظِ الْجَلَالَةِ ﴿اللهِ﴾، وَالتَّقْدِيرُ: فِي سَبِيلِ اللهِ وَفِي سَبِيلِ الْمُسْتَضْعَفِينَ.

٢. أَوْ يُقَالُ: مَجْرُورٌ بِالْعَطْفِ عَلَى ﴿سَبِيلِ﴾ وَالتَّقْدِيرُ: فِي سَبِيلِ اللهِ وَفِي الْمُسْتَضْعَفِينَ.

٣. أَوْ مَنْصُوبٌ عَلَى الِاخْتِصَاصِ وَتَقْدِيرُهُ: وَأَخُصُّ مِنْ سَبِيلِ اللهِ خَلَاصَ الْمُسْتَضْعَفِينَ؛ لِأَنَّ سَبِيلَ اللهِ عَامٌّ فِي كُلِّ خَيْرٍ، وَخَلَاصُ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ مِنْ أَيْدِي الْكُفَّارِ مِنْ أَعْظَمِ الْخَيْرِ، وَالْمُسْتَضْعَفُونَ هُمُ الْمُسْلِمُونَ الضَّعَفَةُ الَّذِينَ أَسْلَمُوا بِمَكَّةَ، وَصَدَّهُمُ الْمُشْرِكُونَ عَنِ الْهِجْرَةِ وَأَذَلُّوهُمْ وَآذَوْهُمْ وَامْتَحَنُوهُمْ فِي دِينِهِمْ، وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَدْعُو لَهُمْ فَيَقُولُ: «اللَّهُمَّ أَنْجِ عَيَّاشَ بْنَ أَبِي رَبِيعَةَ، اللَّهُمَّ أَنْجِ سَلَمَةَ بْنَ هِشَامٍ، اللَّهُمَّ أَنْجِ الْوَلِيدَ بْنَ الْوَلِيدِ، اللَّهُمَّ أَنْجِ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، اللَّهُمَّ اشْدُدْ وَطْأَتَكَ على مُضَرَ، اللَّهُمَّ اجْعَلْهَا سِنِينَ كسِنِي يوسُفَ».[١١٨]

❁ ﴿مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا-: (كُنْتُ أَنَا وَأُمِّي مِنَ الْمُسْتَضْعَفِينَ)[١١٩]، وَفِي لَفْظٍ آخَرَ: (كُنْت أَنَا وَأُمِّي مِنَ الْمُسْتَضْعَفِينَ، أَنَا مِنَ الْوِلْدَانِ وَأُمِّي مِنَ النِّسَاءِ).[١٢٠]

[١١٨] أخرجه البخاري (١٠٠٦)، ومسلم (٦٧٥) باختلاف يسير.
[١١٩] أخرجه البخاري (٤٥٨٧).
[١٢٠] أخرجه البخاري (١٣٥٧).

❁ ﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ﴾ دَاعِينَ يَا ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ﴾ مَكَّةَ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ﴾ [محمد: ١٣]، وَهِيَ: تَتَنَاوَلُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْأَسْرَى وَحَوَاضِرَ الشِّرْكِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ كَمَا قَالَ الْعُلَمَاءُ.[١٢١]

❁ ﴿الظَّالِمِ﴾ اسْمُ فَاعِلٍ، وَهُوَ نَعْتٌ سَبَبِيٌّ لِلْقَرْيَةِ ﴿أَهْلُهَا﴾؛ أَيْ: ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ بِوُقُوعِهِمْ فِي الشِّرْكِ بِاللهِ، وَظَلَمُوا الْمُؤْمِنِينَ بِتَعْذِيبِهِمْ وَإِذْلَالِهِمْ وَصَدِّهِمْ عَنِ الْهِجْرَةِ، ﴿وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا﴾ يَتَوَلَّى أُمُورَنَا وَمَصَالِحَنَا، ﴿وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا﴾ يَمْنَعُنَا مِنْهُمْ، وَقَدْ اسْتَجَابَ اللهُ دُعَاءَهُمْ فَيَسَّرَ لِبَعْضِهِمُ الْهِجْرَةَ إِلَى الْمَدِينَةِ، وَبَقِيَ بَعْضُهُمْ إِلَى أَنْ فُتِحَتْ مَكَّةُ عَلَى يَدِ النَّبِيِّ ﷺ.

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓاْ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٧٦].

❁ ﴿الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ﴾ الشَّيْطَانُ، بِدَلِيلِ: ﴿فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ﴾؛ أَيْ: الْكُفَّارَ ﴿إِنَّ كَيْدَ﴾ مَكْرَ ﴿الشَّيْطَانِ﴾ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴿كَانَ ضَعِيفًا﴾ وَاهِيًا لَا يُقَاوِمُ كَيْدَ اللهِ بِالْكَافِرِينَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا (١٥) وَأَكِيدُ كَيْدًا (١٦) فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا (١٧)﴾ [الطارق: ١٥-١٧].

➥ وَفَائِدَةُ إِدْخَالِ (كَانَ) فِي قَوْلِهِ: ﴿كَانَ ضَعِيفًا﴾ لِلتَّأْكِيدِ عَلَى ضَعْفِ كَيْدِهِ، يَعْنِي أَنَّهُ مُنْذُ كَانَ، كَانَ مَوْصُوفًا بِالضَّعْفِ وَالذِّلَّةِ، فَجِبِلَّتُهُ وَطَبْعُهُ الضَّعْفُ، وَلِهَذَا لَمَّا رَأَى الْمَلَائِكَةَ يَوْمَ بَدْرٍ خَافَ وَهَرَبَ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللهَ وَاللهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الأنفال: ٤٨]، وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: "إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ، أَدْبَرَ الشَّيْطَانُ وَلَهُ ضُرَاطٌ"[١٢٢]، فَهَذَا يَدُلُّ عَلَى ضَعْفِهِ الشَّدِيدِ وَأَنَّهُ لَا يَثْبُتُ أَمَامَ الْحَقِّ.

---

[١٢١] تفسير ابن عطية (٢/ص: ٧٩).
[١٢٢] أخرجه البخاري (٦٠٨) واللفظ له، ومسلم (٣٨٩).

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓاْ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُواْ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ [النساء: ٧٧].

➥ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا-: "أَنَّ عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ عَوْفٍ وَأَصْحَابًا لَهُ أَتَوُا النَّبِيَّ ﷺ بِمَكَّةَ، فَقَالُوا: يَا نَبِيَّ اللهِ، كُنَّا فِي عِزٍّ وَنَحْنُ مُشْرِكُونَ، فَلَمَّا آمَنَّا صِرْنَا أَذِلَّةً: قَالَ: «إِنِّي أُمِرْتُ بِالْعَفْوِ فَلَا تُقَاتِلُوا الْقَوْمَ». فَلَمَّا حَوَّلَهُ اللهُ إِلَى الْمَدِينَةِ أَمَرَهُ بِالْقِتَالِ، فَكَفُّوا. فَأَنْزَلَ اللهُ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً﴾" الآية.[١٢٣]

❁ ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ﴾ قَبْلَ الْإِذْنِ بِالْجِهَادِ ﴿كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ﴾ عَنِ الْقِتَالِ لَمَّا طَلَبُوهُ بِمَكَّةَ لِأَذَى الْكُفَّارِ لَهُمْ وَهُمْ قَلِيلُونَ ضُعَفَاءُ، ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ﴾ بَعْدَ هِجْرَتِهِمْ إِلَى الْمَدِينَةِ وَصَارَ لِلْإِسْلَامِ قُوَّةٌ وَمَنَعَةٌ وَأُمِرُوا بِالْخُرُوجِ إِلَى بَدْرٍ.

❁ ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ﴾ الْكُفَّارَ ﴿كَخَشْيَةِ اللهِ﴾ كَخَشْيَتِهِمْ للهِ ﴿أَوْ أَشَدَّ﴾ أَوْ أَعْظَمَ ﴿خَشْيَةً وَقَالُوا﴾ جَزَعًا مِنَ الْمَوْتِ وَحِرْصًا عَلَى الْحَيَاةِ ﴿رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا﴾ هَلَّا ﴿أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا﴾؛ أَيْ: التَّمَتُّعُ بِلَذَّاتِ الدُّنْيَا وَمَنْفَعَتِهَا ﴿قَلِيلٌ﴾ سَرِيعُ الْفَنَاءِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [التوبة: ٣٨]، وَقَالَ: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ﴾ [الرعد: ٢٦].

❁ ﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنْ اتَّقَى﴾ اللهَ بِفِعْلِ أَوَامِرِهِ وَاجْتِنَابِ نَوَاهِيهِ، ﴿وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ وَهُوَ الْخَيْطُ الَّذِي يَكُونُ فِي شِقِّ نَوَاةِ التَّمْرِ، وَفِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ حَثٌّ لَهُمْ عَلَى فِعْلِ الطَّاعَاتِ، وَتَحْرِيضٌ لَهُمْ عَلَى الْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللهِ.

[١٢٣] أخرجه النسائي في السنن الكبرى (١١١١٢)، والحاكم (٢٣٧٧)، وقال: صحيح على شرط البخاري.

➥ وَهَذِهِ الْآيَةُ تَدُلُّ عَلَى الْمَرْحَلَةِ الْأُولَى مِنْ مَرَاحِلِ تَشْرِيعِ الْجِهَادِ، وَهِيَ الْأَمْرُ بِالْكَفِّ عَنِ الْقِتَالِ وَالْحِرْصِ عَلَى إِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ وَسَائِرِ الْعِبَادَاتِ، بَلْ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ أُمِرُوا بِالْعَفْوِ وَالصَّفْحِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٠٩) وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللهِ إِنَّ اللهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [البقرة: ١٠٩-١١٠].

➥ وَكَمَا قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فِي سَبَبِ نُزُولِ هَذِهِ الْآيَةِ: «إِنِّي أُمِرْت بِالْعَفْوِ فَلَا تُقَاتِلُوا الْقَوْمَ»،[١٢٤] فَعَلَى الْمُؤْمِنِ إِذَا لَمْ يَتَمَكَّنْ مِنَ الْجِهَادِ وَلَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يُجَاهِدَ فِي سَبِيلِ اللهِ أَنْ يَجْتَهِدَ بِالْعِبَادَةِ وَخَاصَّةً الصَّلَاةَ.

﴿أَيْنَمَا تَكُونُواْ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ۗ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ ۚ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٧٨].

❁ ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ﴾ حُصُونٍ أَوْ قُصُورٍ ﴿مُشَيَّدَةٍ﴾ مُرْتَفِعَةٍ مَنِيعَةٍ عَالِيَةٍ بَعِيدَةٍ عَنْ سَاحَةِ الْقِتَالِ، ﴿وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ﴾ نِعْمَةٌ مِنْ مَطَرٍ وَخِصْبٍ وَسَعَةِ رِزْقٍ وَعَافِيَةٍ وَنَحْوِ ذَلِكَ ﴿يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللهِ﴾ وَأَكْرَمَنَا اللهُ تَعَالَى بِهَا، فَيَنْسُبُونَهَا إِلَى اللهِ تَعَالَى، ﴿وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ﴾ جَدْبٌ وَبَلَاءٌ وَقَحْطٌ كَمَا حَصَلَ لَهُمْ عِنْدَ قُدُومِ النَّبِيِّ ﷺ الْمَدِينَةَ ﴿يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ﴾؛ أَيْ: بِسَبَبِكَ يَا مُحَمَّدُ ﴿قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللهِ﴾؛ أَيْ: كُلٌّ مِنَ الْحَسَنَةِ وَالسَّيِّئَةِ وَالْخَيْرِ وَالشَّرِّ بِقَضَاءِ اللهِ وَقَدَرِهِ.

[١٢٤] أخرجه النسائي في السنن الكبرى (١١١١٢)، والحاكم (٢٣٧٧) وقال: صحيح على شرط البخاري.

➥ وَنَظِيرُ هَذِهِ الْآيَةِ قَوْلُ اللهِ تعالى فِي فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ مَعَ مُوسَى –عَلَيْهِ السَّلامُ–: ﴿وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ﴾ [الأعراف: ١٣١]، وقَوْلُه تَعَالَى فِي قَوْمِ صَالِحٍ مَعَ صَالِحٍ –عَلَيْهِ السَّلامُ–: ﴿قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ﴾ الآيَةَ [النمل: ٤٧]، وَقَوْلُ أَصْحَابِ الْقَرْيَةِ لِلرُّسُلِ الَّذِينَ أُرْسِلُوا إِلَيْهِمْ: ﴿قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِنْ لَمْ تَنتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ﴾ [يس: ١٨].

❁ ﴿فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ﴾ الصَّادِرِ مِنْهُمْ هَذَا الْقَوْلَ ﴿لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ﴾ يَفْهَمُونَ ﴿حَدِيثًا﴾، قَوْلُهُ: ﴿حَدِيثًا﴾ نَكِرَةٌ فِي سِيَاقِ النَّفْيِ فَيَعُمُّ؛ أَيْ: لَا يَكَادُونَ يَفْهَمُونَ أَيَّ حَدِيثٍ بِالْكُلِّيَّةِ، **وَدَلِيلُ ذَلِكَ**: جَهْلُهُمْ وَعَدَمُ فَهْمِهِمْ أَنَّ اللهَ تَعَالَى هُوَ الَّذِي بِيَدِهِ الْحَسَنَاتُ وَالسَّيِّئَاتُ وَالْخَيْرُ وَالشَّرُّ، وَهُوَ جَلَّ وَعَلَا الْقَابِضُ وَالْبَاسِطُ وَالْمَانِعُ وَالْمُعْطِي، وَكُلُّ ذَلِكَ صَادِرٌ عَنْ حِكْمَةٍ.

❁ وَفِي الْآيَةِ فَوَائِدُ:

١. **مِنْهَا**: أَنَّهُ لَا مَفَرَّ مِنَ الْمَوْتِ، وَلَا يَنْفَعُ حَذَرٌ مِنْ قَدَرٍ، فَلَا يَخَافُ الْمُؤْمِنُ الْقِتَالَ خَوْفَ الْمَوْتِ، وَاللهُ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ﴾ [الجمعة: ٨]، وَمَا أَحْسَنَ قَوْلَ زُهَيْرِ بْنِ أَبِي سُلْمَى:

وَمَنْ هَابَ أَسْبَابَ الْمَنَايَا يَنَلْنَهُ ... وَلَوْ رَامَ أَسْبَابَ السَّمَاءِ بِسُلَّمِ [١٢٥]

٢. **وَمِنْهَا**: أَنَّ الْحَسَنَةَ وَالسَّيِّئَةَ وَالْخَيْرَ وَالشَّرَّ كُلَّهَا مِنْ عِنْدِ اللهِ وَبِقَضَائِهِ وَقَدَرِهِ، وَيَنْبَغِي أَنْ يُعْلَمَ أَنَّهُ لَيْسَ مِنَ الْأَدَبِ مَعَ اللهِ تَعَالَى نِسْبَةُ الشَّرِّ إِلَيْهِ، وَإِنْ كَانَ هُوَ تَعَالَى خَالِقَهُ وَمُوجِدَهُ كَمَا فِي حَدِيثِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ –رَضِيَ اللهُ عَنْهُ– الطَّوِيلِ فِي دُعَاءِ الِاسْتِفْتَاحِ وَفِيهِ: (لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ وَالْخَيْرُ كُلُّهُ فِي يَدَيْكَ وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ)[١٢٦]، فَنَفَى النَّبِيُّ ﷺ نِسْبَةَ الشَّرِّ إِلَى اللهِ تَعَالَى تَأَدُّبًا.

---

[١٢٥] جمهرة أشعار العرب، ص: ١٧٤.
[١٢٦] أخرجه مسلم (٧٧١).

➥ وَكَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَى عَلَى لِسَانِ إِبْرَاهِيمَ -عَلَيْهِ السَّلَامُ-: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ [الشعراء: ٨٠]، فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ﴾ وَلَمْ يَقُلْ "وَإِذَا أَمْرَضَنِي". وَقَالَ اللهُ تَعَالَى عَلَى لِسَانِ الْجِنِّ: ﴿وَأَنَّا لا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ [الجن: ١٠]، فَلَمَّا تَكَلَّمَت عَنِ الشَّرِّ بَنَتْ فِعْلَ الْإِرَادَةِ لِلْمَفْعُولِ، وَلَمَّا تَكَلَّمَتْ عَنِ الرُّشْدِ جَعَلَتْ فِعْلَ الْإِرَادَةِ مَنْسُوبًا للهِ تَعَالَى بِالْبِنَاءِ لِلْفَاعِلِ وَهُوَ "رَبُّهُمْ"، وَمَنْ وَقَعَ مِنْهُ الشَّرُّ فَلَيْسَ مَعْنَى ذَلِكَ أَنَّ اللهَ تَعَالَى حَمَلَهُ عَلَيْهِ وَرَضِيَهُ لَهُ، وَإِنَّمَا وَقَعَ ذَلِكَ بِاخْتِيَارِ الْعَبْدِ وَكَسْبِهِ.

➥ **وَلِهَذَا مَذْهَبُ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ**: أَنَّ أَفْعَالَ الْعِبَادِ تُنْسَبُ إِلَى اللهِ تَعَالَى خَلْقًا وَإِيجَادًا وَتَقْدِيرًا، وَتُنْسَبُ إِلَى الْعِبَادِ تَحْصِيلًا وَاقْتِرَافًا وَاكْتِسَابًا.

❁ **وَمِنْ فَوَائِدِ الْآيَةِ**: أَنَّ الرُّسُلَ -عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- لَا يَكُونُونَ سَبَبًا لِشَرٍّ يَحْدُثُ أَبَدًا، إِنَّمَا سَبَبُ ذَلِكَ الذُّنُوبُ وَالْمَعَاصِي، فَيَنْبَغِي لِلْعَبْدِ أَنْ يَعْرِفَ أَنَّ مَا يَقَعُ لَهُ مِنْ جَائِحَةٍ وَمُصِيبَةٍ وَكَارِثَةٍ كَنَقْصٍ فِي الثَّمَرَاتِ أَوْ ارْتِفَاعٍ فِي الْأَسْعَارِ وَنَحْوِ ذَلِكَ أَنَّ ذَلِكَ كُلَّهُ بِسَبَبِ ذُنُوبِهِ كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي الْآيَةِ التَّالِيَةِ:

﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ وَأَرْسَلْنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٧٩].

❁ ﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللهِ﴾ فَبِتَوْفِيقِ اللهِ وَكَرَمِهِ وُجُودِهِ وَتَفَضُّلِهِ عَلَيْكَ، ﴿وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ﴾؛ أَيْ: مِنْ مُصِيبَةٍ ﴿فَمِنْ نَفْسِكَ﴾؛ أَيْ: فَبِسَبَبِ ذُنُوبِكَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٠].

➥ **وَوَرَدَ بِإِسْنَادٍ حَسَنٍ عَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- مَرْفُوعًا**: (لَا يُصِيبُ عَبْدًا نَكْبَةٌ فَمَا فَوْقَهَا أَوْ دُونَهَا إِلَّا بِذَنْبٍ وَمَا يَعْفُو اللهُ عَنْهُ أَكْثَرُ).[١٢٧]

[١٢٧] أخرجه الترمذي (٣٢٥٢)، وقال: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه.

❁ ﴿وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا﴾ وَهَذَا فِيهِ بَيَانُ عُمُومِ رِسَالَتِهِ ﷺ إِلَى جَمِيعِ النَّاسِ، وَمِثْلُهُ قَوْلُهُ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ﴾ [سبأ: ٢٨]، وَقَوْلُهُ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨].

❁ ﴿وَكَفَى بِاللهِ شَهِيدًا﴾ عَلَى رِسَالَتِك، وَهِيَ كَافِيَةٌ عَنْ كُلِّ شَهَادَةٍ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ [الأنعام: ١٩]، وَلَا تَعَارُضَ بَيْنَ هَذِهِ الْآيَةِ وَالَّتِي قَبْلَهَا؛ لِأَنَّ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللهِ﴾ رُجُوعٌ لِلْحَقِيقَةِ، وَأَمَّا قَوْله تَعَالَى: ﴿مَا أَصَابَك مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللهِ﴾ تَفَضُّلًا، ﴿وَمَا أَصَابَك مِنْ سَيِّئَةٍ﴾ فَبِسَبَبِ ذُنُوبِك، وَتَمَسَّكَ بِهَا الْقَدَرِيَّةُ فِي قَوْلِهِمْ بِأَنَّ الْعَبْدَ هُوَ الَّذِي يَخْلُقُ فِعْلَ نَفْسِهِ، وَقَوْلُهُمْ مَرْدُودٌ؛ لِأَنَّ الْمُرَادَ مِنَ الْآيَةِ مَا ذَكَرْنَا، وَاللهُ أَعْلَمُ.

﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظٗا﴾ [النساء: ٨٠].

❁ ﴿مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ﴾ يَعْنِي: إِنَّ طَاعَتَكُمْ لِمُحَمَّدٍ ﷺ طَاعَةٌ للهِ تعالى؛ لِأَنَّهُ دَاعٍ إِلَى اللهِ وَمُبَلِّغٌ عَنْهُ، وَهُوَ لَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى.

➥ وَقَدْ ثَبَتَ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ أَطَاعَنِي فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ، وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ عَصَى اللهَ، وَمَنْ أَطَاعَ أَمِيرِي فَقَدْ أَطَاعَنِي، وَمَنْ عَصَى أَمِيرِي فَقَدْ عَصَانِي».[١٢٨]

❁ ﴿وَمَنْ تَوَلَّى﴾ عَنْ طَاعَتِهِ ﴿فَمَا أَرْسَلْنَاك عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾؛ أَيْ: حَافِظًا لِأَعْمَالِهِمْ وَمُحَاسِبًا عَلَيْهَا، إِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ [الرعد: ٤٠]، وقَوْله تَعَالَى: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ الْمُبِينُ﴾ [النحل: ٨٢].

[١٢٨] أخرجه البخاري (٧١٣٧)، ومسلم (١٨٣٥).

﴿وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا۟ مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ ٱلَّذِى تَقُولُ ۖ وَٱللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ ۖ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾ [النساء: ٨١].

❁ ﴿وَيَقُولُونَ﴾؛ أَيْ: الْمُنَافِقُونَ إِذَا جَاءُوكَ وَأَمَرْتَهُمْ بِأَمْرٍ، ﴿طَاعَةٌ﴾ خَبَرٌ لِمُبْتَدَأٍ مَحْذُوفٍ تَقْدِيرُهُ: أَمْرُنَا طَاعَةٌ، فَيُظْهِرُونَ طَاعَتَهُمْ لَك إِذَا كَانُوا عِنْدَك ﴿فَإِذَا بَرَزُوا﴾ خَرَجُوا ﴿مِنْ عِنْدِك بَيَّتَ﴾ دَبَّرَ بِلَيْلٍ ﴿طَائِفَةٌ مِنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ﴾؛ أَيْ: خِلَافَ الَّذِي قَالُوهُ وَأَظْهَرُوهُ لَك مِنَ الطَّاعَةِ.

❁ ﴿وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ﴾؛ أَيْ: وَاللَّهُ يَحْفَظُ الَّذِي يُبَيِّتُونَهُ وَيُثَبِّتُهُ عَلَيْهِمْ لِيُجَازُوا بِهِ، ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾؛ أَيْ: فَتَوَلَّ عَنْهُمْ وَلَا تَهْتَمَّ بِهِمْ، ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾؛ أَيْ: فَوِّضْ أَمْرَكَ إِلَيْهِ، وَثِقْ بِهِ فِي جَمِيعِ أُمُورِكَ، ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ لِمَنْ تَوَكَّلَ عَلَيْهِ وَالْتَجَأَ إِلَيْهِ، كَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق: ٣].

﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢].

❁ ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ﴾ يَتَأَمَّلُونَ وَيَتَفَكَّرُونَ ﴿الْقُرْآنَ﴾ وَمَا فِيهِ مِنَ الْمَعَانِي الْبَدِيعَةِ ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ) كَمَا زَعَمَ الْكُفَّارُ إِذْ ﴿قَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الفرقان: ٥]، ﴿لَوَجَدُوا فِيهِ﴾؛ أَيْ: فِي مَعَانِيهِ وَأَخْبَارِهِ وَأُسْلُوبِهِ وَنَظْمِهِ ﴿اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾؛ أَيْ: تَفَاوُتًا وَتَنَاقُضًا كَثِيرًا، وَقَدْ دَلَّتْ هَذِهِ الْآيَةُ عَلَى وُجُوبِ تَدَبُّرِ الْقُرْآنِ لِيُعْرَفَ مَعْنَاهُ وَيُعْمَلَ بِمَا فِيهِ.

﴿وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا۟ بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ۗ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ٨٣].

➥ **وسببُ نزولِ هذه الآيةِ:** ما ثبت مِنْ حديثِ عمرَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- قال: "**كانَتْ عائِشَةُ بِنْتُ أبِي بَكْرٍ وحَفْصَةُ تَظاهَرانِ عَلى سائِرِ نِساءِ النَّبِيِّ ﷺ، فَقُلْتُ: يا رَسُولَ اللهِ، أطَلَّقْتَهُنَّ؟ قالَ: «لا»، قُلْتُ: يا رَسُولَ اللهِ، إنِّي دَخَلْتُ المَسْجِدَ والمُسْلِمُونَ يَنْكُتُونَ بِالحَصى، يَقُولُونَ: طَلَّقَ رَسُولُ اللهِ ﷺ نِساءَهُ! أفَأنْزِلُ فَأُخْبِرَهُمْ أنَّكَ لَمْ تُطَلِّقْهُنَّ؟ قالَ: «نَعَمْ، إنْ شِئْتَ»، فَلَمْ أزَلْ أُحَدِّثُهُ حَتّى تَحَسَّرَ**

الغَضَبُ عَنْ وجْهِهِ، وحَتّى كَشَرَ فَضَحِكَ، وكانَ مِن أحْسَنِ النّاسِ ثَغْرًا، ثُمَّ نَزَلَ نَبِيُّ اللهِ ﷺ ونَزَلْتُ، فَنَزَلْتُ أتَشَبَّثُ بِالجِذْعِ، ونَزَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ كَأنَّما يَمْشِي عَلى الأرْضِ ما يَمَسُّهُ بِيَدِهِ، فَقُلْتُ: يا رَسُولَ اللهِ، إنَّما كُنْتَ في الغُرْفَةِ تِسْعَةً وعِشْرِينَ؟ قالَ: «إنَّ الشَّهْرَ يَكُونُ تِسْعًا وعِشْرِينَ»، فَقُمْتُ عَلى بابِ المَسْجِدِ، فَنادَيْتُ بأعْلى صَوْتِي: لَمْ يُطَلِّقْ رَسُولُ اللهِ ﷺ نِساءَهُ! ونَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ: ﴿وإذا جاءَهُمْ أمْرٌ مِنَ الأمْنِ أوِ الخَوْفِ أذاعُوا بِهِ ولَوْ رَدُّوهُ إلى الرَّسُولِ وإلى أُولِي الأمْرِ مِنهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنهُمْ﴾، فَكُنْتُ أنا اسْتَنْبَطْتُ ذَلِكَ الأمْرَ، وأنْزَلَ اللهُ عزّ وجل آيَةَ التَّخْيِيرِ"[١٢٩].

❁ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ﴾؛ أَيْ: إِذَا سَمِعُوا خَبَرًا عَنْ سَرَايَا الْمُسْلِمِينَ ﴿مِنَ الْأَمْنِ﴾؛ أَيْ: الظَّفَرِ الَّذِي يُوجِبُ أَمْنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿أَوِ الْخَوْفِ﴾ وَهُوَ مَا يُوجِبُ خَوْفَ الْمُسْلِمِينَ، كَاشْتِدَادِ الْعَدُوِّ عَلَيْهِمْ أَوْ هَزِيمَتِهِمْ ﴿أَذَاعُوا بِهِ﴾؛ أَيْ: بَادَرُوا بِإِذَاعَتِهِ وَإِفْشَائِهِ قَبْلَ أَنْ يَقِفُوا عَلَى حَقِيقَتِهِ، ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ﴾؛ أَيْ: الْخَبَرَ ﴿إِلَى الرَّسُولِ﴾ حَتَّى يَكُونَ هُوَ الَّذِي يُخْبِرُ بِهِ ﴿وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ﴾ وَهُمْ أَهْلُ الْعِلْمِ وَالْبَصِيرَةِ مِمَّنْ لَدَيْهِمُ الْقُدْرَةُ عَلَى تَوْضِيحِ وَبَيَانِ حَقِيقَةِ هَذَا الْأَمْرِ، كَحَالِ عُمَرَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ- حِينَ قَالَ كما في الْحَدِيثِ السَّابِقِ: "فَكُنْتُ أَنَا اسْتَنْبَطْتُ ذَلِكَ الْأَمْرَ".

❁ ﴿لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾؛ أَيْ: لَعَلِمَ اسْتِخْرَاجَ حَقِيقَتِهِ أَهْلُ الْعِلْمِ وَالْبَصِيرَةِ؛ لِأَنَّ لَدَيْهِمْ نَظْرَةً ثَاقِبَةً، فَيَضَعُونَ الْأُمُورَ فِي مَوَاضِعِهَا، وَيُوقِعُونَهَا فِي مَوَاقِعِهَا، وَيَعْرِفُونَ مَا يَصْلُحُ إِذَاعَتُهُ وَإِفْشَاؤُهُ وَمَا لَا يَصْلُحُ، ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ﴾ بِإِنْزَالِهِ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ وَإِرْسَالِهِ الرَّسُولَ ﷺ ﴿لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ مِنْكُمْ.

➥ وَفِي الْآيَةِ: الْإِنْكَارُ عَلَى مَنْ يُبَادِرُ إِلَى إِذَاعَةِ وَإِفْشَاءِ الْأَخْبَارِ قَبْلَ أَنْ يَتَحَقَّقَ مِنْهَا، وَقَدْ تَكُونُ غَيْرَ صَحِيحَةٍ، وَقَدْ تَكُونُ صَحِيحَةً لَكِنْ يَتَرَتَّبُ عَلَى إِذَاعَتِهَا وَإِفْشَائِهَا مَفَاسِدُ عَظِيمَةٌ.

➥ وَقَدْ وَرَدَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «كَفَى بِالْمَرْءِ كَذِبًا أَنْ يُحَدِّثَ بِكُلِّ مَا سَمِعَ»[١٣٠] وَفِي لَفْظٍ: «كَفَى بِالْمَرْءِ إِثْمًا أَنْ يُحَدِّثَ بِكُلِّ مَا سَمِعَ»[١٣١].

---

[١٢٩] أخرجه مسلم (١٤٧٩).
[١٣٠] أخرجه مسلم في مقدمة صحيحه (٥)،
[١٣١] أخرجه أبو داود في سننه (٤٩٩٢)، وابن حبان في صحيحه (٣٠).

➥ وعَنِ الْمُغِيرَةِ بْنِ شُعْبَةَ: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ نَهَى عَنْ قِيلَ وَقَالَ؛[١٣٢] أَيْ: "الَّذِي يُكْثِرُ مِنَ الْحَدِيثِ عَمَّا يَقُولُ النَّاسُ مِنْ غَيْرِ تَثَبُّتٍ، وَلَا تَدَبُّرٍ، وَلَا تَبَيُّنٍ"[١٣٣]

➥ وَعَن ابْنِ مَسْعُودٍ بِإِسْنَادٍ صَحِيحٍ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «بِئْسَ مَطِيَّةُ الرَّجُلِ زَعَمُوا»[١٣٤]، وَقَالَ عُمَرُ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ-: "إِيَّاكُم والفِتَنَ، فإنَّ وَقْعَ اللسانِ فيها مِثْلُ وَقْعِ السيفِ"[١٣٥].

❁ فَالْمَنْهَجُ الشَّرْعِيُّ فِي التَّعَامُلِ مَعَ الْأَخْبَارِ مَا يَلِي:

١. **التَّأَنِّي وَالتَّرَوِّي**، فَعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِك -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «التَّأَنِّي مِنَ اللهِ، وَالْعَجَلَةُ مِنَ الشَّيْطَانِ»[١٣٦]. وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِأَشَجِّ عَبْدِ الْقَيْسِ: «إِنَّ فِيكَ لَخَصْلَتَيْنِ يُحِبُّهُمَا اللهُ: الْحِلْمُ وَالْأَنَاةُ»[١٣٧].

٢. **التَّثَبُّتُ فِي الْأَخْبَارِ** امْتِثَالًا لِقَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ﴾ [الحجرات: ٦]، وَفِي قِرَاءَةٍ أُخْرَى (فَتَثَبَّتُوا)[١٣٨].

➥ قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ -رَحِمَهُ اللهُ-: "الْمُؤْمِنُ وَقَّافٌ مُتَبَيِّنٌ"[١٣٩].

٣. **حُسْنُ الظَّنِّ وَمُحَاوَلَةُ الْتِمَاسِ الْعُذْرِ قَدْرَ الْإِمْكَانِ**، وَحَمْلُ الْكَلَامِ عَلَى أَحْسَنِ الْمَحَامِلِ، وَأَفْضَلِ الْمَسَالِكِ؛ لِأَنَّ الْأَصْلَ فِي الْمَرْءِ الْمُسْلِمِ بَرَاءَةُ الذِّمَّةِ وَحُسْنُ الظَّنِّ، وَخَاصَّةً الْعُلَمَاءَ وَالدُّعَاةَ وَطُلَّابَ الْعِلْمِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞۖ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغۡتَب بَّعۡضُكُم بَعۡضًاۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمۡ أَن يَأۡكُلَ لَحۡمَ أَخِيهِ مَيۡتٗا فَكَرِهۡتُمُوهُۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٞ رَّحِيمٞ﴾ [الحجرات: ١٢].

---

[١٣٢] أخرجه البخاري (٧٢٩٢)، ومسلم (٥٩٣).
[١٣٣] تفسير ابن كثير (٢/ص: ٣٦٦).
[١٣٤] أخرجه أبو داود (٤٩٧٢).
[١٣٥] أخرجه ابن ماجه (٣٩٦٨)، ونعيم بن حماد في الفتن (٣٥١)، وابن عدي في الكامل في الضعفاء (٦/ص: ١٧٧).
[١٣٦] أخرجه أبو يعلى في مسنده (٤٢٥٦)، والخرائطي في مكارم الأخلاق (٦٨٦)، والبيهقي في السنن الكبرى (٢٠٢٩٦)، وإسناده جيد.
[١٣٧] أخرجه مسلم (١٧، ١٨).
[١٣٨] وهي قراءة حمزة والكسائي وخلف البزار.
[١٣٩] مجموع الفتاوى لابن تيمية (١٠/ص: ٣٨٢).

➥ وَقَدْ عَاتَبَ اللهُ تَعَالَى الَّذِينَ خَاضُوا بِشَائِعَةِ الْإِفْكِ فَقَالَ: ﴿لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا﴾ [النور: ١٢]، وَكَانَ لِأَبِي أَيُّوبَ الْأَنْصَارِيِّ وَزَوْجَتِهِ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا- مَوْقِفًا عَظِيمًا بَيَّنَا فِيهِ حُسْنَ الظَّنِّ بِعَائِشَةَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهَا-[١٤٠].

وَمِمَّا يُعِينُ عَلَى حُسْنِ الظَّنِّ بِالْمُسْلِمِينَ: سَلَامَةُ الصَّدْرِ مِنَ الْحِقْدِ وَالْغِلِّ وَالْبَغْضَاءِ، وَمِنْ جَمِيعِ أَمْرَاضِ الْقُلُوبِ وَأَدْوَائِهَا.

➥ **وَقَدْ وَرَدَ بِإِسْنَادٍ حَسَنٍ عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- قَالَ:** قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لَا يُبَلِّغُنِي أَحَدٌ مِنْ أَصْحَابِي عَنْ أَحَدٍ شَيْئًا، فَإِنِّي أُحِبُّ أَنْ أَخْرُجَ إِلَيْكُمْ وَأَنَا سَلِيمُ الصَّدْرِ»[١٤١].

٤. **أَنَّ الْوَاجِبَ رَدُّ هَذِهِ الْأَخْبَارِ إِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ وَالْبَصِيرَةِ وَالْعَقْلِ وَالرَّزَانَةِ؛** لِأَنَّ لَدَيْهِمُ الْقُدْرَةَ عَلَى حَقَائِقِ هَذِهِ الْأَخْبَارِ، كَمَا أَوْضَحْنَا هَذَا فِي تَفْسِيرِ الْآيَةِ، وَاللهُ تَعَالَى أَعْلَمُ.

﴿فَقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفۡسَكَۚ وَحَرِّضِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأۡسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأۡسٗا وَأَشَدُّ تَنكِيلٗا﴾ [النساء: ٨٤].

لَمَّا ذَكَرَ فِي الْآيَةِ الَّتِي قَبْلَهَا إِظْهَارَهُمُ الطَّاعَةَ لِلنَّبِيِّ ﷺ وَإِضْمَارَهُمْ خِلَافَهَا، قَالَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ: ﴿فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللهِ﴾؛ أَيْ: جَاهِدْ يَا مُحَمَّدُ لِإِعْلَاءِ كَلِمَةِ اللهِ، وَانْصُرِ الْمُسْتَضْعَفِينَ الْمُضْطَهَدِينَ بِمَكَّةَ وَلَوْ كُنْتَ وَحْدَكَ فَإِنَّكَ مَوْعُودٌ بِالنَّصْرِ.

❁ ﴿لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ﴾؛ أَيْ: لَنْ تُسْأَلَ إِلَّا عَنْ فِعْلِ نَفْسِكَ، وَلَنْ تُسْأَلَ عَنْ فِعْلِ غَيْرِكَ، ﴿وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ حُثَّهُمْ عَلَى الْجِهَادِ وَرَغِّبْهُمْ فِيهِ وَشَجِّعْهُمْ عَلَيْهِ، **وَقَدِ امْتَثَلَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مَا أَمَرَهُ رَبُّهُ فَحَثَّ عَلَى الْجِهَادِ وَرَغَّبَ فِيهِ فِي أَحَادِيثَ كَثِيرَةٍ:**

☆ **مِنْهَا:** حَدِيثُ أَنَسٍ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ وَهُوَ يُسَوِّي الصُّفُوفَ يَوْمَ بَدْرٍ: «قُومُوا إِلَى جَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ»[١٤٢].

---

[١٤٠] انظره في تفسير الطبري (١٩/ص: ١٢٩).
[١٤١] أخرجه أبو داود (٤٨٦٠)، والترمذي مطولا (٣٨٩٦) وقال: هذا حديث غريب من هذا الوجه.
[١٤٢] أخرجه مسلم (١٩٠١).

☆ وَأَيْضًا حَدِيثُ أَبِي هُرَيْرَةَ –رَضِيَ اللهُ عَنْهُ– قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّ فِي الجَنَّةِ مِائَةَ دَرَجَةٍ أَعَدَّهَا اللهُ لِلْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِ اللهِ، مَا بَيْنَ الدَّرَجَتَيْنِ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ»[١٤٣].

❁ ﴿عَسَى اللهُ أَنْ يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وَهَذَا وَعْدٌ مِنْهُ سُبْحَانَهُ، وَوَعْدُهُ كَائِنٌ لَا مَحَالَةَ، ﴿وَاللهُ أَشَدُّ﴾ أَعْظَمُ ﴿بَأْسًا﴾ مِنْهُمْ ﴿وَأَشَدُّ تَنْكِيلًا﴾ تَعْذِيبًا وَعُقُوبَةً مِنْهُمْ.

﴿مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقِيتًا﴾ [النساء: ٨٥].

❁ ﴿مَنْ يَشْفَعْ﴾ بَيْنَ النَّاسِ ﴿شَفَاعَةً حَسَنَةً﴾ مُوَافِقَةً لِلشَّرْعِ ﴿يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا﴾ مِنْ ثَوَابِ الشَّفَاعَةِ.

➥ كَمَا ثَبَتَ مِنْ حَدِيثِ أَبِي مُوسَى –رَضِيَ اللهُ عَنْهُ– أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «اشْفَعُوا تُؤْجَرُوا وَيَقْضِي اللهُ عَلَى لِسَانِ نَبِيِّهِ مَا شَاءَ»[١٤٤]. وَفِي لفظٍ «مَا أَحَبَّ»[١٤٥].

❁ ﴿وَمَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً﴾ مُخَالِفَةً لِلشَّرْعِ ﴿يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا﴾ نَصِيبٌ مِنْ وِزْرِهَا، ﴿وَكَانَ اللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقِيتًا﴾ مُقْتَدِرًا.

وَفِي الْآيَةِ الْحَثُّ عَلَى الشَّفَاعَةِ الْحَسَنَةِ، وَهِيَ التَّوَسُّطُ عِنْدَ الْآخَرِينَ بِغَرَضِ جَلْبِ مَنْفَعَةٍ أَوْ دَفْعِ مَضَرَّةٍ، وَهِيَ مِنْ أَفْضَلِ الْقُرُبَاتِ وَأَجَلِّ الطَّاعَاتِ.

➥ وَثَبَتَ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ –رَضِيَ اللهُ عَنْهُ– أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «مَنْ نَفَّسَ عَنْ مُؤْمِنٍ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ الدُّنْيَا نَفَّسَ اللهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ يَسَّرَ عَلَى مُعْسِرٍ، يَسَّرَ اللهُ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَاللهُ فِي عَوْنِ الْعَبْدِ مَا كَانَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ»[١٤٦].

---

[١٤٣] أخرجه البخاري (٢٧٩٠).
[١٤٤] أخرجه البخاري (١٤٣٢) واللفظ له، ومسلم (٢٦٢٧).
[١٤٥] أخرجه مسلم (٢٦٢٧).
[١٤٦] أخرجه مسلم (٢٦٩٩).

➥ وَثَبَتَ مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عُمَرَ –رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا– أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «مَنْ كَانَ فِي حَاجَةِ أَخِيهِ كَانَ اللهُ فِي حَاجَتِهِ، وَمَنْ فَرَّجَ عَنْ مُسْلِمٍ كُرْبَةً فَرَّجَ اللهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ».[١٤٧]

★ كَمَا أَنَّ فِي الْآيَةِ التَّحْذِيرَ مِنَ الشَّفَاعَةِ السَّيِّئَةِ كَمَنْ يَشْفَعُ فِي حَدٍّ مِنْ حُدُودِ اللهِ، وَقَدْ أَنْكَرَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ –رَضِيَ اللهُ عَنْهُ– حِينَ شَفَعَ فِي حَدٍّ مِنْ حُدُودِ اللهِ، فَعَنْ عَائِشَةَ –رَضِيَ اللهُ عَنْهَا– أَنَّ قُرَيْشًا أَهَمَّهُمْ شَأْنُ الْمَرْأَةِ الْمَخْزُومِيَّةِ الَّتِي سَرَقَتْ، فَقَالُوا: مَنْ يُكَلِّمُ فِيهَا رَسُولَ اللهِ ﷺ؟ فَقَالُوا: مَنْ يَجْتَرِئُ عَلَيْهِ إِلَّا أُسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ حِبُّ رَسُولِ اللهِ ﷺ؟، فَكَلَّمَهُ أُسَامَةُ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَتَشْفَعُ فِي حَدٍّ مِنْ حُدُودِ اللهِ؟، ثُمَّ قَامَ فَاخْتَطَبَ ثُمَّ قَالَ: إِنَّمَا أَهْلَكَ الَّذِينَ قَبْلَكُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ، وَإِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الضَّعِيفُ أَقَامُوا عَلَيْهِ الْحَدَّ، وَايْمُ اللهِ، لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا».[١٤٨]

﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّواْ بِأَحۡسَنَ مِنۡهَآ أَوۡ رُدُّوهَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ حَسِيبًا﴾ [النساء: ٨٦].

❁ ﴿وَإِذَا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ﴾؛ أَيْ: إِذَا سُلِّمَ عَلَيْكُمْ بِتَحِيَّةِ أَهْلِ الْإِسْلَامِ تَحِيَّةِ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَهِيَ قَوْلُ: السَّلَامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ ﴿فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا﴾؛ أَيْ: أَجِيبُوا بِزِيَادَةٍ عَلَى التَّحِيَّةِ أَوْ رُدُّوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا سُلِّمَ بِهِ، فَلَوْ قَالَ مَثَلًا : السَّلَامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللهِ: فَحَيُّوهُ بِقَوْلِكُمْ: وَعَلَيْكُمُ السَّلَامُ وَرَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ.

❁ ﴿أَوْ رُدُّوهَا﴾؛ أَيْ: فَحَيُّوهُ بِمِثْلِهَا، فَمَنْ قَالَ: السَّلَامُ عَلَيْكُمْ، فَحَيُّوهُ بِقَوْلِكُمْ: وَعَلَيْكُمُ السَّلَامُ. "فَالزِّيَادَةُ مَنْدُوبَةٌ وَالْمُمَاثَلَةُ مَفْرُوضَةٌ"[١٤٩].

❁ ﴿إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا﴾ مُجَازِيًا وَمُحَاسِبًا لَكُمْ، وَفِي الْآيَةِ مَشْرُوعِيَّةُ السَّلَامِ، وَأَنَّ رَدَّهُ آكَدُ مِنْ بَذْلِهِ، وَلِهَذَا أَجْمَعَ الْعُلَمَاءُ عَلَى أَنَّ رَدَّ السَّلَامِ وَاجِبٌ، وَاخْتَلَفُوا فِي بَذْلِ السَّلَامِ ابْتِدَاءً: فَالْجُمْهُورُ عَلَى أَنَّهُ سُنَّةٌ، وَحَكَاهُ ابْنُ عَبْدِ الْبَرِّ وَالْقُرْطُبِيُّ إِجْمَاعًا[١٥٠]، وَقِيلَ بِالْوُجُوبِ وَهُوَ قَوْلٌ قَوِيٌّ وَاللهُ أَعْلَمُ.

---

[١٤٧] أخرجه البخاري (٢٤٤٢)، ومسلم (٢٥٠٠).
[١٤٨] أخرجه البخاري (٣٤٧٥)، ومسلم (١٦٨٨).
[١٤٩] تفسير ابن كثير (٢/ص: ٣٦٨).
[١٥٠] التمهيد لابن عبد البر (٣/ص: ٦٩١)، وتفسير القرطبي (٥/ص: ٢٩٨).

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ لَيَجۡمَعَنَّكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا رَيۡبَ فِيهِۚ وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثٗا﴾ [النساء: ٨٧].

﴿اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ لَا شَكَّ فِيهِ لِلْجَزَاءِ وَالْحِسَابِ ﴿وَمَنْ﴾ اسْتِفْهَامٌ بِمَعْنَى النَّفْيِ؛ أَيْ : لَا أَحَدَ ﴿أَصْدَقُ مِنَ اللهِ حَدِيثًا﴾، وَهَذِهِ الْآيَةُ فِيهَا الرَّدُّ عَلَى مَنْ أَنْكَرَ الْبَعْثَ بَعْدَ الْمَوْتِ لِلْجَزَاءِ وَالْحِسَابِ، وَإِنَّمَا أَقْسَمَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى ذَلِكَ؛ لِأَنَّ كُفَّارَ قُرَيْشٍ وَغَيْرَهُمْ كَانُوا يُنْكِرُونَ الْبَعْثَ بَعْدَ الْمَوْتِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبۡعَثُواْۚ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبۡعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلۡتُمۡۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ﴾ [التغابن: ٧].

﴿۞ فَمَا لَكُمۡ فِي ٱلۡمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيۡنِ وَٱللَّهُ أَرۡكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓاْۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَهۡدُواْ مَنۡ أَضَلَّ ٱللَّهُۖ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلٗا﴾ [النساء: ٨٨].

نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ فِي اخْتِلَافِ أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي قَوْمٍ كَانُوا يُظْهِرُونَ الْإِسْلَامَ بِمَكَّةَ إِلَّا أَنَّهُمْ كَانُوا يُظَاهِرُونَ الْمُشْرِكِينَ،[١٥١] هَذَا الْأَظْهَرُ فِي سَبَبِ نُزُولِهَا؛ لِأَنَّ اللهَ تَعَالَى قَالَ بَعْدَ ذَلِكَ: ﴿فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّى يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللهِ﴾، وَهَذَا أَوْضَحُ دَلِيلٍ عَلَى أَنَّهُمْ كَانُوا مِنْ غَيْرِ أَهْلِ الْمَدِينَةِ؛ لِأَنَّ الْهِجْرَةَ كَانَتْ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ إِلَى الْمَدِينَةِ مِنْ سَائِرِ أَرْضِ الْكُفْرِ.

➥ **وَقَدْ ثَبَتَ مِنْ حَدِيثِ زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ:** رَجَعَ نَاسٌ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ مِنْ أُحُدٍ، **وَكَانَ النَّاسُ فِيهِمْ فِرْقَتَيْنِ:**

- **فَرِيقٌ يَقُولُ:** اقْتُلْهُمْ،
- **وَفَرِيقٌ يَقُولُ:** لَا،

فَنَزَلَتْ: ﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ﴾، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ «إِنَّهَا طَيْبَةُ تَنْفِي الْخَبَثَ كَمَا تَنْفِي النَّارُ خَبَثَ الْفِضَّةِ».[١٥٢] فَأَفَادَ هَذَا الْأَثَرُ أَنَّ زَيْدَ بْنَ ثَابِتٍ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- يَرَى أَنَّ الْآيَةَ نَزَلَتْ فِي الَّذِينَ تَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ يَوْمَ أُحُدٍ، لَكِنَّ الْأَقْرَبَ مَا ذَكَرْنَا وَاللهُ أَعْلَمُ.

---

[١٥١] أخرجه ابن جرير (٧/ص: ٢٨٣)، وابن أبي حاتم (٥٧٤١).
[١٥٢] أخرجه البخاري (٤٥٨٩)، ومسلم (٢٧٧٦).

❁ قَوْلُهُ: ﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللهُ أَرْكَسَهُمْ﴾؛ أَيْ: لِمَ تَخْتَلِفُونَ فِي شَأْنِ الْمُنَافِقِينَ هَذَا الِاخْتِلَافَ وَالْحَالُ أَنَّ اللهَ تَعَالَى رَدَّهُمْ ﴿بِمَا كَسَبُوا﴾ إِلَى الْكُفْرِ بَعْدَ الْإِيمَانِ، ﴿أَتُرِيدُونَ﴾ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ ﴿أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللهُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا﴾ طَرِيقًا إِلَى الْهُدَى.

﴿وَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَآءً فَلَا تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ أَوْلِيَآءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [النساء: ٨٩].

❁ ﴿وَدُّوا﴾؛ أَيْ: تَمَنَّى الْمُنَافِقُونَ ﴿لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ﴾ أَنْتُمْ وَهُمْ ﴿سَوَاءً﴾ فِي الْكُفْرِ ﴿فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ﴾ تُوَالُونَهُمْ وَتُحِبُّونَهُمْ وَإِنْ أَظْهَرُوا لَكُمُ الْإِيمَانَ ﴿حَتَّى يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللهِ﴾ هِجْرَةً صَحِيحَةً تُحَقِّقُ إِيمَانَهُمْ.

❁ ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ عَنِ الْهِجْرَةِ وَأَقَامُوا عَلَى مَا هُمْ عَلَيْهِ ﴿فَخُذُوهُمْ﴾؛ أَيْ: فَأَسِرُوهُمْ ﴿وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾ وَيَكُونُ حُكْمُهُمْ حُكْمَ سَائِرِ الْمُشْرِكِينَ، ﴿وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا﴾ تُوَالُونَهُ مِنْ دُونِ اللهِ ﴿وَلَا نَصِيرًا﴾ تَنْتَصِرُونَ بِهِ عَلَى عَدُوِّكُمْ، وَالْآيَةُ دَلَّتْ عَلَى أَنَّهُ لَا يَجُوزُ مُوَالَاةُ الْمُنَافِقِينَ وَمَحَبَّتُهُمْ وَمُنَاصَرَتُهُمْ وَاتِّخَاذُهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّى يَتَحَقَّقَ إِيمَانُهُمْ بِاللهِ تَعَالَى .

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ أَوْ جَآءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَٰتِلُوكُمْ أَوْ يُقَٰتِلُواْ قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَٰتَلُوكُمْ فَإِنِ ٱعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْاْ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا﴾ [النساء: ٩٠].

❁ ﴿إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ﴾؛ أَيْ: يَتَّصِلُونَ بِقَوْمٍ ﴿بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ﴾ عَهْدٌ بِالْأَمَانِ وَتَرْكِ الْقِتَالِ فَيَكُونُ حُكْمُهُ حُكْمَهُمْ فِي حَقْنِ دِمَائِهِمْ وَحِفْظِ أَمْوَالِهِمْ.

➥ كَمَا وَرَدَ مِنْ حَدِيثِ الْمِسْوَرِ بْنِ مَخْرَمَةَ وَمَرْوَانَ بْنِ الْحَكَمِ فِي قِصَّةِ صُلْحِ الْحُدَيْبِيَةِ (أَنَّ مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَدْخُلَ فِي صُلْحِ قُرَيْشٍ وَعَهْدِهِمْ دَخَلَ مَعَهُمْ، وَمَنْ أَحَبَّ أَنْ يَدْخُلَ فِي صُلْحِ مُحَمَّدٍ وَأَصْحَابِهِ وَعَهْدِهِمْ دَخَلَ مَعَهُمْ).[١٥٣]

[١٥٣] تفسير ابن كثير (٢/ص: ٣٧٢)، وعزاه إلى صحيح البخاري.

❁ ﴿أَوْ﴾ الَّذِينَ ﴿جَاءُوكُمْ﴾ وَقَدْ ﴿حَصِرَتْ﴾ ضَاقَتْ ﴿صُدُورُهُمْ﴾ وَكَرِهُوا ﴿أَنْ يُقَاتِلُوكُمْ﴾ مَعَ قَوْمِهِمْ، ﴿أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ﴾ مَعَكُمْ فَلَا تُقَاتِلُوهُمْ ﴿وَلَوْ شَاءَ اللهُ﴾ تَسْلِيطَهُمْ عَلَيْكُمْ ﴿لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ﴾ بِأَنْ يُقَوِّيَ قُلُوبَهُمْ ﴿فَلَقَاتَلُوكُمْ﴾، وَلَكِنْ مِنْ لُطْفِهِ بِكُمْ لَمْ يَشَأْهُ فَأَلْقَى فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ.

❁ ﴿فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ﴾؛ أَيْ: الِاسْتِسْلَامَ وَالِانْقِيَادَ ﴿فَمَا جَعَلَ اللهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا﴾ طَرِيقًا بِأَسْرِهِمْ أَوْ قَتْلِهِمْ أَوْ نَهْبِ أَمْوَالِهِمْ؛ لِأَنَّهُمُ اعْتَزَلُوكُمْ وَسَالَمُوكُمْ، وَهَذَا الِاعْتِزَالُ وَالِاسْتِسْلَامُ مَانِعٌ لَكُمْ مِنْ أَسْرِهِمْ أَوْ قَتْلِهِمْ.

ثُمَّ ذَكَرَ اللهُ تَعَالَى صِنْفًا آخَرَ مِنَ الْمُنَافِقِينَ لَا هَمَّ لَهُمْ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ وَلَا يُفَكِّرُونَ إِلَّا فِي مَصْلَحَتِهِمْ، فَقَالَ:

﴿سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأۡمَنُوكُمۡ وَيَأۡمَنُواْ قَوۡمَهُمۡ كُلَّ مَا رُدُّوٓاْ إِلَى ٱلۡفِتۡنَةِ أُرۡكِسُواْ فِيهَاۚ فَإِن لَّمۡ يَعۡتَزِلُوكُمۡ وَيُلۡقُوٓاْ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَمَ وَيَكُفُّوٓاْ أَيۡدِيَهُمۡ فَخُذُوهُمۡ وَٱقۡتُلُوهُمۡ حَيۡثُ ثَقِفۡتُمُوهُمۡۚ وَأُوْلَٰٓئِكُمۡ جَعَلۡنَا لَكُمۡ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٗا مُّبِينٗا﴾ [النساء: ٩١].

❁ ﴿سَتَجِدُونَ﴾ أَقْوَامًا ﴿آخَرِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَأْمَنُوكُمْ﴾؛ أَيْ: يَقُومُونَ بِإِظْهَارِ الْإِيمَانِ لِلنَّبِيِّ ﷺ وَأَصْحَابِهِ لِيَأْمَنُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ، ﴿وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ﴾؛ أَيْ: وَيُظْهِرُوا لِقَوْمِهِمْ مِنَ الْكُفَّارِ الْكُفْرَ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لِيَأْمَنُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَيْضًا، فَهُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يَكُونُوا فِي أَمَانٍ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ، وَهَذَا لَا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ إِلَّا بِالنِّفَاقِ، فَهُمْ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾ [البقرة: ١٤].

❁ ﴿كُلَّمَا رُدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ﴾ دُعُوا إِلَى الْكُفْرِ وَالشِّرْكِ ﴿أُرْكِسُوا فِيهَا﴾ وَقَعُوا أَشَدَّ الْوُقُوعِ ﴿فَإِنْ لَمْ يَعْتَزِلُوكُمْ﴾؛ أَيْ: يَنْصَرِفُوا عَنْكُمْ بِأَنْ لَمْ يَكُونُوا مَعَكُمْ وَلَا مَعَهُمْ، ﴿وَيُلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ﴾؛ أَيْ: يُقَدِّمُوا إِلَيْكُمُ الِاسْتِسْلَامَ وَالصُّلْحَ التَّامَّ ﴿وَيَكُفُّوا أَيْدِيَهُمْ﴾ عَنْ قِتَالِكُمْ، ﴿فَخُذُوهُمْ﴾ بِالْأَسْرِ ﴿وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾ وَجَدْتُمُوهُمْ فِي أَيِّ وَقْتٍ أَوْ مَكَانٍ، ﴿وَأُولَئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُبِينًا﴾ بُرْهَانًا بَيِّنًا جَلِيًّا عَلَى قَتْلِهِمْ وَأَسْرِهِمْ لِظُهُورِ عَدَاوَتِهِمْ وَإِضْرَارِهِمْ بِالْمُسْلِمِينَ.

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُوا۟ ۚ فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ۖ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ٩٢].

❁ ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا﴾؛ أَيْ: لَا يُمْكِنُ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنٌ مُؤْمِنًا بِأَيِّ حَالٍ مِنَ الْأَحْوَالِ، ﴿إِلَّا خَطَأً﴾؛ أَيْ: إِلَّا عَلَى وَجْهِ الْخَطَأِ مِنْ غَيْرِ قَصْدٍ مِثْلَ أَنْ يَقْصِدَ بِالرَّمْيِ غَيْرَهُ فَأَصَابَهُ، ﴿وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً فَتَحْرِيرُ﴾ عِتْقُ ﴿رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُسْلِمَةٌ﴾ مُؤَدَّاةٌ ﴿إِلَى أَهْلِهِ﴾؛ أَيْ: وَرَثَةِ الْمَقْتُولِ، وَهِيَ عَلَى الْعَاقِلَةِ بِإِجْمَاعِ أَهْلِ الْعِلْمِ وَهُمْ عَصَبَتُهُ، سَوَاءٌ كَانُوا وَارِثِينَ أَمْ غَيْرَ وَارِثِينَ، وَهُمُ الْأَبُ وَإِنْ عَلَى، وَالْإِخْوَةُ الْأَشِقَّاءُ وَالْإِخْوَةُ مِنَ الْأَبِ وَأَبْنَاؤُهُمْ، وَالْأَعْمَامُ وَأَبْنَاؤُهُمْ وَهَذَا هُوَ الْمَشْهُورُ مِنَ الْمَذْهَبِ وَهُوَ قَوْلُ الْجُمْهُورِ، وَيَقْسِمُ الْحَاكِمُ الدِّيَةَ عَلَيْهِمْ حَسَبَ الْقَرَابَةِ وَالْغِنَى، فَالْأَقْرَبُ يَتَحَمَّلُ أَكْثَرَ مِنَ الْبَعِيدِ، وَالْأَكْثَرُ غِنًى يَتَحَمَّلُ أَكْثَرَ، وَالْفَقِيرُ لَا شَيْءَ عَلَيْهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِيعُوا فَعَلَى بَيْتِ الْمَالِ، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ فَفِي مَالِ الْجَانِي.

❁ ﴿إِلَّا أَنْ يَصَّدَّقُوا﴾؛ أَيْ: إِلَّا أَنْ يَتَصَدَّقُوا وَيَعْفُوا عَنِ الدِّيَةِ، وَسُمِّيَ الْعَفْوُ عَنْهَا صَدَقَةً تَرْغِيبًا فِيهِ وَحَثًّا عَلَيْهِ، ﴿فَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ﴾؛ أَيْ: فَإِنْ كَانَ الْمُؤْمِنُ الْمَقْتُولُ مِنْ قَوْمٍ كُفَّارٍ مُحَارِبِينَ فَعَلَى قَاتِلِهِ كَفَّارَةٌ فَقَطْ وَلَا دِيَةَ تُسَلَّمُ إِلَى أَهْلِهِ؛ لِأَنَّهُمْ كُفَّارٌ مُحَارِبُونَ فَلَا يَرِثُونَ دِيَتَهُ.

➥ وَقَدْ ثَبَتَ مِنْ حَدِيثِ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «لَا يَرِثُ الْمُسْلِمُ الْكَافِرَ، وَلَا الْكَافِرُ الْمُسْلِمَ».[١٥٤]

﴿وَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ﴾؛ أَيْ: فَإِنْ كَانَ الْمَقْتُولُ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ عَهْدٌ وَمِيثَاقٌ كَأَهْلِ الذِّمَّةِ، فَعَلَى قَاتِلِهِ الدِّيَةُ تُسَلَّمُ إِلَى أَهْلِ الْمَقْتُولِ وَالْكَفَّارَةِ وَهِيَ عِتْقُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ.

[١٥٤] أخرجه البخاري (٦٧٦٤)، ومسلم (١٦١٤).

☆ **وَهَذَا فِيهِ**: أَنَّ مَنْ قَتَلَ مُعَاهَدًا فَيَلْزَمُهُ الدِّيَةُ وَالْكَفَّارَةُ وَهَذَا بِاتِّفَاقِ أَهْلِ الْعِلْمِ، وَلَكِنْ اخْتَلَفُوا فِي مِقْدَارِ دِيَتِهِ عَلَى أَقْوَالٍ:

١. **فَالْمَشْهُورُ مِنَ الْمَذْهَبِ وَهُوَ قَوْلُ الْإِمَامِ مَالِك** أَنَّهَا عَلَى النِّصْفِ مِنْ دِيَةِ الْمُسْلِمِ.

٢. **وَالْقَوْلُ الثَّانِي**: أَنَّ دِيَتَهُ كَدِيَةِ الْمُسْلِمِ، وَهُوَ قَوْلُ أَبِي حَنِيفَةَ.

٣. **وَالْقَوْلُ الثَّالِثُ**: أَنَّ دِيَةَ الْكِتَابِيِّ ثُلُثُ دِيَةِ الْمُسْلِمِ، وَهُوَ قَوْلُ الشَّافِعِيِّ، وَالْأَقْرَبُ الْقَوْلُ الْأَوَّلُ لِحَدِيثِ عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ جَدِّهِ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ (**جَعَلَ دِيَةَ الْيَهُودِيِّ وَالنَّصْرَانِيِّ عَلَى النِّصْفِ مِنْ دِيَةِ الْمُسْلِمِ**)[١٥٥].

❁ ﴿**فَمَنْ لَمْ يَجِدْ**﴾ الرَّقَبَةَ ﴿**فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ**﴾ لَا يَجُوزُ قَطْعُهُمَا إِلَّا بِعُذْرٍ يَجُوزُ مَعَهُ قَطْعُ فَرِيضَةِ الصِّيَامِ كَرَمَضَانَ، وَذَلِكَ كَعُذْرِ الْمَرَضِ وَالسَّفَرِ وَحَيْضِ الْمَرْأَةِ وَنِفَاسِهَا، فَإِنْ جَازَ فِي صَوْمِ رَمَضَانَ، فَفِي صِيَامِ الْكَفَّارَةِ مِنْ بَابِ أَوْلَى، وَلَمْ يَذْكُرِ اللهُ تَعَالَى الِانْتِقَالَ إِلَى الطَّعَامِ كَالظِّهَارِ فَلَا يُعْدَلُ إِلَيْهِ؛ لِأَنَّهُ لَوْ كَانَ وَاجِبًا لَمَا أَخَّرَ اللهُ تَعَالَى بَيَانَهُ.

⬅ **وَقَدْ اسْتَفَاضَ عِنْدَ الْعُلَمَاءِ قَوْلُهُمْ**: "**إِنَّ تَأْخِيرَ الْبَيَانِ عَنْ وَقْتِ الْحَاجَةِ لَا يَجُوزُ**" وَهَذَا هُوَ الْمَشْهُورُ مِنَ الْمَذْهَبِ عِنْدَ أَصْحَابِنَا، وَهُوَ قَوْلُ جَمَاهِيرِ أَهْلِ الْعِلْمِ، وَفِيهِ رِوَايَةٌ عَنِ الْإِمَامِ أَحْمَدَ وَهُوَ قَوْلٌ لِلشَّافِعِيِّ: الِانْتِقَالُ إِلَى الْإِطْعَامِ عِنْدَ الْعَجْزِ عَنِ الصِّيَامِ فَيُطْعِمُ سِتِّينَ مِسْكِينًا قِيَاسًا عَلَى كَفَّارَةِ الظِّهَارِ، وَالصَّوَابُ الْقَوْلُ الْأَوَّلُ لِمَا ذَكَرْنَا وَاللهُ أَعْلَمُ.

❁ ﴿**تَوْبَةً مِنَ اللهِ**﴾ مَفْعُولٌ مُطْلَقٌ لِفِعْلٍ مَحْذُوفٍ، **تَقْدِيرُهُ**: يَتُوبُ بِذَلِكَ تَوْبَةً إِلَى اللهِ، **وَالْمَعْنَى**: أَنَّ هَذِهِ الْكَفَّارَةَ عَلَى الْقَاتِلِ تَوْبَةٌ مِنَ اللهِ تَعَالَى عَلَى عِبَادِهِ وَرَحْمَةٌ بِهِمْ، ﴿**وَكَانَ اللهُ عَلِيمًا**﴾ فِيمَا شَرَعَ ﴿**حَكِيمًا**﴾ فِيمَا دَبَّرَ وَقَدَّرَ.

---

[١٥٥] أخرجه أبو داود (٤٥٤٢)، والنسائي (٤٨٠٦)، والترمذي (١٤١٣)، وقال: حديث حسن.

﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٩٣].

﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا﴾، قَوْلُهُ: (مُؤْمِنًا﴾ نَكِرَةٌ فِي سِيَاقِ الشَّرْطِ فَيَعُمُّ كُلَّ مُؤْمِنٍ ﴿مُتَعَمِّدًا﴾ بِأَنْ يَقْصِدَ قَتْلَهُ بِمَا يَقْتُلُ غَالِبًا كَالسَّيْفِ، ﴿فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا﴾ وَقَدْ اخْتَلَفَ السَّلَفُ فِي مَعْنَى ﴿فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا﴾ عَلَى أَقْوَالٍ كَثِيرَةٍ أَقْرَبُهَا وَاللهُ تَعَالَى أَعْلَمُ "فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ إِلَّا مَنْ تَابَ"؛ لِأَنَّ كُلَّ وَعِيدٍ فِي الْقُرْآنِ فَهُوَ مَشْرُوطٌ بِعَدَمِ التَّوْبَةِ بِاتِّفَاقِ النَّاسِ كَمَا قَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ -رَحِمَهُ اللهُ-[١٥٦] وَقَدْ دَلَّ الْقُرْآنُ عَلَى قَبُولِ تَوْبَتِهِ، بَلْ دَلَّ الْقُرْآنُ وَالسُّنَّةُ عَلَى قَبُولِ التَّوْبَةِ حَتَّى مِنَ الْمُشْرِكِ وَتَارِكِ الصَّلَاةِ فَقَبُولُهَا مِنَ الْقَاتِلِ مِنْ بَابِ أَوْلَى.

★ قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ﴾ [التوبة: ١١]، وَقَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا (٦٨) يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا (٦٩) إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا (٧٠) وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا (٧١)﴾ [الفرقان: ٦٨-٧١].

➥ وَمِنْ أَقْوَى الْأَدِلَّةِ الَّتِي يُسْتَدَلُّ بِهَا عَلَى قَبُولِ تَوْبَةِ الْقَاتِلِ مِنَ السُّنَّةِ: مَا ثَبَتَ مِنْ حَدِيثِ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «كَانَ فِيمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ رَجُلٌ قَتَلَ تِسْعَةً وتِسْعِينَ نَفْسًا، فَسَأَلَ عَنْ أَعْلَمِ أَهْلِ الأرضِ، فَدُلَّ عَلَى رَاهِبٍ، فَأَتَاهُ، فَقَالَ: إِنَّهُ قَتَلَ تِسعَةً وتِسْعِينَ نَفْسًا، فَهَلْ لَهُ مِنْ تَوبَةٍ؟ فقالَ: لَا، فَقَتَلَهُ، فَكَمَّلَ بِهِ مِئَةً، ثُمَّ سَأَلَ عَنْ أَعْلَمِ أَهْلِ الأَرضِ، فَدُلَّ عَلَى رَجُلٍ عَالِمٍ، فَقَالَ: إِنَّهُ قَتَلَ مِئَةَ نَفْسٍ فَهَلْ لَهُ مِنْ تَوْبَةٍ؟ فَقَالَ: نَعَمْ، ومَنْ يَحُولُ بَيْنَهُ وبَيْنَ التَّوْبَةِ؟ انْطَلِقْ إِلَى أَرْضِ كَذَا وكَذَا، فإِنَّ بِهَا أُناسًا يَعْبُدُونَ اللهَ تَعَالَى فاعْبُدِ اللهَ مَعَهُمْ، ولَا تَرْجِعْ إِلَى أَرْضِكَ، فَإِنَّهَا أَرضُ سُوءٍ، فانْطَلَقَ حَتَّى إِذَا نَصَفَ الطَّرِيقَ أَتَاهُ الْمَوْتُ، فاخْتَصَمَتْ فِيهِ مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ ومَلَائِكَةُ الْعَذَابِ، فَقَالَتْ مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ: جَاءَ تَائِبًا، مُقْبِلًا بِقَلْبِهِ إِلَى اللهِ تَعَالَى، وقالتْ مَلَائِكَةُ العَذَابِ: إِنَّهُ

[١٥٦] مجموع الفتاوى (١٦/ص: ٢٥).

لَمْ يَعْمَلْ خَيرًا قَطُّ، فَأَتَاهُمْ مَلَكٌ في صورةِ آدَمِيٍّ، فَجَعَلُوهُ بَيْنَهُمْ -أيْ حَكَمًا- فقالَ: قِيسُوا ما بينَ الْأَرْضَيْنِ فَإِلَى أيَّتِهِمَا كَانَ أدنَى فَهُوَ لَهُ، فَقَاسُوا، فَوَجَدُوهُ أدْنى إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي أرَادَ، فَقَبَضَتْهُ مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ».[١٥٧] فَدَلَّ هَذَا الْحَدِيثُ دَلَالَةً وَاضِحَةً عَلَى قَبُولِ التَّوْبَةِ مِنَ الْقَاتِلِ، وَقَدْ قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨].

❁ ﴿وَغَضِبَ اللهُ عَلَيْهِ﴾ وَهَذَا فِيهِ إِثْبَاتُ صِفَةِ الْغَضَبِ، وَالْغَضَبُ صِفَةٌ للهِ تَعَالَى ثَابِتَةٌ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ بِوَجْهٍ يَلِيقُ بِجَلَالِهِ وَعَظَمَتِهِ مِنْ غَيْرِ تَكْيِيفٍ وَلَا تَمْثِيلٍ وَلَا تَأْوِيلٍ، كَمَنْ يَقُولُ: الْغَضَبُ إِرَادَةُ الْعِقَابِ، وَلَا تَعْطِيلٌ، وَهِيَ مِنْ أَعْظَمِ الصِّفَاتِ الْمُوجِبَةِ لِخَشْيَةِ اللهِ تَعَالَى وَالْخَوْفِ مِنْهُ، وَهِيَ مِنَ الصِّفَاتِ الْمُتَعَلِّقَةِ بِمَشِيئَةِ اللهِ تَعَالَى، وَتُسَمَّى: الصِّفَاتِ الِاخْتِيَارِيَّةَ، مِثْلُ الِاسْتِوَاءِ وَالْمَجِيءِ وَالْمَحَبَّةِ وَالنُّزُولِ وَنَحْوِ ذَلِكَ.

❁ ﴿وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ وَفِي الْآيَةِ أَنَّ قَتْلَ الْمُؤْمِنِ عَمْدًا مِنْ أَكْبَرِ الْكَبَائِرِ.

➥ **وَقَدْ ثَبَتَ مِنْ حَدِيثِ ابْنِ مَسْعُودٍ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- قَالَ:** قال رَجُلٌ: يا رَسُولَ اللهِ ﷺ: أَيُّ الذَّنْبِ أَكْبَرُ عِنْدَ اللهِ؟ قَالَ: «أَنْ تَدْعُوَ لِلَّهِ نِدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ»، قال: ثُمَّ أَيٌّ؟ قَالَ: «ثُمَّ أَنْ تَقْتُلَ وَلَدَكَ أَنْ يَطْعَمَ مَعَكَ» الْحَدِيثَ، فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ تَصْدِيقَهَا: ﴿وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ الْآيَةَ.[١٥٨]

➥ **وَعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ:** «أَكْبَرُ الْكَبَائِرِ: الْإِشْرَاكُ بِاللهِ وَقَتْلُ النَّفْسِ» الْحَدِيثَ.[١٥٩]

➥ **وَعَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- مَرْفُوعًا** (سِبَابُ الْمُسْلِمِ فُسُوقٌ وَقِتَالُهُ كُفْرٌ)،[١٦٠] وَعَنِ ابْنِ عُمَرَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا- مَرْفُوعًا: (لَنْ يَزَالَ الْمُؤْمِنُ فِي فُسْحَةٍ مِنْ دِينِهِ مَا لَمْ يُصِبْ دَمًا حَرَامًا)[١٦١].

---

[١٥٧] أخرجه البخاري (٣٤٧٠)، ومسلم (٢٧٦٦) واللفظ له.
[١٥٨] أخرجه البخاري (٦٨٦١)، ومسلم (٨٦).
[١٥٩] أخرجه البخاري (٦٨٧١)، ومسلم (٨٨).
[١٦٠] أخرجه البخاري (٤٨)، ومسلم (٦٤).
[١٦١] أخرجه البخاري (٦٨٦٢).

☆ وَلَا شَكَّ أَنَّ حُرْمَةَ دَمِ الْمُسْلِمِ مِمَّا عُلِمَ مِنَ الدِّينِ بِالضَّرُورَةِ وَتَوَاتَرَتْ بِهِ الْأَدِلَّةُ الْكَثِيرَةُ مِنَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، فَالْمُسْلِمُ مَعْصُومُ الدَّمِ وَالْمَالِ، لَا تُرْفَعُ عَنْهُ هَذِهِ الْعِصْمَةُ إِلَّا بِإِحْدَى ثَلَاثٍ، كَمَا فِي حَدِيثِ ابْنِ مَسْعُودٍ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «لَا يَحِلُّ دَمُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَّا بِإِحْدَى ثَلَاثٍ: الثَّيِّبُ الزَّانِي، وَالنَّفْسُ بِالنَّفْسِ، وَالتَّارِكُ لِدِينِهِ الْمُفَارِقُ لِلْجَمَاعَةِ»[١٦٢].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبۡتُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنۡ أَلۡقَىٰٓ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسۡتَ مُؤۡمِنٗا تَبۡتَغُونَ عَرَضَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٞۚ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبۡلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ فَتَبَيَّنُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا﴾ [النساء: ٩٤].

⮌ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا- قَالَ: "كَانَ رَجُلٌ فِي غُنَيْمَةٍ لَهُ، فَلَحِقَهُ الْمُسْلِمُونَ فَقَالَ: السَّلَامُ عَلَيْكُمْ، فَقَتَلُوهُ وَأَخَذُوا غُنَيْمَتَهُ، فَأَنْزَلَ اللهُ فِي ذَلِكَ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ تِلْكَ الْغُنَيْمَةَ"[١٦٣].

❁ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ﴾ سَافَرْتُمْ لِلْجِهَادِ ﴿فِي سَبِيلِ اللهِ فَتَبَيَّنُوا﴾؛ أَيْ: تَأَنَّوْا وَتَأَمَّلُوا وَتَثَبَّتُوا وَلَا تَسْتَعْجِلُوا، ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ﴾؛ أَيْ: لَا تَقُولُوا لِمَنْ أَظْهَرَ لَكُمُ الْإِسْلَامَ بِقَوْلِهِ: "السَّلَامُ عَلَيْكُمْ "، ﴿لَسْتَ مُؤْمِنًا﴾ وَإِنَّمَا قُلْتَ هَذَا تَعَوُّذًا فَتَقْتُلُوهُ ظَنًّا مِنْكُمْ أَنَّهُ مَا قَالَهَا إِلَّا لِيَتَّقِيَ بِهَا الْقَتْلَ، ﴿تَبْتَغُونَ﴾ تَطْلُبُونَ بِقَتْلِهِ ﴿عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ مَتَاعَهَا مِنَ الْغَنِيمَةِ، وَسُمِّيَ مَتَاعُ الدُّنْيَا عَرَضًا لِأَنَّهُ مَهْمَا كَثُرَ فَهُوَ زَائِلٌ، ﴿فَعِنْدَ اللهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ﴾ تُغْنِيكُمْ عَنْ قَتْلِ مَنْ أَظْهَرَ لَكُمُ الْإِسْلَامَ ﴿كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ﴾ فِي مِثْلِ هَذَا الَّذِي يُخْفِي إِيمَانَهُ وَيُسِرُّهُ عَنْ قَوْمِهِ.

[١٦٢] أخرجه البخاري (٦٨٧٨)، ومسلم (١٦٧٦) واللفظ له.
[١٦٣] أخرجه البخاري (٤٥٩١) واللفظ له، ومسلم (٣٠٢٥).

❁ ﴿فَمَنَّ اللهُ عَلَيْكُمْ﴾ بِإِظْهَارِ دِينِهِ وَإِعْلَاءِ كَلِمَتِهِ حَتَّى أَمْكَنَكُمْ مِنْ إِظْهَارِ دِينِكُمْ وَلَمْ تَعُودُوا تُخْفُونَ دِينَكُمْ، **أَوْ يُقَالُ مَعْنَى الْآيَةِ**: كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ كُفَّارًا فَمَنَّ اللهُ عَلَيْكُمْ وَهَدَاكُمْ لِلْإِسْلَامِ، ﴿فَتَبَيَّنُوا﴾ مُسْتَقْبَلًا أَنْ تَقْتُلُوا مُؤْمِنًا خَطَأً وَتَثَبَّتُوا وَافْعَلُوا بِالدَّاخِلِ فِي الْإِسْلَامِ كَمَا فُعِلَ بِكُمْ ﴿إِنَّ اللهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ وَسَيُجَازِيكُمْ عَلَيْهَا.

➥ **وَفِي الْآيَةِ**: أَنَّ مَنْ أَظْهَرَ الْإِسْلَامَ فَهُوَ مَعْصُومُ الدَّمِ وَالْمَالِ، وَعَنْ أُسَامَةَ ابْنِ زَيْدٍ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- قَالَ: (بَعَثَنَا رَسولُ اللهِ ﷺ إلى الحُرَقَةِ مِن جُهَيْنَةَ، قالَ: فَصَبَّحْنَا القَوْمَ فَهَزَمْنَاهُمْ، قالَ: ولَحِقْتُ أنَا ورَجُلٌ مِنَ الأنْصَارِ رَجُلًا منهمْ، قالَ: فَلَمَّا غَشِينَاهُ قالَ: لا إلَهَ إلَّا اللهُ، قالَ: فَكَفَّ عنْه الأنْصَارِيُّ، فَطَعَنْتُهُ بِرُمْحِي حتَّى قَتَلْتُهُ، قالَ: فَلَمَّا قَدِمْنَا بَلَغَ ذلكَ النبيَّ ﷺ، قالَ: فَقالَ لِي: يا أُسَامَةُ، أقَتَلْتَهُ بَعْدَ ما قالَ: لا إلَهَ إلَّا اللهُ؟ قالَ: قُلتُ: يا رَسولَ اللهِ، إنَّما كانَ مُتَعَوِّذًا، قالَ: أقَتَلْتَهُ بَعْدَ ما قالَ: لا إلَهَ إلَّا اللهُ؟ قالَ: فَما زَالَ يُكَرِّرُهَا عَلَيَّ، حتَّى تَمَنَّيْتُ أنِّي لَمْ أكُنْ أسْلَمْتُ قَبْلَ ذلكَ اليَومِ).[١٦٤]

➥ **وَفِي رِوَايَةٍ** قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «فَكَيْفَ تَصْنَعُ بِلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ إِذَا جَاءَتْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟!» قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، اسْتَغْفِرْ لِي، قَالَ: «وَكَيْفَ تَصْنَعُ بِلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ إِذَا جَاءَتْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟!» قَالَ: فَجَعَلَ لَا يَزِيدُهُ عَلَى أَنْ يَقُولَ: «كَيْفَ تَصْنَعُ بِلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ إِذَا جَاءَتْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟!».[١٦٥]

➥ **وَفِي رِوَايَةٍ** قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّمَا قَالَهَا خَوْفًا مِنَ السِّلَاحِ، قَالَ: «أَفَلَا شَقَقْتَ عَنْ قَلْبِهِ حَتَّى تَعْلَمَ: أَقَالَهَا أَمْ لَا»[١٦٦]، أَيْ: تَنْظُرُ أَصَادِقٌ هُوَ فِي قَوْلِهِ أَمْ كَاذِبٌ؟ وَذَلِكَ لَا يُمْكِنُ، فَلَمْ يَبْقَ إِلَّا أَنْ يُبَيِّنَ عَنْهُ لِسَانُهُ.

"وَفِي هَذَا مِنَ الْفِقْهِ بَابٌ عَظِيمٌ، وَهُوَ أَنَّ الْأَحْكَامَ تُنَاطُ بِالْمَظَانِّ وَالظَّوَاهِرِ لَا عَلَى الْقَطْعِ وَاطِّلَاعِ السَّرَائِرِ"[١٦٧]، فَدَلَّتْ هَذِهِ الْآيَةُ الْعَظِيمَةُ مَعَ حَدِيثِ أُسَامَةَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- عَلَى أَنَّ مَنْ ظَاهِرُهُ الْكُفْرُ ثُمَّ أَسْلَمَ يُقْبَلُ إِسْلَامُهُ، وَيُوكَلُ أَمْرُهُ وَسَرِيرَتُهُ إِلَى اللهِ كَمَا فَعَلَ صَاحِبُ أُسَامَةَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا-.

---

[١٦٤] أخرجه البخاري (٦٨٧٢)، ومسلم (٩٦).
[١٦٥] أخرجه مسلم (٩٧).
[١٦٦] أخرجه مسلم (٩٦).
[١٦٧] تفسير القرطبي (٥/ص: ٣٣٩).

☆ فَالْوَاجِبُ الْمُتَعَيِّنُ عَلَى الْمُؤْمِنِ الَّذِي يُرِيدُ النَّجَاةَ لِنَفْسِهِ أَنْ يَحْمِلَ النَّاسَ عَلَى ظَوَاهِرِهِمْ، وَيُجْرِيَ الْأَحْكَامَ عَلَيْهِمْ حَسَبَ مَا يَظْهَرُ مِنْهُمْ، وَيَدَعُ الْقُلُوبَ وَالسَّرَائِرَ إِلَى اللهِ تَعَالَى.

➥ **فَعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُتْبَةَ بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ**: سَمِعْتُ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- يَقُولُ: "**إِنَّ نَاسًا كَانُوا يُؤْخَذُونَ بِالْوَحْيِ فِي عَهْدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَإِنَّ الْوَحْيَ قَدْ انْقَطَعَ، وَإِنَّمَا نَأْخُذُكُمُ الْآنَ بِمَا ظَهَرَ لَنَا مِنْ أَعْمَالِكُمْ، فَمَنْ أَظْهَرَ لَنَا خَيْرًا أَمَّنَّاهُ، وَقَرَّبْنَاهُ، وَلَيْسَ لَنَا مِنْ سَرِيرَتِهِ شَيْءٌ، اللهُ يُحَاسِبُهُ فِي سَرِيرَتِهِ، وَمَنْ أَظْهَرَ لَنَا سُوءًا لَمْ نَأْمَنْهُ، وَلَمْ نُصَدِّقْهُ، وَإِنْ قَالَ: إِنَّ سَرِيرَتَهُ حَسَنَةٌ**"[١٦٨].

۞ **وَمِنْ أَهَمِّ فَوَائِدِ الْآيَةِ**: وُجُوبُ التَّثَبُّتِ وَالتَّبَيُّنِ وَالتُّؤَدَةِ وَعَدَمِ الِاسْتِعْجَالِ فِي الْحُكْمِ عَلَى النَّاسِ، وَلَا سِيَّمَا فِي الْقَضَايَا الْخَطِيرَةِ الَّتِي يَتَرَتَّبُ عَلَى الْخَطَأِ فِيهَا أَضْرَارٌ عَظِيمَةٌ وَجَسِيمَةٌ كَالتَّكْفِيرِ مَثَلًا، فَإِنَّ التَّسَرُّعَ فِيهِ يَتَرَتَّبُ عَلَيْهِ أُمُورٌ خَطِيرَةٌ مِنِ اسْتِحْلَالِ الدَّمِ وَالْمَالِ، وَمَنْعِ التَّوَارُثِ، وَفَسْخِ النِّكَاحِ.

☆ **وَيَتَرَتَّبُ عَلَيْهِ أَيْضًا**: أَنَّهُ إِذَا مَاتَ لَا يُغَسَّلُ وَلَا يُكَفَّنُ، وَلَا يُصَلَّى عَلَيْهِ، وَلَا يُدْفَنُ فِي مَقَابِرِ الْمُسْلِمِينَ، فَالْوَاجِبُ عَلَى الْمُؤْمِنِ أَنْ يَتَبَيَّنَ وَيَتَثَبَّتَ فِي هَذِهِ الْقَضِيَّةِ الْعَظِيمَةِ الَّتِي زَلَّتْ فِيهَا أَقْدَامٌ وَضَلَّتْ فِيهَا أَفْهَامٌ، وَنَسْأَلُ اللهَ تَعَالَى بِمَنِّهِ وَكَرَمِهِ الْهِدَايَةَ إِلَى الْحَقِّ وَالصَّوَابِ، إِنَّهُ وَلِيُّ ذَلِكَ وَالْقَادِرُ عَلَيْهِ.

۞ **وَمِنْ فَوَائِدِ** قَوْله تَعَالَى: ﴿**فَعِنْدَ اللهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ**﴾ مَا ذَكَرَهُ ابْنُ سَعْدِيٍّ -رَحِمَهُ اللهُ- بِقَوْلِهِ: "**فِي هَذَا إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ الْعَبْدَ يَنْبَغِي لَهُ إِذَا رَأَى دَوَاعِيَ نَفْسِهِ مَائِلَةً إِلَى حَالَةٍ لَهُ فِيهَا هَوًى وَهِيَ مُضِرَّةٌ لَهُ، أَنْ يُذَكِّرَهَا مَا أَعَدَّ اللهُ لِمَنْ نَهَى نَفْسَهُ عَنْ هَوَاهَا، وَقَدَّمَ مَرْضَاةَ اللهِ عَلَى رِضَا نَفْسِهِ، فَإِنَّ فِي ذَلِكَ تَرْغِيبًا لِلنَّفْسِ فِي امْتِثَالِ أَمْرِ اللهِ**"[١٦٩].

---

[١٦٨] أخرجه البخاري (٢٦٤١).
[١٦٩] تيسير الكريم الرحمن، ص: ١٩٤.

۞ وَمِنْ فَوَائِدِ قَوْلِه تَعَالَى: ﴿كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنَّ اللهُ عَلَيْكُمْ﴾ مَا ذَكَرَهُ ابْنُ عَاشُور -رَحِمَهُ اللهُ- بِقَوْلِهِ: "وهَذِهِ تَرْبِيَةٌ عَظِيمَةٌ، وهي أنْ يَسْتَشْعِرَ الإنْسانُ عِنْدَ مُؤاخَذَتِهِ غَيْرَهُ أحْوالًا كانَ هو عَلَيْها تُساوِي أحْوالَ مَن يُؤاخِذُهُ، كَمُؤاخَذَةِ المُعَلِّمِ التِّلْمِيذَ بِسُوءٍ إذا لَمْ يُقَصِّرْ في إعْمالِ جُهْدِهِ. وكَذَلِكَ هي عِظَةٌ لِمَن يَمْتَحِنُونَ طَلَبَةَ العِلْمِ فَيَعْتادُونَ التَّشْدِيدَ عَلَيْهِمْ وتَطَلُّبَ عَثَراتِهِمْ، وكَذَلِكَ وُلاةُ الأُمُورِ وكِبارُ المُوَظَّفِينَ في مُعامَلَةِ مَن لِنَظَرِهِمْ مِن صِغارِ المُوَظَّفِينَ، وكَذَلِكَ الآباءُ مَعَ أبْنائِهِمْ إذا بَلَغَتْ بِهِمُ الحَماقَةُ أنْ يَنْتَهِرُوهم عَلى اللَّعِبِ المُعْتادِ أوْ عَلى الضَّجَرِ مِنَ الآلامِ"[١٧٠].

﴿لَّا يَسْتَوِي ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٩٥].

⬅ عَنِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا- قَالَ: "لَمَّا نَزَلَتْ ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ دَعَا رَسُولُ اللهِ ﷺ زَيْدًا فَكَتَبَهَا، فَجَاءَ ابْنُ أُمِّ مَكْتُومٍ فَشَكَا ضَرَارَتَهُ فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ ﴿غَيْرَ أُولِي الضَّرَرِ﴾"[١٧١].

⬅ وَعَنْ زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ أَمْلَى عَلَيْهِ «لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ». قال: فَجَاءَهُ ابْنُ أُمِّ مَكْتُومٍ، وَهُوَ يُمِلُّها عَلَيَّ، فقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، وَاللهِ لَوْ أَسْتَطِيعُ الْجِهَادَ لَجَاهَدْتُ -وَكَانَ رَجُلًا أَعْمَى- فَأَنْزَلَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ ﷺ وَفَخِذُهُ عَلَى فَخِذِي، فَثَقُلَتْ عَلَيَّ حَتَّى خِفْتُ أَنْ تَرُضَّ فَخِذِي، ثُمَّ سُرِّيَ عَنْهُ، فَأَنْزَلَ اللهُ عزَّ وَجلَّ: ﴿غَيْرَ أُولِي الضَّرَرِ﴾»[١٧٢].

---

[١٧٠] التحرير والتنوير (٥/ص: ١٦٨).
[١٧١] أخرجه البخاري (٤٥٩٣)، ومسلم (١٨٩٨).
[١٧٢] أخرجه البخاري (٢٨٣٢).

❁ ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ عَنِ الْجِهَادِ ﴿غَيْرُ﴾ بَدَلٌ مِن ﴿الْقَاعِدُونَ﴾ عَلَى الْأَرْجَحِ، وَفِيهِ قِرَاءَةٌ أُخْرَى بِالنَّصْبِ[١٧٣] عَلَى أَنَّهَا مُسْتَثْنَى، ﴿أُولِي الضَّرَرِ﴾ هُمْ أَهْلُ الْأَعْذَارِ، وَقَدْ ذَكَرَهُمُ اللهُ تَعَالَى بِقَوْلِهِ: ﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾ [النور: ٦١].

وَبِقَوْلِهِ (لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لله وَرَسُولِهِ) [التوبة: ٩٢].

❁ ﴿وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ﴾ الْمَعْنَى: لَا مُسَاوَاةَ بَيْنَ الْقَاعِدِينَ لِغَيْرِ عُذْرٍ وَبَيْنَ الْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِ اللهِ، ﴿فَضَّلَ اللهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً﴾ فَضِيلَةً وَرِفْعَةً وَمَنْزِلَةً ﴿وَكُلًّا﴾ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ.

❁ ﴿وَعَدَ اللهُ الْحُسْنَى﴾ الْجَنَّةَ لِاشْتِرَاكِهِمْ فِي الْإِيمَانِ، "**وَفِيهِ دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّ الْجِهَادَ لَيْسَ بِفَرْضِ عَيْنٍ، بَلْ هُوَ فَرْضٌ عَلَى الْكِفَايَةِ**"[١٧٤].

❁ ﴿وَفَضَّلَ اللهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ لَا يَعْلَمُ عِظَمَهُ إِلَّا اللهُ تَعَالَى، وَفِي الْآيَةِ نَفْيُ التَّسَاوِي بَيْنَ الْقَاعِدِينَ عَنِ الْجِهَادِ وَالْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِ اللهِ.

➥ وَفَائِدَتُهُ:

✯ تَوْبِيخُ الْقَاعِدِينَ وَحَثُّهُمْ وَإِيقَاظُ هِمَمِهِمْ لِلْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللهِ.

✯ وَفِيهَا أَيْضًا أَنَّ الْقَاعِدِينَ لِعُذْرٍ يَسْتَوُونَ مَعَ الْمُجَاهِدِينَ فِي الْأَجْرِ وَالثَّوَابِ، بِشَرْطِ أَنْ يَكُونَ لَدَيْهِمْ رَغْبَةٌ صَادِقَةٌ فِي الْجِهَادِ، وَيَتَمَنَّوْنَ أَنَّهُ لَوْ زَالَ عُذْرُهُمْ لَخَرَجُوا مَعَ الْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِ اللهِ، لِمَفْهُومِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ﴾.

---

[١٧٣] وهي قراءة نافع وابن عامر والكسائي وأبي جعفر وخلف البزار.
[١٧٤] تفسير ابن كثير (١/ص: ٥٥٤).

❁ وَيَشْهَدُ لِهَذَا مَا يَلِي:

☆ **أَوَّلًا**: مَا أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِك -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ رَجَعَ مِنْ غَزْوَةِ تَبُوكَ فَدَنَا مِنَ الْمَدِينَةِ، فَقَالَ: «**إِنَّ بِالْمَدِينَةِ أَقْوَامًا، مَا سِرْتُمْ مَسِيرًا، وَلَا قَطَعْتُمْ وَادِيًا إِلَّا كَانُوا مَعَكُمْ، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، وَهُمْ بِالْمَدِينَةِ؟ قَالَ: وَهُمْ بِالْمَدِينَةِ، حَبَسَهُمُ الْعُذْرُ**»[١٧٥].

⬅ **وَعَنْ جَابِرٍ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- بِلَفْظِ (كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي غُزَاةٍ، فَقَالَ: إِنَّ بِالْمَدِينَةِ لِرِجَالًا مَا سِرْتُمْ مَسِيرًا، وَلَا قَطَعْتُمْ وَادِيًا، إِلَّا كَانُوا مَعَكُمْ، حَبَسَهُمُ الْمَرَضُ)**[١٧٦]. وَفِي رِوَايَةٍ (**إِلَّا شَرَكُوكُمْ فِي الْأَجْرِ**)[١٧٧]، فَفِي هَذَا الْحَدِيثِ الْعَظِيمِ أَنَّ الْمُؤْمِنَ قَدْ يَبْلُغُ بِنِيَّتِهِ مَا لَا يَبْلُغُهُ بِعَمَلِهِ إِنْ كَانَتْ نِيَّتُهُ صَادِقَةً.

⬅ **وَقَدْ وَرَدَ مِنْ حَدِيثِ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ مَرْفُوعًا (نِيَّةُ الْمُؤْمِنِ خَيْرٌ مِنْ عَمَلِهِ)**[١٧٨] ، وَهُوَ حَدِيثٌ ضَعِيفٌ لَا يَصِحُّ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، لَكِنَّ مَعْنَاهُ صَحِيحٌ وَيَدُلُّ عَلَى صِحَّةِ مَعْنَاهُ حَدِيثُ أَنَسٍ وَجَابِرٍ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا-.

☆ **ثَانِيًا**: مَا أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ عَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِذَا مَرِضَ الْعَبْدُ، أَوْ سَافَرَ، كُتِبَ لَهُ مِثْلَ مَا كَانَ يَعْمَلُ مُقِيمًا صَحِيحًا**»[١٧٩]. وَهَذَا الْحَدِيثُ مِنْ كَرَمِ اللهِ وَجُودِهِ حَيْثُ إِنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا كَانَ مِنْ عَادَتِهِ أَنْ يَعْمَلَ الْعَمَلَ الصَّالِحَ حَالَ صِحَّتِهِ أَوْ حَالَ إِقَامَتِهِ، ثُمَّ مَرِضَ أَوْ سَافَرَ وَلَمْ يَقْدِرْ عَلَى الْإِتْيَانِ بِهَذَا الْعَمَلِ لِهَذَا الْعُذْرِ، وَنِيَّتُهُ لَوْلَا الْعُذْرُ إِدَامَتُهُ وَاسْتِمْرَارُهُ، فَإِنَّهُ يُكْتَبُ لَهُ الْأَجْرُ كَامِلًا، فَنَحْمَدُ اللهَ عَلَى هَذَا حَمْدًا كَثِيرًا.

---

[١٧٥] أخرجه البخاري (٤٤٢٣).
[١٧٦] أخرجه مسلم (١٩١١).
[١٧٧] أخرجه مسلم (١٩١١).
[١٧٨] أخرجه القضاعي في مسند الشهاب (١٤٧)، والبيهقي في شعب الإيمان بعد حديث (٦٨٥٩).
[١٧٩] أخرجه البخاري (٢٩٩٦).

↩ وَقَدْ ذَكَرَ الْإِمَامُ ابْنُ الْقَيِّمِ –رَحِمَهُ اللهُ– "أَنَّ قَاعِدَةَ الشَّرِيعَةِ أَنَّ الْعَزْمَ التَّامَّ إِذَا اقْتَرَنَ بِهِ مَا يُمَكِّنُ مِنَ الْفِعْلِ أَوْ مُقَدِّمَاتِ الْفِعْلِ نَزَلَ صَاحِبُهُ فِي الثَّوَابِ وَالْعِقَابِ مَنْزِلَةَ الْفَاعِلِ التَّامِّ كَمَا دَلَّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ ﷺ: (إِذَا تَوَاجَهَ الْمُسْلِمَانِ بِسَيْفَيْهِمَا فَالْقَاتِلُ وَالْمَقْتُولُ فِي النَّارِ. قَالُوا: هَذَا الْقَاتِلُ، فَمَا بَالُ الْمَقْتُولِ؟ قَالَ: إِنَّهُ كَانَ حَرِيصًا عَلَى قَتْلِ صَاحِبِهِ)[١٨٠]".[١٨١]

☆ **ثَالِثًا:** مَا أَخْرَجَهُ الْإِمَامُ مُسْلِم مِنْ حَدِيثِ سَهْلِ بْنِ حُنَيْف –رَضِيَ اللهُ عَنْهُ– قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ سَأَلَ اللهَ بِصِدْقٍ بَلَّغَهُ اللهُ مَنَازِلَ الشُّهَدَاءِ وَإِنْ مَاتَ عَلَى فِرَاشِهِ».[١٨٢]

↩ **وَعَنْ أَنَسٍ –رَضِيَ اللهُ عَنْهُ– قَالَ:** قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ طَلَبَ الشَّهَادَةَ صَادِقًا أُعْطِيَهَا وَلَوْ لَمْ تُصِبْهُ»[١٨٣]. فَدَلَّ عَلَى أَنَّ مَنْ طَلَبَ الشَّهَادَةَ وَكَانَ صَادِقًا فِي طَلَبِهِ بَلَّغَهُ مَنَازِلَ الشُّهَدَاءِ وَإِنْ مَاتَ عَلَى فِرَاشِهِ.

↩ **فَحَاصِلُ مَا تَقَدَّمَ:** (أَنَّ الْقَاعِدَ لِعُذْرٍ إِذَا غَلَبَهُ عُذْرُهُ وَأَقْعَدَهُ عَنِ الْجِهَادِ وَنِيَّتِهِ، لَوْلَا الْعُذْرُ الَّذِي أَصَابَهُ لَمْ يَتَخَلَّفْ عَنِ الْجِهَادِ أَنَّ لَهُ أَجْرَ الْمُجَاهِدِ فِي سَبِيلِ اللهِ، وَأَمَّا الْمَعْذُورُ الَّذِي لَيْسَ مِنْ نِيَّتِهِ الْجِهَادُ وَلَا هُوَ عَازِمٌ عَلَيْهِ عَزْمًا تَامًّا فَهَذَا لَا يَسْتَوِي هُوَ وَالْمُجَاهِدُ فِي سَبِيلِ اللهِ)[١٨٤]–كَمَا ذَكَرَ ذَلِكَ الْعَلَّامَةُ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى رَحْمَةً وَاسِعَةً–.

﴿دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ٩٦].

✸ ﴿دَرَجَاتٌ مِنْهُ﴾ بَدَلٌ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿أَجْرًا عَظِيمًا﴾؛ أَيْ: هَذَا الْأَجْرُ الْعَظِيمُ مَنَازِلُ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ فِي الْجَنَّةِ، كَمَا وَرَدَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ –رَضِيَ اللهُ عَنْهُ– أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «فِي الْجَنَّةِ مِائَةُ دَرَجَةٍ أَعَدَّهَا اللهُ لِلْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِ اللهِ مَا بَيْنَ الدَّرَجَتَيْنِ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، فَإِذَا سَأَلْتُمُ اللهَ فَاسْأَلُوهُ الْفِرْدَوْسَ فَإِنَّهُ أَوْسَطُ الْجَنَّةِ وَأَعْلَى الْجَنَّةِ وَفَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ، وَمِنْهُ تَفَجَّرُ أَنْهَارُ الْجَنَّةِ».[١٨٥]

---

[١٨٠] أخرجه البخاري (٧٠٨٣)، ومسلم (٢٨٨٨).
[١٨١] طريق الهجرتين (٢/ص: ٧٨٤).
[١٨٢] أخرجه مسلم (١٩٠٩).
[١٨٣] أخرجه مسلم (١٩٠٨).
[١٨٤] الضوء المنير (٢/ص: ٢٧٨-٢٨٠).
[١٨٥] أخرجه البخاري (٢٧٩٠).

❁ ﴿وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً﴾ مَنْصُوبَانِ بِفِعْلِهِمَا الْمُقَدَّرِ؛ أَيْ: وَغَفَرَ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَرَحِمَهُمْ رَحْمَةً.

❁ **وَقِيلَ**: مَعْطُوفَةٌ عَلَى دَرَجَاتٍ، وَالْمَغْفِرَةُ: سَتْرُ الذَّنْبِ وَالتَّجَاوُزُ عَنْهُ، **وَالرَّحْمَةُ**: رَحْمَتُهُ تَعَالَى بِهِمْ بِدُخُولِهِمْ الْجَنَّةَ، وَقُدِّمَتْ الْمَغْفِرَةُ عَلَى الرَّحْمَةِ؛ لِأَنَّ التَّحْلِيَةَ قَبْلَ التَّحْلِيَةِ.

❁ ﴿وَكَانَ اللهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ وَالْآيَةُ فِيهَا أَنَّ الْجَنَّةَ دَرَجَاتٌ، وَأَنَّ أَهْلَهَا يَتَفَاوَتُونَ فِي النَّعِيمِ بِحَسَبِ دَرَجَتِهِمْ فِيهَا، وَأَنَّ اللهَ تَعَالَى قَدْ وَعَدَ الْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِهِ بِمَنَازِلَ عَالِيَةٍ فِي الْجَنَّةِ.

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَلآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٢١].

قَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ: "**وَالْجَنَّةُ دَرَجَاتٌ، مُتَفَاضِلَةٌ تَفَاضُلًا عَظِيمًا، وَأَوْلِيَاءُ اللهِ الْمُؤْمِنُونَ الْمُتَّقُونَ فِي تِلْكَ الدَّرَجَاتِ بِحَسَبِ إِيمَانِهِمْ وَتَقْوَاهُمْ**".[١٨٦] وَقَالَ ابْنُ عَطِيَّةَ: "**وَكُلُّ مَنْ فِيهَا فَقَدْ رُزِقَ الرِّضَا بِحَالِهِ، وَذَهَبَ عَنْهُ أَنْ يَعْتَقِدَ أَنَّهُ مَفْضُولٌ، وَإِنْ كُنَّا نَحْنُ قَدْ عَلِمْنَا مِنَ الشَّرِيعَةِ أَنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ تَخْتَلِفُ مَرَاتِبُهُمْ عَلَى قَدْرِ أَعْمَالِهِمْ، وَعَلَى قَدْرِ فَضْلِ اللهِ عَلَى مَنْ شَاءَ**".[١٨٧]

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: ٩٧].

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا- "أَنَّ نَاسًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ كَانُوا مَعَ الْمُشْرِكِينَ، يُكَثِّرُونَ سَوَادَ الْمُشْرِكِينَ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، يَأْتِي السَّهْمُ فَيُرْمَى بِهِ، فَيُصِيبُ أَحَدَهُمْ فَيَقْتُلُهُ، أَوْ يُضْرَبُ فَيُقْتَلُ، فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ﴾.[١٨٨]

❁ ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ﴾ بِالْمُقَامِ مَعَ الْكُفَّارِ وَتَرْكِهِمُ الْهِجْرَةَ عَنْ مَكَّةَ الَّتِي لَا يُمْكِنُهُمْ فِيهَا إِظْهَارُ دِينِهِمْ مَعَ قُدْرَتِهِمْ عَلَيْهَا، ﴿قَالُوا﴾ لَهُمُ الْمَلَائِكَةُ مُوَبِّخِينَ ﴿فِيمَ كُنْتُمْ﴾؛ أي: عَلَى أَيِّ حَالٍ كُنْتُمْ؟! وَبِأَيِّ شَيْءٍ تَمَيَّزْتُمْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ؟!

---

[١٨٦] الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان، ص: ٤٣.
[١٨٧] تفسير ابن عطية (٢/ص: ٧٦).
[١٨٨] أخرجه البخاري (٤٥٩٦).

❁ ﴿قَالُوا﴾ مُعْتَذِرِينَ ﴿كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ﴾ عَاجِزِينَ عَنِ الْهِجْرَةِ وَإِظْهَارِ الدِّينِ فِي مَكَّةَ ﴿قَالُوا﴾ لَهُمُ الْمَلَائِكَةُ تَكْذِيبًا لَهُمْ ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا﴾ مِنْ أَرْضِ الْكُفْرِ إِلَى أَرْضٍ أُخْرَى تَتَمَكَّنُونَ فِيهَا مِنْ إِظْهَارِ دِينِكُمْ كَمَا فَعَلَ مَنْ هَاجَرَ إِلَى الْحَبَشَةِ وَإِلَى الْمَدِينَةِ.

➥ **قَالَ الْقُرْطُبِيُّ -رَحِمَهُ اللهُ-:** "وَفِي هَذِهِ الْآيَةِ دَلِيلٌ عَلَى هِجْرَانِ الْأَرْضِ الَّتِي يُعْمَلُ فِيهَا بِالْمَعَاصِي، وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: إِذَا عُمِلَ بِالْمَعَاصِي فِي أَرْضٍ فَاخْرُجْ مِنْهَا، وَتَلَا (أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا) وَرُوِيَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: (مَنْ فَرَّ بِدِينِهِ مِنْ أَرْضٍ إِلَى أَرْضٍ وَإِنْ كَانَ شِبْرًا اسْتَوْجَبَ الْجَنَّةَ وَكَانَ رَفِيقَ إِبْرَاهِيمَ وَمُحَمَّدٍ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ).[١٨٩]

وَالْحَدِيثُ الَّذِي ذَكَرَهُ حَدِيثٌ مُرْسَلٌ وَلَا يَصِحُّ مَرْفُوعًا؛ لِأَنَّهُ مِنْ رِوَايَةِ الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ وَهُوَ تَابِعِيٌّ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ.

❁ ﴿فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ وَالْآيَةُ فِيهَا وُجُوبُ الْهِجْرَةِ مِنْ بَلَدِ الْكُفْرِ إِلَى بَلَدِ الْإِسْلَامِ، وَهِيَ بَاقِيَةٌ إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ.

➥ **كَمَا دَلَّ عَلَى ذَلِكَ حَدِيثُ مُعَاوِيَةَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- قَالَ:** قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**لَا تَنْقَطِعُ الْهِجْرَةُ حَتَّى تَنْقَطِعَ التَّوْبَةُ، وَلَا تَنْقَطِعُ التَّوْبَةُ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا**».[١٩٠]

كَمَا أَنَّ فِي الْآيَةِ الْوَعِيدَ الشَّدِيدَ عَلَى مَنْ تَرَكَ الْهِجْرَةَ وَهُوَ قَادِرٌ عَلَيْهَا وَأَقَامَ بَيْنَ ظَهْرَانَيْ الْمُشْرِكِينَ، وَأَنَّهَا مِنْ كَبَائِرِ الذُّنُوبِ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ وَهَذَا فِي حَقِّ مَنْ لَمْ يَتَمَكَّنْ مِنْ إِظْهَارِ دِينِهِ، أَمَّا مَنْ تَمَكَّنَ مِنْ إِظْهَارِ دِينِهِ فَلَا تَجِبُ عَلَيْهِ الْهِجْرَةُ، بَلْ هِيَ مُسْتَحَبَّةٌ فِي حَقِّهِ، وَإِذَا كَانَ فِي بَقَائِهِ بَيْنَ أَظْهُرِهِمْ مَصْلَحَةٌ دِينِيَّةٌ كَدَعْوَتِهِمْ إِلَى الْإِسْلَامِ فَلَا تُسْتَحَبُّ الْهِجْرَةُ فِي حَقِّهِ، وَاللهُ تَعَالَى لَمْ يَأْمُرْ نَبِيَّهُ ﷺ بِالْهِجْرَةِ إِلَّا لَمَّا مَنَعَهُ كُفَّارُ قُرَيْشٍ مِنْ إِظْهَارِ دِينِهِ وَدَعْوَتِهِ، وَهَكَذَا الْأَنْبِيَاءُ قَبْلَهُ لَمْ يُغَادِرُوا أَرْضَ قَوْمِهِمْ إِلَّا لَمَّا مَنَعُوهُمْ مِنْ إِظْهَارِ دَعْوَتِهِمْ.

---

[١٨٩] تفسير القرطبي (٥/ص: ٣٤٦).
[١٩٠] أخرجه أبو داود (٢٤٧٩) بإسناد صحيح.

﴿إِلَّا ٱلۡمُسۡتَضۡعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلۡوِلۡدَٰنِ لَا يَسۡتَطِيعُونَ حِيلَةٗ وَلَا يَهۡتَدُونَ سَبِيلٗا﴾ [النساء: ٩٨].

وَلَمَّا تَوَعَّدَ اللهُ تَعَالَى عَلَى مَنْ تَرَكَ الْهِجْرَةَ اسْتَثْنَى أَهْلَ الْأَعْذَارِ فَقَالَ: ﴿إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ﴾ لِعَمًى أَوْ عَرَجٍ أَوْ مَرَضٍ أَوْ فَقْرٍ وَنَحْوِ ذَلِكَ، ﴿وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً﴾ الَّذِينَ لَا قُوَّةَ لَهُمْ عَلَى الْهِجْرَةِ لِعَجْزِهِمْ وَفَقْرِهِمْ، ﴿وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا﴾ طَرِيقًا تُوصِلُهُمْ إِلَى أَرْضِ الْإِسْلَامِ.

➥ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا-: (كُنْتُ أَنَا وَأُمِّي مِمَّنْ عَذَرَ اللهُ تَعَالَى بِقَوْلِهِ: ﴿إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا﴾)،[١٩١] وَيُفْهَمُ مِنَ الْآيَةِ أَنَّ هَؤُلَاءِ الْمَذْكُورِينَ إِذَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ أَيَّ حِيلَةٍ وَيَعْرِفُونَ أَيَّ طَرِيقٍ لِلْهِجْرَةِ وَجَبَ عَلَيْهِمْ ذَلِكَ.

﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعۡفُوَ عَنۡهُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوّٗا غَفُورٗا﴾ [النساء: ٩٩].

❁ ﴿فَأُولَئِكَ﴾ الْمَذْكُورُونَ ﴿عَسَى اللهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ﴾ بِتَرْكِ الْهِجْرَةِ، وَعَسَى مِنَ اللهِ وَاجِبٌ، ﴿وَكَانَ اللهُ عَفُوًّا﴾؛ أَيْ: يَمْحُو الذَّنْبَ فَلَا يُؤَاخِذُ عَلَيْهِ ﴿عَفُوًّا﴾ وَأَصْلُ الْمَغْفِرَةِ التَّغْطِيَةُ وَالسَّتْرُ، وَمَعْنَاهُ السَّاتِرُ لِذُنُوبِ عِبَادِهِ وَعُيُوبِهِمْ الْمُتَجَاوِزُ عَنْ خَطَايَاهُمْ وَذُنُوبِهِمْ.

➥ "فَإِنْ قُلْتَ مَا الْفَرْقُ بَيْنَ الْعَفْوِ وَالْغَفُورِ؟ فَالْجَوَابُ: الْعَفْوُ: تَرْكُ الْمُؤَاخَذَةِ بِالذَّنْبِ، وَالْمَغْفِرَةُ تَقْتَضِي مَعَ ذَلِكَ السَّتْرَ، وَالرَّحْمَةُ تَجْمَعُ ذَلِكَ مَعَ التَّفَضُّلِ بِالْإِنْعَامِ"[١٩٢]. قَالَهُ ابْنُ جُزَيٍّ -رَحِمَهُ اللهُ- فَتَبَيَّنَ مِنْ كَلَامِهِ -رَحِمَهُ اللهُ- أَنَّ الْغَفُورَ أَبْلَغُ مِنَ الْعَفُوِّ، إِذْ الْعَفْوُ قَدْ يُعَاتِبُ عَلَى الذَّنْبِ، أَمَّا الْغَفُورُ فَلَا، وَاللهُ أَعْلَمُ.

[١٩١] أخرجه البخاري (٤٥٨٧).
[١٩٢] التسهيل لعلوم التنزيل (١/ص: ١٤٣).

﴿وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِي ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ۚ وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ١٠٠].

❁ ﴿وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللهِ﴾ فِرَارًا بِدِينِهِ ﴿يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَمًا﴾ مُهَاجَرًا وَمَكَانًا يَتَحَوَّلُ إِلَيْهِ، و (مُرَاغَمًا) مَفْعُولٌ بِهِ، وَ﴿كَثِيرًا﴾ صِفَةٌ ﴿وَسَعَةً﴾ فِي كُلِّ شَيْءٍ، سَعَةٌ فِي إِظْهَارِ دِينِهِ، وَسَعَةٌ فِي رِزْقِهِ وَعَيْشِهِ، وَسَعَةٌ فِي انْشِرَاحِ صَدْرِهِ وَطُمَأْنِينَتِهِ، وَهَذِهِ الْآيَةُ فِيهَا الْحَثُّ عَلَى الْهِجْرَةِ وَالتَّنْشِيطُ إِلَيْهَا، وَلَا بُدَّ أَنْ تَكُونَ بِقَصْدٍ صَحِيحٍ، وَنِيَّةٍ خَالِصَةٍ غَيْرِ مَشُوبَةٍ بِشَيْءٍ مِنْ أُمُورِ الدُّنْيَا، لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللهِ﴾.

➥ وَلِحَدِيثِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ –رَضِيَ اللهُ عَنْهُ– قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى، فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ، فَهِجْرَتُهُ إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ وَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى دُنْيَا يُصِيبُهَا أَوْ امْرَأَةٍ يَتَزَوَّجُهَا فَهِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ».[١٩٣]

❁ ﴿وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ﴾ فِي الطَّرِيقِ ﴿فَقَدْ وَقَعَ﴾ ثَبَتَ ﴿أَجْرُهُ عَلَى اللهِ﴾ اللهُ أَكْبَرُ، نَسْأَلُ اللهَ تَعَالَى الْكَرِيمَ مِنْ فَضْلِهِ، وَنَسْأَلُهُ سُبْحَانَهُ حُسْنَ الْخِتَامِ إِنَّهُ وَلِيُّ ذَلِكَ وَالْقَادِرُ عَلَيْهِ.

❁ ﴿وَكَانَ اللهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ قَالَ الْعُلَمَاءُ "كُلُّ هِجْرَةٍ لِطَلَبِ عِلْمٍ، أَوْ حَجٍّ، أَوْ جِهَادٍ، أَوْ فِرَارٍ إِلَى بَلَدٍ يَزْدَادُ فِيهِ طَاعَةً، أَوْ قَنَاعَةً، أَوْ زُهْدًا، أَوْ ابْتِغَاءَ رِزْقٍ طَيِّبٍ، فَهِيَ هِجْرَةٌ إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ، وَإِنْ أَدْرَكَهُ الْمَوْتُ فِي طَرِيقِهِ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللهِ"[١٩٤].

[١٩٣] أخرجه البخاري (١)، ومسلم (١٩٠٧).
[١٩٤] مدارك التنزيل وحقائق التأويل للنسفي (١/ص: ٣٨٩).

﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا۟ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ كَانُوا۟ لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾ [النساء: ١٠١].

❁ ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ﴾ سَافَرْتُمْ ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ وَظَاهِرُ الْآيَةِ أَنَّ لِلْمُسَافِرِ التَّرَخُّصَ فِي كُلِّ سَفَرٍ وَلَوْ كَانَ سَفَرَ مَعْصِيَةٍ كَمَا هُوَ مَذْهَبُ أَبِي حَنِيفَةَ -رَحِمَهُ اللهُ-، وَاخْتَارَهُ ابْنُ حَزْمٍ وَابْنُ تَيْمِيَّةَ لِعُمُومِ النُّصُوصِ.

➥ **وَالْقَوْلُ الثَّانِي وَهُوَ الْمَشْهُورُ مِنَ الْمَذْهَبِ وَهُوَ قَوْلُ مَالِكٍ وَالشَّافِعِيِّ -رَحْمَةُ اللهِ عَلَى الْجَمِيعِ-** : أَنَّهُ لَا يَجُوزُ لِلْعَاصِي أَنْ يَتَرَخَّصَ بِأَحْكَامِ السَّفَرِ، تَخْصِيصًا لِلْآيَةِ بِالْمَعْنَى وَالْمُنَاسَبَةِ، فَإِنَّ الرُّخْصَةَ سُهُولَةٌ مِنَ اللهِ لِعِبَادِهِ إِذَا سَافَرُوا أَنْ يُقْصِرُوا وَيُفْطِرُوا، وَالْعَاصِي بِسَفَرِهِ لَا يُنَاسِبُ حَالُهُ التَّخْفِيفَ.

➥ **قَالَ ابْنُ قُدَامَةَ فِي الْمُغْنِي:** "وَلِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلا عَادٍ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ [البقرة: ١٧٣] أَبَاحَ الْأَكْلَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ عَادِيًا وَلَا بَاغِيًا، فَلَا يُبَاحُ لِبَاغٍ وَلَا عَادٍ، وَلِأَنَّ التَّرَخُّصَ شُرِعَ لِلْإِعَانَةِ عَلَى تَحْصِيلِ الْمَقْصِدِ الْمُبَاحِ تَوَصُّلًا لِلْمَصْلَحَةِ، فَلَوْ شُرِعَ هُنَا لَشُرِعَ إِعَانَةً عَلَى الْمُحَرَّمِ تَحْصِيلًا لِلْمَفْسَدَةِ، وَالشَّرْعُ مُنَزَّهٌ عَنْ هَذَا، وَيَتَعَيَّنُ حَمْلُهُ عَلَى ذَلِكَ جَمْعًا بَيْنَ النَّصَّيْنِ".[١٩٥]

❁ وَفِي قَوْلِه تَعَالَى: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُ لَا يَجُوزُ التَّرَخُّصُ بِأَحْكَامِ السَّفَرِ إِلَّا إِذَا شَرَعَ الْمُسَافِرُ فِي السَّفَرِ وَفَارَقَ بُنْيَانَ بَلَدِهِ وَهَذَا قَوْلُ عَامَّةِ أَهْلِ الْعِلْمِ.

❁ ﴿فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ﴾ حَرَجٌ فِي ﴿أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾؛ أَيْ: إِنْ خَشِيتُمْ أَنْ يَنَالَكُمُ الْكُفَّارُ بِمَكْرُوهٍ، وَظَاهِرُ الْآيَةِ أَنَّ الْخَوْفَ شَرْطٌ فِي جَوَازِ الْقَصْرِ، وَقَدْ قَالَ بِهِ بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ، وَالصَّوَابُ أَنَّ هَذَا الشَّرْطَ بَيَانٌ لِلْوَاقِعِ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ فَلَا مَفْهُومَ لَه.

[١٩٥] المغني (٣/ص: ١١٥).

⬅ بِدَلِيلِ مَا وَرَدَ عَنْ يَعْلَى بْنِ أُمَيَّةَ –رَضِيَ اللهُ عَنْهُ– قَالَ: (سَأَلْتُ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ –رَضِيَ اللهُ عَنْهُ– قُلْت: فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا، وَقَدْ أَمَّنَ اللهُ النَّاسَ؟ فَقَالَ لِي عُمَرُ –رَضِيَ اللهُ عَنْهُ–: عَجِبْتُ مِمَّا عَجِبْتَ مِنْهُ، فَسَأَلْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ عَنْ ذَلِكَ فَقَالَ: (صَدَقَةٌ تَصَدَّقَ اللهُ بِهَا عَلَيْكُمْ، فَاقْبَلُوا صَدَقَتَهُ)،[١٩٦] وَقَدْ كَانَ ﷺ يَقْصُرُ هُوَ وَأَصْحَابُهُ فِي السَّفَرِ وَهُمْ فِي غَايَةِ الْأَمْنِ، كَمَا وَقَعَ فِي حَجَّةِ الْوَدَاعِ.

⬅ وَثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ ابْنِ عُمَرَ –رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا– قَالَ: "صَحِبْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ، فَكَانَ لَا يَزِيدُ فِي السَّفَرِ عَلَى رَكْعَتَيْنِ، وَأَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ وَعُثْمَانَ كَذَلِكَ، رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ"[١٩٧]، وَلَيْسَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ﴾ دَلِيلٌ أَنَّ الْقَصْرَ رُخْصَةٌ، لَا وَاجِبٌ كَمَا قَالَهُ بَعْضُهُمْ؛ لِأَنَّ نَفْيَ الْإِثْمِ وَالْحَرَجِ عَمَّنْ قَصَرَ الصَّلَاةَ إِنَّمَا هُوَ لِإِزَالَةِ مَا قَدْ يُتَوَهَّمُ أَنَّهُ لَا يَجُوزُ الْقَصْرُ، وَهَذَا لَا يُنَافِي كَوْنَ الْقَصْرِ وَاجِبًا.

كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾ [البقرة: ١٥٨]، وَالسَّعْيُ إِمَّا رُكْنٌ أَوْ وَاجِبٌ عِنْدَ عَامَّةِ أَهْلِ الْعِلْمِ.

✹ **فَالْحَاصِلُ**: أَنَّ الْآيَةَ لَيْسَ فِيهَا دَلَالَةٌ عَلَى عَدَمِ وُجُوبِ الْقَصْرِ فِيمَا يَظْهَرُ، وَإِنَّمَا يُنْظَرُ فِي الْأَدِلَّةِ الْأُخْرَى، وَهَذِهِ الْمَسْأَلَةُ اخْتَلَفَ فِيهَا أَهْلُ الْعِلْمِ، فَالْمَشْهُورُ مِنَ الْمَذْهَبِ وَهُوَ قَوْلُ الْجُمْهُورِ أَنَّهُ يَجُوزُ لِلْمُسَافِرِ أَنْ يُتِمَّ، وَالْقَصْرُ أَفْضَلُ اقْتِدَاءً بِالنَّبِيِّ ﷺ.

✹ **وَالْقَوْلُ الثَّانِي**: أَنَّ الْقَصْرَ وَاجِبٌ وَبِهِ قَالَ جَمَاعَةٌ مِنَ السَّلَفِ وَهُوَ مَذْهَبُ أَبِي حَنِيفَةَ، وَالْأَظْهَرُ الْقَوْلُ الْأَوَّلُ؛ لِأَنَّ عُثْمَانَ وَعَائِشَةَ –رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا– أَتَمَّا الصَّلَاةَ فِي السَّفَرِ، وَقَدْ تَابَعَ الصَّحَابَةُ –رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ– عُثْمَانَ –رَضِيَ اللهُ عَنْهُ– وَلَوْ كَانَ وَاجِبًا لَمَا تَابَعُوهُ عَلَى الْإِتْمَامِ.

✹ ﴿إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُبِينًا﴾ فَلَا يُبَالُونَ بِمَكَانَةِ الصَّلَاةِ وَحُرْمَتِهَا.

---

[١٩٦] أخرجه مسلم (٦٨٦).
[١٩٧] أخرجه البخاري (١١٠٢) واللفظ له، ومسلم (٦٨٩).

﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓاْ أَسْلِحَتَهُمْۖ فَإِذَا سَجَدُواْ فَلْيَكُونُواْ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّواْ فَلْيُصَلُّواْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُواْ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْۗ وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَٰحِدَةًۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓاْ أَسْلِحَتَكُمْۖ وَخُذُواْ حِذْرَكُمْۗ إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ [النساء: ١٠٢].

➥ أَخْرَجَ أَبُودَاوُدُ وَالنَّسَائِيُّ عَنْ أَبِي عَيَّاش الزُّرَقِيّ –رَضِيَ اللهُ عَنْهُ– قَالَ: (كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ بِعُسْفَانَ، فَصَلَّى بِنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ صَلَاةَ الظُّهْرِ، وَعَلَى الْمُشْرِكِينَ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ، فَقَالَ الْمُشْرِكُونَ: لَقَدْ أَصَبْنَا مِنْهُمْ غِرَّةً، وَلَقَدْ أَصَبْنَا مِنْهُمْ غَفْلَةً. فَأَنْزَلَ اللهُ صَلَاةَ الْخَوْفِ بَيْنَ الظُّهْرِ وَالْعَصْرِ، فَصَلَّى بِنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ صَلَاةَ الْعَصْرِ، فَفَرَّقْنَا، يَعْنِي: فِرْقَتَيْنِ، فِرْقَةٌ تُصَلِّي مَعَ النَّبِيِّ ﷺ، وَفِرْقَةٌ تُصَلِّي خَلْفَهُمْ يَحْرُسُونَهُمْ، ثُمَّ كَبَّرَ، فَكَبَّرُوا جَمِيعًا وَرَكَعُوا جَمِيعًا، ثُمَّ سَجَدَ الَّذِينَ يَلُونَ رَسُولَ اللهِ ﷺ، ثُمَّ قَامَ، فَتَقَدَّمَ الْآخَرُونَ فَسَجَدُوا، ثُمَّ قَامَ فَرَكَعَ بِهِمْ جَمِيعًا، ثُمَّ سَجَدَ بِالَّذِينَ يَلُونَهُ، حَتَّى تَأَخَّرَ هَؤُلَاءِ فَقَامُوا فِي مَصَافِّ أَصْحَابِهِمْ، ثُمَّ تَقَدَّمَ الْآخَرُونَ فَسَجَدُوا، ثُمَّ سَلَّمَ عَلَيْهِمْ. فَكَانَتْ لِكُلِّهِمْ رَكْعَتَيْنِ مَعَ إِمَامِهِمْ. وَصَلَّى مَرَّةً أُخْرَى فِي أَرْضِ بَنِي سُلَيْمٍ).[١٩٨]

❁ ﴿وَإِذَا كُنْتَ﴾ يَا مُحَمَّدُ ﴿فِيهِمْ﴾ فِي أَصْحَابِكَ وَقْتَ مُلَاقَاةِ الْعَدُوِّ ﴿فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ﴾؛ أَيْ: فَأَرَدْتَ أَنْ تُصَلِّيَ بِهِمْ فَاجْعَلْهُمْ طَائِفَتَيْنِ ﴿طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ﴾ وَتَتَأَخَّرَ طَائِفَةٌ ﴿وَلْيَأْخُذُوا﴾؛ أَيْ: الطَّائِفَةُ الَّتِي قَامَتْ مَعَكَ ﴿أَسْلِحَتَهُمْ﴾ مَعَهُمْ ﴿فَإِذَا سَجَدُوا﴾؛ أَيْ: صَلُّوا ﴿فَلْيَكُونُوا﴾؛ أَيْ: الطَّائِفَةُ الْأُخْرَى ﴿مِنْ وَرَائِكُمْ﴾ يَحْرُسُونَكُمْ إِلَى أَنْ تَقْضُوا الصَّلَاةَ وَتَذْهَبَ هَذِهِ الطَّائِفَةُ تَحْرُسُ.

❁ ﴿وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا﴾ لِاشْتِغَالِهِمْ بِالْحِرَاسَةِ ﴿فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ﴾ مَعَهُمْ إِلَى أَنْ تَقْضُوا الصَّلَاةَ.

[١٩٨] أخرجه أبو داود (١٢٣٦)، والنسائي (١٥٥٠).

➥ وَقَدْ ثَبَتَ عَنْ صَالِحِ بْنِ خَوَّاتٍ، (عَمَّنْ صَلَّى مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ يَوْمَ ذَاتِ الرِّقَاعِ صَلَاةَ الْخَوْفِ، أَنَّ طَائِفَةً صَلَّتْ مَعَهُ، وَطَائِفَةٌ وِجَاهَ الْعَدُوِّ، فَصَلَّى بِالَّذِينَ مَعَهُ رَكْعَةً، ثُمَّ ثَبَتَ قَائِمًا، فَأَتَمُّوا لِأَنْفُسِهِمْ ثُمَّ انْصَرَفُوا، فَصَفُّوا وِجَاهَ الْعَدُوِّ، وَجَاءَتِ الطَّائِفَةُ الْأُخْرَى فَصَلَّى بِهِمْ الرَّكْعَةَ الَّتِي بَقِيَتْ مِنْ صَلَاتِهِ ثُمَّ ثَبَتَ جَالِسًا، وَأَتَمُّوا لِأَنْفُسِهِمْ، ثُمَّ سَلَّمَ بِهِمْ).[١٩٩]

➥ وَرَوَى سَهْلُ بْنُ حَثْمَةَ مِثْلَ ذَلِكَ،[٢٠٠] قَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ إمَامُ أَهْلِ الْحَدِيثِ وَالْمُقَدَّمُ فِي مَعْرِفَةِ عِلَلِ النَّقْلِ فِيهِ: "لَا أَعْلَمُ أَنَّهُ رُوِيَ فِي صَلَاةِ الْخَوْفِ إلَّا حَدِيثٌ ثَابِتٌ، وَكُلُّهَا صِحَاحٌ ثَابِتَةٌ، فَعَلَى أَيِّ حَدِيثٍ صَلَّى مِنْهَا الْمُصَلِّي صَلَاةَ الْخَوْفِ أَجْزَأَهُ ذَلِكَ إنْ شَاءَ اللهُ"[٢٠١]. وَاخْتَارَ -رَحِمَهُ اللهُ- مَا وَرَد فِي حَدِيثِ سَهْلٍ وَصَالِحِ بْنِ خَوَّاتٍ؛ لِأَنَّهَا أَشْبَهُ بِالصِّفَةِ الْمَذْكُورَةِ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، وَفِيهَا احْتِيَاطٌ لِلصَّلَاةِ وَاحْتِيَاطٌ لِلْحَرْبِ وَفِيهَا نِكَايَةٌ بِالْعَدُوِّ.

❁ ﴿وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾؛ أَيْ: يَتَمَنَّى الْكُفَّارُ الْمُحَارِبُونَ لَكُمْ ﴿لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ﴾ وَقْتَ إقَامَةِ الصَّلَاةِ ﴿فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً﴾ بِالْقِتَالِ، وَهَذَا عِلَّةُ الْأَمْرِ بِأَخْذِ السِّلَاحِ وَهُوَ لِلْوُجُوبِ عَلَى الصَّحِيحِ.

ثُمَّ رَخَّصَ لَهُمُ الشَّارِعُ فِي عَدَمِ حَمْلِ السِّلَاحِ لِلْعُذْرِ فَقَالَ: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذًى مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ﴾؛ لِأَنَّ السِّلَاحَ يَثْقُلُ حَمْلُهُ فِي هَاتَيْنِ الْحَالَتَيْنِ ﴿وَخُذُوا حِذْرَكُمْ﴾؛ أَيْ: كُونُوا عَلَى حَذَرٍ شَدِيدٍ مِنَ الْعَدُوِّ؛ كَيْلَا يَهْجُمَ عَلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ تُصَلُّونَ، ﴿إِنَّ اللهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾.

﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ ۚ فَإِذَا ٱطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا﴾ [النساء: ١٠٣].

❁ ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ﴾؛ أَيْ: فَإِذَا فَرَغْتُمْ مِنَ الصَّلَاةِ ﴿فَاذْكُرُوا اللهَ﴾ بِالتَّهْلِيلِ وَالتَّسْبِيحِ وَالتَّحْمِيدِ وَالتَّكْبِيرِ ﴿قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِكُمْ﴾؛ أَيْ: فِي سَائِرِ أَحْوَالِكُمْ ﴿فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ﴾ أَمِنْتُمْ وَزَالَ

[١٩٩] أخرجه البخاري (٤١٢٩)، ومسلم (٨٤٢).
[٢٠٠] أخرجه مسلم (٨٤١).
[٢٠١] سنن الترمذي (١/ص: ٥٦٥)، والتمهيد لابن عبدالبر (١٥/ص: ٢٦٩).

الْخَوْفُ مِنْكُمْ، ﴿فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ أَدُّوهَا كَامِلَةً بِشُرُوطِهَا وَأَرْكَانِهَا وَوَاجِبَاتِهَا وَالْحِرْصِ عَلَى الْخُشُوعِ فِيهَا.

❁ ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا﴾ مَكْتُوبًا؛ أَيْ: مَفْرُوضًا ﴿مَوْقُوتًا﴾؛ أَيْ: مُقَدَّرًا وَقْتُهَا فِي أَوْقَاتٍ مَعْلُومَةٍ فَلَا تُؤَخَّرُ عَنْهُ إِلَّا لِعُذْرٍ، **وَفِي الْآيَةِ** مَشْرُوعِيَّةُ الذِّكْرِ عَلَى كُلِّ حَالٍ، وَوُجُوبُ أَدَاءِ الصَّلَاةِ فِي وَقْتِهَا، وَأَنَّ دُخُولَ الْوَقْتِ مِنْ أَعْظَمِ شُرُوطِ الصَّلَاةِ وَلَا يَجُوزُ الْإِخْلَالُ بِهِ، وَقَدْ اتَّفَقَ الْعُلَمَاءُ عَلَى تَحْرِيمِ تَأْخِيرِ الصَّلَاةِ حَتَّى يَخْرُجَ وَقْتُهَا بِلَا عُذْرٍ شَرْعِيٍّ.

﴿وَلَا تَهِنُوا فِي ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ ۖ إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٠٤].

❁ ﴿وَلَا تَهِنُوا﴾ تَضْعُفُوا ﴿فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ﴾؛ أَيْ: فِي طَلَبِ قِتَالِ عَدُوِّكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ ﴿إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ﴾ تَجِدُونَ أَلَمَ الْقَتْلِ وَمَا دُونَهُ مِنَ الْجِرَاحِ وَغَيْرِ ذَلِكَ ﴿فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ﴾؛ أَيْ: أَنْتُمْ وَإِيَّاهُمْ سَوَاءٌ بَلْ هُمْ أَشَدُّ، فَأَلَمُ الْقَتْلِ وَالْجِرَاحِ الَّتِي تَحُسُّونَهَا هُمْ يُحِسُّونَ مِثْلَهَا أَوْ أَشَدَّ مِنْهَا، وَفِي هَذَا تَسْلِيَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ.

❁ ﴿وَتَرْجُونَ مِنَ اللهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾ وَفِي هَذَا تَشْجِيعٌ وَتَرْغِيبٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَحَثٌّ لَهُمْ، فَهَذَا هُوَ الْفَرْقُ الْعَظِيمُ بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْكَافِرِينَ، أَنَّ الْمُؤْمِنِينَ يَرْجُونَ مِنَ اللهِ النَّصْرَ وَالتَّأْيِيدَ فِي الدُّنْيَا وَالثَّوَابَ فِي الْآخِرَةِ، وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا يَرْجُونَ مِنَ اللهِ شَيْئًا، وَشَتَّانَ بَيْنَ مَنْ يَرْجُو اللهَ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ وَمَنْ لَا يَرْجُو شَيْئًا، وَالْعِيَاذُ بِاللهِ.

❁ ﴿وَكَانَ اللهُ عَلِيمًا﴾ بِكُلِّ شَيْءٍ مِنْ أَحْوَالِكُمْ وَأَحْوَالِهِمْ ﴿حَكِيمًا﴾ فِي أَمْرِهِ وَشَرْعِهِ، وَهَذِهِ الْآيَةُ كَقَوْلِهِ: ﴿وَلا تَهِنُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٩]، وَقَوْلِهِ: ﴿إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ﴾ [آل عمران: ١٤٨]، وقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَلا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنْتُمُ الأَعْلَوْنَ وَاللهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ﴾ [محمد: ٣٥].

﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِتَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُۚ وَلَا تَكُن لِّلۡخَآئِنِينَ خَصِيمٗا﴾ [النساء: ١٠٥].

ذَكَرَ الْمُفَسِّرُونَ أَنَّ طُعْمَةَ بْنَ أُبَيْرِق سَرَقَ دِرْعًا مِنْ دَارِ جَارٍ لَهُ يُقَالُ لَهُ قَتَادَةُ بْنُ النُّعْمَانِ، فَلَمَّا خَافَ أَنْ تَظْهَرَ عَلَيْهِ خَبَّأَهَا عِنْدَ يَهُودِيٍّ، فَوُجِدَتْ عِنْدَهُ فَرَمَى طُعْمَةُ بِهَا وَحَلَفَ أَنَّهُ مَا سَرَقَهَا فَسَأَلَ قَوْمُهُ النَّبِيَّ ﷺ أَنْ يُجَادِلَ عَنْهُ وَيُبَرِّئَهُ فَنَزَلَ ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ﴾ الْقُرْآنَ ﴿بِالْحَقِّ﴾؛ أَيْ: مُشْتَمِلًا عَلَى الْحَقِّ الَّذِي لَا عِوَجَ فِيهِ وَلَا مَيْلَ ﴿لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللهُ﴾ بِمَا أَوْحَى اللهُ إِلَيْكَ وَعَلَّمَكَ، وَالْفِعْلُ (أَرَاكَ) مُتَعَدٍّ لِاثْنَيْنِ أَحَدُهُمَا الْعَائِدُ الْمَحْذُوفُ وَالْآخَرُ كَافُ الْخِطَابِ، وَالتَّقْدِيرُ : بِمَا أَرَاكَهُ اللهُ.

﴿وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ﴾ وَالْخَائِنُ الَّذِي يَأْخُذُ الْحَقَّ وَيَجْحَدُهُ ﴿خَصِيمًا﴾ مُخَاصِمًا عَنْهُمْ.

﴿وَٱسۡتَغۡفِرِ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾ [النساء: ١٠٦].

﴿وَاسْتَغْفِرِ اللهَ﴾؛ أَيْ: اُطْلُبْ مَغْفِرَتَهُ؛ لِأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ مَالَ إِلَى تَبْرِئَةِ طُعْمَةَ وَاتِّهَامِ الْيَهُودِيِّ؛ لِأَنَّ طُعْمَةَ مُسْلِمٌ، ﴿إِنَّ اللهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾. **وَفِي الْآيَةِ دَلِيلٌ** عَلَى أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَدْ يَقَعُ مِنْهُ الْخَطَأُ، وَهَذَا هُوَ الصَّحِيحُ وَهُوَ ظَاهِرٌ جِدًّا لِمَنْ تَأَمَّلَ الْقُرْآنَ، فَقَدْ عَاتَبَهُ اللهُ فِي أَكْثَرَ مِنْ مَوْضِعٍ وَلَا يَكُونُ الْعِتَابُ إِلَّا بِسَبَبِ وُقُوعِ خَطَأٍ مِنْهُ ﷺ.

فَمَثَلًا: فِي شَأْنِ الْأَسْرَى وَفِي شَأْنِ ابْنِ أُمِّ مَكْتُومٍ، وَفِي شَأْنِ زَيْدِ بْنِ حَارِثَةَ وَزَيْنَبَ بِنْتِ جَحْشٍ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ﴾ [الأحزاب: ٣٧] وَغَيْرُهَا، فَهَذِهِ الْآيَاتُ الْعَظِيمَةُ إِذَا نَزَلَتْ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ يَتْلُوهَا عَلَى الصَّحَابَةِ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ- وَيُبَيِّنُهَا لَهُمْ وَلَا يَكْتُمُ مِنْهَا شَيْئًا، وَلَا يَلْتَفِتُ -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- إِلَى مَا يَقُولُهُ أَعْدَاؤُهُ مِنَ الْيَهُودِ وَالْمُنَافِقِينَ؛ لِأَنَّ دِينَ اللهِ أَعْظَمُ مِنْ ذَلِكَ كُلِّهِ، وَمَنْ تَأَوَّلَ مِثْلَ هَذِهِ الْآيَاتِ الْقُرْآنِيَّةِ وَحَاوَلَ أَنْ يُنَزِّهَ النَّبِيَّ ﷺ مِنَ الْخَطَأِ فَإِنَّهُ سَيَقَعُ فِي التَّحْرِيفِ لِكَلَامِ اللهِ تَعَالَى.

➥ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى لَهُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ ﴿وَاسْتَغْفِرِ اللهِ﴾ وَفِي سُورَةِ مُحَمَّدٍ ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ [محمد: ١٩]، وَقَدْ غَفَرَ اللهُ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ، كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى فِي سُورَةِ الْفَتْحِ: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: ٢]، أَمَّا مَا يَبْلُغُ بِهِ عَنِ اللهِ تَعَالَى فَلَا شَكَّ أَنَّهُ مَعْصُومٌ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى (٣) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾ [النجم: ٣-٤].

☆ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى فِي سُورَةِ الْحَاقَّةِ: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ (٤٤) لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (٤٥) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ (٤٦) فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾ [الحاقة: ٤٤-٤٧].

﴿وَلَا تُجَٰدِلۡ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخۡتَانُونَ أَنفُسَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا﴾ [النساء: ١٠٧].

❁ ﴿وَلَا تُجَادِلْ﴾؛ أَيْ: لَا تُخَاصِمْ ﴿عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ﴾ يَخُونُونَ ﴿أَنْفُسَهُمْ﴾ بِالْمَعَاصِي؛ لِأَنَّ وَبَالَ خِيَانَتِهِمْ رَاجِعٌ عَلَيْهِمْ.

❁ ﴿إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّانًا﴾ كَثِيرَ الْخِيَانَةِ ﴿أَثِيمًا﴾ كَثِيرَ الْوُقُوعِ فِي الْإِثْمِ، فَاللهُ تَعَالَى لَا يُحِبُّ مَنْ جَمَعَ بَيْنَ الْخِيَانَةِ وَالْإِثْمِ، كَحَالِ طُعْمَةَ: سَرَقَ وَاتَّهَمَ مَنْ كَانَ بَرِيئًا، **وَيُفْهَمُ مِنَ الْآيَةِ**: الْحَثُّ وَالتَّرْغِيبُ فِي الْأَمَانَةِ وَالسَّلَامَةِ مِنَ الْإِثْمِ.

﴿يَسۡتَخۡفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسۡتَخۡفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمۡ إِذۡ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرۡضَىٰ مِنَ ٱلۡقَوۡلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطًا﴾ [النساء: ١٠٨].

❁ ﴿يَسْتَخْفُونَ﴾ يَسْتَتِرُونَ ﴿مِنَ النَّاسِ﴾ حَيَاءً وَخَوْفًا ﴿وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللهِ وَهُوَ مَعَهُمْ﴾ بِعِلْمِهِ وَإِحَاطَتِهِ، وَهُوَ مُطَّلِعٌ عَلَيْهِمْ، لَا يَخْفَى عَلَيْهِ خَافٍ مِنْ أَمْرِهِمْ ﴿إِذْ يُبَيِّتُونَ﴾ يُضْمِرُونَ وَ يُدَبِّرُونَ لَيْلًا ﴿مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ﴾ وَهُوَ الْحَلِفُ الْكَاذِبُ وَرَمْيُ الْبَرِيءِ.

❁ ﴿وَكَانَ اللهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا﴾ لَا يَفُوتُ عَنْهُ شَيْءٌ.

﴿هَاأَنتُمْ هَؤُلَاءِ جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَن يُجَادِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾ [النساء: ١٠٩].

❁ ﴿هَا أَنْتُمْ﴾ يَا قَوْمَ طُعْمَة، وَ(أَنْتُمْ) مُبْتَدَأٌ، وَخَبَرُهُ: ﴿هَؤُلَاءِ جَادَلْتُمْ﴾ خَاصَمْتُمْ ﴿عَنْهُمْ﴾؛ أَيْ: عَنْ طُعْمَة ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَنْ يُجَادِلُ اللهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ الِاسْتِفْهَامُ هُنَا مَعْنَاهُ النَّفْيُ،؛ أَيْ: لَا أَحَدَ يُخَاصِمُ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِذَا أَخَذَهُمْ اللهُ تَعَالَى وَعَذَّبَهُمْ.

❁ ﴿أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾ الِاسْتِفْهَامُ أَيْضًا هُنَا بِمَعْنَى النَّفْيِ؛ أَيْ: لَا أَحَدَ يَتَوَلَّى أَمْرَهُمْ وَيُدَافِعُ عَنْهُمْ وَيَكُونُ مُحَامِيًا عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِ اللهِ تَعَالَى وَعِقَابِهِ.

﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ١١٠].

❁ ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا﴾ ذَنْبًا مُتَعَدِّيًا كَرَمْيِ طُعْمَةَ الْيَهُودِيَّ ﴿أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ﴾ يَعْمَلْ ذَنْبًا قَاصِرًا عَلَيْهِ ﴿ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللهَ يَجِدِ اللهَ غَفُورًا﴾ لَهُ مَهْمَا حَصَلَ مِنْهُ ﴿رَحِيمًا﴾ بِهِ، وَهَذَا مِنْ أَعْظَمِ أَنْوَاعِ الْجُودِ وَالْكَرَمِ وَالْإِحْسَانِ أَنَّ مَنْ تَابَ مِنْ أَيِّ ذَنْبٍ كَانَ وَاسْتَغْفَرَ اللهَ تَعَالَى فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى يَتُوبُ عَلَيْهِ وَيَغْفِرُ لَهُ،، وَهَذِهِ الْآيَةُ وَرَدَ مَعْنَاهَا فِي الْقُرْآنِ كَثِيرٌ، فَاللهمَّ لَكَ الْحَمْدُ عَلَى ذَلِكَ حَمْدًا كَثِيرًا.

﴿وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَىٰ نَفْسِهِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١١١].

❁ ﴿وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يُكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ﴾؛ أَيْ: ضَرَرُهُ عَائِدٌ عَلَيْهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾ [الإسراء: ٧]، فَعَلَى الْمُؤْمِنِ الْعَاقِلِ أَنْ يَتَحَرَّزَ وَلَا يُعَرِّضَ نَفْسَهُ لِعَذَابِ اللهِ تَعَالَى وَعِقَابِهِ، لِأَنَّهُ إِذَا اسْتَشْعَرَ أَنَّهُ هُوَ الْمُتَضَرِّرُ الْوَحِيدُ مِنْ ذُنُوبِهِ أَوْجَبَ لَهُ الْكَفَّ وَالْبُعْدَ عَنْهَا ﴿وَكَانَ اللهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾.

﴿وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ [النساء: ١١٢].

❁ ﴿وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً﴾ ذَنْبًا صَغِيرًا أَوْ لَيْسَ عَنْ عَمْدٍ ﴿أَوْ إِثْمًا﴾ ذَنْبًا كَبِيرًا أَوْ عَنْ عَمْدٍ، أَوْ الْأَوَّلُ ذَنْبٌ خَاصٌّ بَيْنَ الْعَبْدِ وَبَيْنَ رَبِّهِ، وَالثَّانِي ذَنْبٌ مُتَعَدِّي إِلَى الْغَيْرِ ﴿ثُمَّ يَرْمِ بِهِ﴾؛ أَيْ: يَتَّهِمُ بِمَا كَسَبَ وَاقْتَرَفَ ﴿بَرِيئًا﴾ كَمَا رَمَى طُعْمَةُ الْيَهُودِيَّ ﴿فَقَدْ احْتَمَلَ﴾ تَحَمَّلَ ﴿بُهْتَانًا﴾ كَذِبًا ﴿وَإِثْمًا مُبِينًا﴾ ظَاهِرًا.

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ ۖ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَىْءٍ ۚ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٣].

❁ ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ﴾ يَا مُحَمَّدُ ﴿وَرَحْمَتُهُ﴾ بِعِصْمَتِكَ ﴿لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ﴾ مِنْ قَوْمِ طُعْمَةَ ﴿أَنْ يُضِلُّوكَ﴾ عَنِ الْقَضَاءِ بِالْحَقِّ مَعَ عِلْمِهِمْ بِأَنَّ الْجَانِيَ صَاحِبُهُمْ ﴿وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ﴾؛ لِأَنَّ وَبَالَ إِضْلَالِهِمْ عَلَيْهِمْ بِسَبَبِ تَعَاوُنِهِمْ عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ.

❁ ﴿وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ﴾؛ لِأَنَّ اللهَ تَعَالَى قَدْ مَنَّ عَلَيْكَ بِالنُّبُوَّةِ وَالْعِصْمَةِ، وَأَمَّا مَا خَطَرَ بِبَالِكَ مِنْ اتِّهَامِ الْيَهُودِيِّ وَتَبْرِئَةِ طُعْمَةَ فَكَانَ عَمَلًا مِنْكَ بِالظَّاهِرِ، وَأَنْتَ تَتَعَامَلُ مَعَ النَّاسِ بِمَا يَظْهَرُ لَكَ، وَلِهَذَا قَالَ ﷺ: «إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ، وَإِنَّكُمْ تَخْتَصِمُونَ إِلَيَّ، وَلَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَنْ يَكُونَ أَلْحَنَ بِحُجَّتِهِ مِنْ بَعْضٍ، وَأَقْضِيَ لَهُ عَلَى نَحْوِ مَا أَسْمَعُ، فَمَنْ قَضَيْتُ لَهُ مِنْ حَقِّ أَخِيهِ شَيْئًا فَلَا يَأْخُذْ، فَإِنَّمَا أَقْطَعُ لَهُ قِطْعَةً مِنَ النَّارِ»[٢٠٢].

❁ ﴿وَأَنْزَلَ اللهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ﴾ الْقُرْآنَ ﴿وَالْحِكْمَةَ﴾ السُّنَّةَ ﴿وَعَلَّمَكَ﴾ مِنْ أَحْكَامِ الشَّرِيعَةِ ﴿مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ﴾ قَبْلَ نُزُولِ ذَلِكَ عَلَيْكَ ﴿وَكَانَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ﴾ وَأَعْظَمُ الْفَضْلِ النُّبُوَّةُ وَالْكِتَابُ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ [الشورى: ٥٢].

[٢٠٢] أخرجه البخاري (٦٩٦٧)، ومسلم (١٧١٣).

﴿لَّا خَيۡرَ فِي كَثِيرٖ مِّن نَّجۡوَىٰهُمۡ إِلَّا مَنۡ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوۡ مَعۡرُوفٍ أَوۡ إِصۡلَٰحِۭ بَيۡنَ ٱلنَّاسِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوۡفَ نُؤۡتِيهِ أَجۡرًا عَظِيمٗا﴾ [النساء: ١١٤].

❁ ﴿لَا خَيْرَ﴾ "لَا" نَافِيَةٌ لِلْجِنْسِ، وَ"خَيْرَ" اسْمُهَا مَبْنِيٌّ عَلَى الْفَتْحِ فِي مَحَلِّ نَصْبٍ ﴿فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ﴾، **النَّجْوَى**: هِيَ سِرٌّ بَيْنَ اثْنَيْنِ فَأَكْثَرَ، **وَالْمَعْنَى**: لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ مُنَاجَاتِهِمْ وَلَا نَفْعَ فِيهَا ﴿إِلَّا﴾ نَجْوَى ﴿مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ﴾ وَهُوَ الْخَيْرُ كُلُّهُ، فَيَدْخُلُ فِي ذَلِكَ جَمِيعُ الطَّاعَاتِ وَفِي مُقَدِّمَتِهَا تَوْحِيدُ اللهِ تَعَالَى وَإِفْرَادُهُ بِالْعِبَادَةِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ.

❁ ﴿أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾ وَلَا يَكُونُ إِلَّا بَيْنَ مُتَخَاصِمَيْنِ ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ﴾ طَلَبَ ﴿مَرْضَاتِ اللهِ﴾ وَاحْتِسَابًا لِثَوَابِهِ لَا رِيَاءً وَلَا سُمْعَةً وَلَا أَيَّ أَمْرٍ مِنْ أُمُورِ الدُّنْيَا، وَ"ابْتِغَاءَ" مَفْعُولٌ لِأَجْلِهِ، ﴿فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾.

➥ **"وَقَدْ دَلَّتْ الْآيَةُ عَلَى التَّرْغِيبِ فِي الصَّدَقَةِ وَالْمَعْرُوفِ وَالْإِصْلَاحِ بَيْنَ النَّاسِ، وَقَدْ أَكَّدَ تَعَالَى التَّرْغِيبَ بِقَوْلِهِ: ﴿عَظِيمًا﴾ وَأَنَّ النِّيَّةَ فِيهَا شَرْطٌ لِنَيْلِ الثَّوَابِ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللهِ﴾ وَعَلَى أَنَّ كَلَامَ الْإِنْسَانِ عَلَيْهِ لَا لَهُ، إِلَّا مَا كَانَ فِي هَذَا وَنَحْوِهِ".**[٢٠٣]

﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا﴾ [النساء: ١١٥].

❁ ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ﴾ يُخَالِفِ ﴿الرَّسُولَ﴾ وَيُعَانِدْهُ ﴿مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى﴾؛ أَيْ: مِنْ بَعْدِ مَا ظَهَرَ وَاتَّضَحَ لَهُ الْحَقُّ بِالْبَرَاهِينِ الدَّالَّةِ عَلَى ذَلِكَ ﴿وَيَتَّبِعْ﴾ طَرِيقًا ﴿غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ﴾؛ أَيْ: غَيْرَ طَرِيقِهِمْ وَمَنْهَجِهِمْ وَمَا هُمْ عَلَيْهِ مِنَ الْحَقِّ ﴿نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى﴾؛ أَيْ: نَتْرُكُهُ وَمَا تَوَجَّهَ إِلَيْهِ عُقُوبَةً لَهُ ﴿وَنُصْلِهِ﴾ نُدْخِلْهُ فِي الْآخِرَةِ ﴿جَهَنَّمَ﴾ لِيُشْوَى فِيهَا، وَ الْعِيَاذُ بِاللهِ ﴿وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ مَرْجِعًا لِمَنْ صَارَ إِلَيْهَا وَحَلَّ فِيهَا.

[٢٠٣] محاسن التأويل للقاسمي (٣/ص: ٣٢٨).

وَقَدْ دَلَّتْ الْآيَةُ عَلَى مَا يَلِي:

☆ **أَوَّلًا**: أَنَّ مَنْ خَالَفَ النَّبِيَّ ﷺ وَاعْتَدَّ بِرَأْيِهِ وَعَقْلِهِ بَعْدَ ظُهُورِ الْحَقِّ لَهُ، وَكَّلَهُ اللهُ إِلَى نَفْسِهِ فَأَرْدَاهُ، كَمَا قَالَ: ﴿نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥].

★ **كَمَا دَلَّتْ الْآيَةُ بِمَفْهُومِهَا**: عَلَى أَنَّ مَنْ لَمْ يَتَقَصَّدْ مُخَالَفَةَ الرَّسُولِ ﷺ وَلَمْ يَعْتَدَّ بِرَأْيِهِ وَلَا بِعَقْلِهِ ثُمَّ صَدَرَتْ مِنْهُ مُخَالِفَةٌ لِلرَّسُولِ ﷺ مِمَّا هُوَ مِنْ مُقْتَضَيَاتِ النَّفْسِ الْبَشَرِيَّةِ، فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى بِمَنِّهِ وَكَرَمِهِ وَرَحْمَتِهِ وَلُطْفِهِ لَا يَتْرُكُهُ وَمَا تَوَجَّهَ إِلَيْهِ بَلْ يَتَدَارَكُهُ وَيَعْصِمُهُ وَيَحْفَظُه.

☆ **كَمَا دَلَّتْ الْآيَةُ**: عَلَى أَنَّ الضَّلَالَ وَالشِّقَاقَ يَبْدَأُ بِصَاحِبِهِ عِنَادًا، ثُمَّ يُحَوِّلُهُ اللهُ فِي قَلْبِهِ وَيُزَيِّنُهُ حَتَّى يَكُونَ دِينًا وَقَنَاعَةً كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ﴾ [فاطر: ٨]، وَقَالَ: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام: ١١٠] وَالْعِيَاذُ بِاللهِ.

☆ **كَمَا دَلَّتْ الْآيَةُ**: عَلَى أَنَّ الْإِجْمَاعَ حُجَّةٌ لَا يَجُوزُ مُخَالَفَتُهُ، كَمَا لَا يَجُوزُ مُخَالَفَةُ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، لِأَنَّ اللهَ عَزَّ وَعَلَا جَمَعَ بَيْنَ اتِّبَاعِ سَبِيلِ غَيْرِ الْمُؤْمِنِينَ وَبَيْنَ مُشَاقَّةِ الرَّسُولِ فِي الشَّرْطِ، وَجَعَلَ جَزَاءَهُ الْوَعِيدَ الشَّدِيدَ، فَكَانَ اتِّبَاعُهُمْ وَاجِبًا كَاتِّبَاعِ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا﴾ [النساء: ١١٦].

✵ ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ عَنِ الحَقِّ والصواب، وقد تقدَّم الكَلامُ عَلى هَذِهِ الآيَةِ مُطَوَّلًا، وذكروا أنَّ تَكْرِيرَها إمّا تَأْكِيدًا وتَشْدِيدًا أوْ لِتَكْمِيلِ قِصَّةِ طُعْمَةَ، وقَدْ قيل إنه مات كافِرًا.

﴿إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا﴾ [النساء: ١١٧].

❁ ﴿إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ﴾؛ أَيْ: مَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ ﴿إِلَّا إِنَاثًا﴾ أَصْنَامًا مُؤَنَّثَةً كَاللَّاتِ وَالْعُزَّى وَمَنَاةَ، وَهِيَ أَصْنَامٌ لَا تَنْفَعُ وَلَا تَضُرُّ ﴿وَإِنْ يَدْعُونَ﴾؛ أَيْ: وَمَا يَعْبُدُونَ فِي الْحَقِيقَةِ ﴿إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا﴾ خَارِجًا عَنْ طَاعَةِ اللهِ تَعَالَى وَهُوَ إِبْلِيسُ.

﴿لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾ [النساء: ١١٨].

❁ ﴿لَعَنَهُ اللهُ﴾ أَبْعَدَهُ عَنْ رَحْمَتِهِ وَأَخْرَجَهُ مِنَ الْجَنَّةِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ (٧٧) وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ﴾ [ص: ٧٧-٧٨]، وَكَمَا أَبْعَدَهُ اللهُ وَطَرَدَهُ مِنْ رَحْمَتِهِ فَإِنَّهُ يَسْعَى إِلَى إِغْوَاءِ النَّاسِ وَإِبْعَادِهِمْ عَنْ رَحْمَةِ اللهِ فَقَالَ مُؤَكِّدًا وَمُقْسِمًا ﴿لَأَتَّخِذَنَّ﴾ لَأَجْعَلَنَّ لِي ﴿مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا﴾؛ أَيْ: طَائِفَةً مِنْهُمْ مَعْلُومَةً يُطِيعُونِي وَيَمْتَثِلُوا أَمْرِي وَيَكُونُوا مَعِي، كَمَا قَالَ ﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٣٩) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (٤٠) قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ (٤١) إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ [الحجر: ٣٩-٤٢].

﴿وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا﴾ [النساء: ١١٩].

﴿وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ﴾ يَقْطَعَنَّ ﴿آذَانَ الْأَنْعَامِ﴾ وَقَدْ فَعَلَ الْكُفَّارُ ذَلِكَ امْتِثَالًا لِأَمْرِ الشَّيْطَانِ، وَاتِّبَاعًا لِرَسْمِهِ فَشَقُّوا آذَانَ الْبَحَائِرِ وَالسَّوَائِبِ، وَيَجْعَلُونَ ذَلِكَ عَلَامَةً عَلَى أَنَّهَا مُحَرَّرَةٌ لِطَوَاغِيتِهِمْ وَأَصْنَامِهِمْ كَمَا قَالَ تَعَالَى رَدًّا عَلَيْهِمْ: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلا سَائِبَةٍ وَلا وَصِيلَةٍ وَلا حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ﴾ [المائدة: ١٠٣].

➥ وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «رَأَيْتُ عَمْرَو بْنَ عَامِرٍ الْخُزَاعِيَّ يَجُرُّ قُصْبَهُ فِي النَّارِ، وَكَانَ أَوَّلُ مَنْ سَيَّبَ السَّوَائِبَ وَبَحَرَ الْبُحَيْرَةَ».[٢٠٤]

[٢٠٤] أخرجه البخاري (٣٥٢١)، ومسلم (٢٨٥٦).

❁ ﴿وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ﴾؛ أَيْ: فَلَيُبَدِّلُنَّ ﴿خَلْقَ اللهِ﴾؛ أَيْ: دِينَ اللهِ وَفِطْرَتَهُ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ﴾ [الروم: ٣٠]، ﴿أَوْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللهِ﴾؛ أَيْ: خِلْقَتَهُ الظَّاهِرَةَ الَّتِي خَلَقَهُ اللهُ عَلَيْهَا كَالْوَشْمِ وَالنَّمْصِ وَالتَّفْلِيجِ الْحَسَنِ، وَمَا يُشْبِهُ ذَلِكَ مِمَّا كَانُوا يَفْعَلُونَهُ فِي جَاهِلِيَّتِهِمْ اتِّبَاعًا لِلشَّيْطَانِ.

➥ **وَقَدْ أَخْرَجَ الشَّيْخَانِ عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- قَالَ:** "لَعَنَ اللهُ الْوَاشِمَاتِ وَالْمُسْتَوْشِمَاتِ وَالنَّامِصَاتِ وَالْمُتَنَمِّصَاتِ وَالْمُتَفَلِّجَاتِ لِلْحُسْنِ الْمُغَيِّرَاتِ خَلْقَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ"، ثُمَّ قَالَ: أَلَا أَلْعَنُ مَنْ لَعَنَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، وَهُوَ فِي كِتَابِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَمَا ءَاتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾،[٢٠٥] **وَلَا مَانِعَ مِنْ حَمْلِ الْآيَةِ عَلَى الْمَعْنَيَيْنِ جَمِيعًا بِنَاءً عَلَى الْقَاعِدَةِ:** أَنَّهُ مَتَى ذُكِرَ فِي الْآيَةِ قَوْلَانِ لَا تَضَادَّ بَيْنَهُمَا وَالْآيَةُ تَحْتَمِلُهُمَا، وَجَبَ حَمْلُهَا عَلَى الْمَعْنَيَيْنِ جَمِيعًا.

❁ ﴿وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا﴾ بِأَنْ يَتْبَعَهُ وَيُطِيعَهُ ﴿مِنْ دُونِ اللهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا﴾ بَيِّنًا وَاضِحًا وَسَيَقُولُ لِأَتْبَاعِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ﴾ [إبراهيم: ٢٢].

﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [النساء: ١٢٠].

❁ ﴿يَعِدُهُمْ﴾ الْوُعُودَ الْكَاذِبَةَ كَطُولِ الْعُمُرِ ﴿وَيُمَنِّيهِمْ﴾ الْأَمَانِيَ الْمُسْتَحِيلَةَ الَّتِي لَا يُمْكِنُ أَنْ تَقَعَ ﴿وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ﴾ بِذَلِكَ ﴿إِلَّا غُرُورًا﴾ وَهُوَ فِي الْحَقِيقَةِ بَاطِلٌ، فَيَظْهَرُ النَّفْعُ مِمَّا لَيْسَ فِيهِ إِلَّا الضَّرَرُ الْمَحْضُ، وَأَظْهَرُ هُنَا فِي مَقَامِ الْإِضْمَارِ فَقَالَ ﴿وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾) وَلَمْ يَقُلْ "وَمَا يَعِدُهُمْ إِلَّا غُرُورًا" لِإِظْهَارِ عَدَاوَةِ الشَّيْطَانِ الشَّدِيدَةِ وَالتَّأْكِيدِ عَلَى ذَلِكَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ [فاطر: ٦]، وَقَوْلُهُ: ﴿غُرُورًا﴾ مَفْعُولٌ ثَانٍ لِلْوَعْدِ، أَوْ مَفْعُولٌ لِأَجْلِهِ، أَوْ نَعْتٌ لِمَصْدَرٍ مَحْذُوفٍ؛ أَيْ: وَعْدًا ذَا غُرُورٍ.

---

[٢٠٥] أخرجه البخاري (٥٩٣١)، ومسلم (٢١٢٥).

﴿أُوْلَٰٓئِكَ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنۡهَا مَحِيصٗا﴾ [النساء: ١٢١].

❁ ﴿أُولَئِكَ﴾؛ أَيْ: أَوْلِيَاءُ الشَّيْطَانِ ﴿مَأْوَاهُمْ﴾؛ أَيْ: مَآلُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا﴾ مَفَرًا وَمَهْرَبًا.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٗاۚ وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلٗا﴾ [النساء: ١٢٢].

❁ ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَعْدَ اللهِ حَقًّا﴾؛ أَيْ: وَاقِعًا لَا مَحَالَةَ ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللهِ قِيلًا﴾ وَهُوَ اسْتِفْهَامٌ بِمَعْنَى النَّفْيِ؛ أَيْ: لَا أَحَدَ أَصْدَقُ مِنْهُ قَوْلًا، وَالْآيَةُ فِيهَا مُعَارَضَةُ مَا ذَكَرَهُ الشَّيْطَانُ لِأَتْبَاعِهِ مِنَ الْوُعُودِ الْكَاذِبَةِ وَالْأَمَانِيِّ الْمُسْتَحِيلَةِ الَّتِي لَا يُمْكِنُ أَنْ تَقَعَ، وَالتَّنْبِيهُ عَلَى أَنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ لَا يَتَخَلَّفُ، فَهُوَ أَوْلَى بِالْقَبُولِ وَأَحَقُّ بِالتَّصْدِيقِ مِنْ قَوْلِ الشَّيْطَانِ وَوُعُودِهِ الْكَاذِبَةِ وَأَمَانِيِّهِ الْمُحَالَةِ.

﴿لَّيۡسَ بِأَمَانِيِّكُمۡ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِۗ مَن يَعۡمَلۡ سُوٓءٗا يُجۡزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدۡ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا﴾ [النساء: ١٢٣].

❁ ﴿لَيْسَ﴾ دُخُولُ الْجَنَّةِ وَالْوُصُولُ إِلَى ثَوَابِ اللهِ تَعَالَى وَرِضَاهُ مَنُوطًا ﴿بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ بَلْ بِالْإِيمَانِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ، كَمَا رُوِيَ عَنِ الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ -رَحِمَهُ اللهُ- أَنَّهُ قَالَ: "لَيْسَ الْإِيمَانُ بِالتَّمَنِّي وَلَا بِالتَّحَلِّي، وَلَكِنْ مَا وَقَرَ فِي الْقَلْبِ وَصَدَّقَهُ الْعَمَلُ"[٢٠٦].

❁ ﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾؛ أَيْ: عَاجِلًا أَوْ آجِلًا، وَمِنَ الْمُجَازَاةِ الْعَاجِلَةِ فِي الدُّنْيَا مَا يُصِيبُ الْمُؤْمِنَ مِنَ الْبَلَاءِ وَالْمِحَنِ وَالْمَصَائِبِ كَمَا وَرَدَ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ وَأَبِي هُرَيْرَةَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا- عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَا يُصِيبُ الْمُسْلِمَ مِنْ نَصَبٍ وَلَا وَصَبٍ وَلَا هَمٍّ وَلَا حُزْنٍ وَلَا أَذًى وَلَا غَمٍّ، حَتَّى الشَّوْكَةُ يُشَاكُهَا إِلَّا كَفَّرَ اللهُ بِهَا مِنْ خَطَايَاهُ»[٢٠٧].

---

[٢٠٦] أخرجه ابن المبارك في الزهد (٥٤٥)، وأحمد في الزهد (٢٦٣).
[٢٠٧] أخرجه البخاري (٥٦٤٢) واللفظ له، ومسلم (٢٥٧٣).

❁ ﴿وَلَا يَجِدُ لَهُ مِنْ دُونِ اللهِ وَلِيًّا﴾ يَحْفَظُهُ ﴿وَلَا نَصِيرًا﴾ يَنْصُرُهُ وَيَمْنَعُ عَنْهُ عَذَابَ اللهِ تَعَالَى.

➥ وَفِي الْآيَةِ فَائِدَتَانِ عَظِيمَتَانِ:

★ **الْأُولَى**: أَنَّ الْوُصُولَ إِلَى ثَوَابِ اللهِ وَجَنَّتِهِ لَا يُنَالُ بِالْأَمَانِيِّ وَالدَّعَاوَى إِنَّمَا يُنَالُ بِالْإِيمَانِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ.

★ **وَالثَّانِيَةُ**: أَنَّ الْجَزَاءَ مِنْ جِنْسِ الْعَمَلِ، وَهَذِهِ قَاعِدَةٌ عَظِيمَةٌ مِنْ أَعْظَمِ قَوَاعِدِ الْقُرْآنِ، وَمَعْنَاهَا أَنَّ جَزَاءَ الإنسانِ مِنْ جِنْسِ عَمَلِهِ، إِنْ خَيْرًا فَخَيْرٌ وَإِنْ شَرًّا فَشَرٌّ، كما في قوله تعالى: ﴿جَزَاءً وِفَاقًا﴾ [النبأ: ٢٦] وَكَمَا تُجَازِي تُجَازَى.

﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾ [النساء: ١٢٤].

❁ ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ﴾ شَيْئًا ﴿مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾، قَوْلُهُ: ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ الْجُمْلَةُ حَالِيَّةٌ؛ أَيْ: وَالْحَالُ أَنَّهُ مُؤْمِنٌ، إِذِ الْإِيمَانُ شَرْطٌ لِلْجَزَاءِ الْمُرَتَّبِ، فَلَا يَنْفَعُ الْعَمَلُ الصَّالِحُ مَعَ عَدَمِ الْإِيمَانِ وَلَا يَنْفَعُ الْإِيمَانُ بِلَا عَمَلٍ.

❁ ﴿فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ﴾ هَلْ يُقَالُ: إِنَّ هَذَا إِظْهَارٌ فِي مَوْضِعِ الْإِضْمَارِ، وَأَنَّهُ لَوْ قِيلَ: فَإِنَّهُمْ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ؟ الْجَوَابُ: نَعَمْ؛ لِأَنَّ اسْمَ الْإِشَارَةِ مِنْ بَابِ الْأَسْمَاءِ الظَّاهِرَةِ أَوِ الْمُضْمَرَةِ؟ الظَّاهِرَةُ.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: مَا هِيَ النُّكْتَةُ فِي هَذَا الْإِظْهَارِ؟ قُلْنَا: بَيَانُ عُلُوِّ مَرْتَبَتِهِمْ؛ حَيْثُ أَشَارَ إِلَيْهِمْ بِإِشَارَةِ الْبَعِيدِ.

❁ ﴿فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾ قَدْرَ النُّقْرَةِ الَّتِي فِي ظَهْرِ نَوَاةِ التَّمْرِ، وَهَذَا فِيهِ الْمُبَالَغَةُ فِي نَفْيِ الظُّلْمِ، وَوَعَدَ بِتَوْفِيَةِ جَزَاءِ أَعْمَالِهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ [النساء: ٤٠].

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء: ١٢٥].

❁ ﴿وَمَنْ﴾؛ أَيْ: لَا أَحَدَ ﴿أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ﴾؛ أَيْ: انْقَادَ وَأَخْلَصَ عَمَلَهُ ﴿لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ فِي عَمَلِهِ بِكَوْنِهِ صَوَابًا مُوَافِقًا لِلشَّرْعِ، فَتَكُونُ هَذِهِ الْآيَةُ دَلِيلٌ عَلَى شَرْطَيْ صَلَاحِ الْعِبَادَةِ، وَهُمَا: الْإِخْلَاصُ لِلَّهِ تَعَالَى وَالْمُوَافَقَةُ لِشَرْعِهِ.

❁ ﴿وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ﴾ وَهِيَ التَّوْحِيدُ وَالِاسْتِسْلَامُ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَنَبْذُ الشِّرْكِ وَالْكُفْرِ وَكُلِّ مَا يُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ، وَأَوْلَى النَّاسِ بِهَذَا مُحَمَّدٌ ﷺ وَأُمَّتُهُ كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ [آل عمران: ٦٨].

❁ ﴿حَنِيفًا﴾؛ أَيْ: مَائِلًا عَنِ الشِّرْكِ إِلَى التَّوْحِيدِ ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ صَفِيًّا خَالِصَ الْمَحَبَّةِ لَهُ، وَالْفَائِدَةُ الْعَظِيمَةُ الَّتِي يَسْتَفِيدُهَا الْمُؤْمِنُ مِنْ وَصْفِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِالْخُلَّةِ هِيَ أَنْ يَقْتَدِيَ بِهِ الْمُؤْمِنُ وَيَتْبَعَهُ؛ لِأَنَّهُ أَخْلَصَ لِلَّهِ تَعَالَى وَوَفَّى بِمَا أُمِرَ بِهِ وَقَامَ بِمَا ابْتُلِيَ بِهِ، وَوَصَلَ إِلَى مَنْزِلَةٍ عَظِيمَةٍ لَمْ يَصِلْهَا أَحَدٌ إِلَّا نَبِيُّنَا مُحَمَّدٌ ﷺ، وَفِي الْآيَةِ إِثْبَاتُ صِفَةِ الْخُلَّةِ لِلَّهِ تَعَالَى وَهِيَ مِنَ الْأَفْعَالِ الِاخْتِيَارِيَّةِ لِلَّهِ تَعَالَى.

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطًا﴾ [النساء: ١٢٦].

❁ ﴿وَلِلَّهِ﴾ وَحْدَهُ، فَتَقْدِيمُ الْخَبَرِ يُفِيدُ الْحَصْرَ ﴿مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ مَلْكًا وَخَلْقًا وَعَبِيدًا ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطًا﴾ وَهَذِهِ الْآيَةُ تَدُلُّ عَلَى عَظَمَةِ عِلْمِ اللَّهِ تَعَالَى، فَعِلْمُهُ سُبْحَانَهُ أَحَاطَ بِجَمِيعِ الْأَشْيَاءِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٦]، وَقَالَ تَعَالَى ﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [سبأ: ٣].

﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي ٱلنِّسَآءِ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَٰبِ فِي يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلْوِلْدَٰنِ وَأَن تَقُومُوا۟ لِلْيَتَٰمَىٰ بِٱلْقِسْطِ ۚ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِهِۦ عَلِيمًا﴾ [النساء: ١٢٧].

❁ ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ﴾ يَطْلُبُونَ مِنْكَ الْفَتْوَى أَيُّهَا النَّبِيُّ ﴿فِي﴾ شَأْنِ ﴿النِّسَاءِ﴾ وَمِيرَاثِهِنَّ ﴿قُلِ اللهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ﴾ (مَا) اسْمٌ مَوْصُولٌ مَبْنِيٌّ عَلَى السُّكُونِ فِي مَحَلِّ رَفْعٍ، مَعْطُوفٌ عَلَى اسْمِ اللهِ تَعَالَى، **وَالْمَعْنَى**: وَالْقُرْآنُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ، وَهُوَ قَوْلُهُ: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى﴾ الْآيَةَ [النساء: ٣]، وَحَاصِلُ مَا أَفْتَى بِهِ الْقُرْآنُ هُوَ تَحْرِيمُ هَضْمِ حُقُوقِ الْيَتِيمَاتِ وَعَدَمُ إِعْطَاءِهِنَّ الَّذِي فَرَضَهُ اللهُ تَعَالَى لَهُنَّ مِنَ الْمَهْرِ وَالْمِيرَاثِ وَغَيْرِ ذَلِكَ.

❁ ﴿وَتَرْغَبُونَ﴾ عَنْ ﴿أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ﴾ لِدَمَامَتِهِنَّ أَوْ ﴿وَتَرْغَبُونَ﴾ فِي ﴿أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ﴾ لِجَمَالِهِنَّ وَمَالِهِنَّ وَلَا تُعْطُونَ صَدَاقَهُنَّ وَتَأْكُلُونَ مَالَهُنَّ.

➥ **وَقَدْ سَأَلَ عُرْوَةُ بْنُ الزُّبَيْرِ عَائِشَةَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهَا- عَنْ قَوْلِ** اللهِ تَعَالَى: **﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ﴾** الْآيَةَ، قَالَتْ: **"هي اليَتِيمَةُ في حَجْرِ وليِّها، فَيَرْغَبُ في جَمالِها ومالِها، ويُرِيدُ أَنْ يَتَزَوَّجَها بأَدْنى مِن سُنَّةِ نِسائِها، فَنُهُوا عن نِكاحِهِنَّ، إلّا أَنْ يُقْسِطُوا لهنَّ في إكْمالِ الصَّداقِ، وأُمِرُوا بنِكاحِ مَن سِواهُنَّ مِنَ النِّساءِ، قالَتْ عائِشَةُ: ثُمَّ اسْتَفْتى النّاسُ رَسولَ اللهِ ﷺ بَعْدُ، فأنْزَلَ اللهُ عزَّ وجلَّ (وَيَسْتَفْتُونَكَ في النِّساءِ قُلِ اللهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ)، قالَتْ: فَبَيَّنَ اللهُ في هذِه الآيَةِ: أنَّ اليَتِيمَةَ إذا كانَتْ ذاتَ جَمالٍ، ومالٍ رَغِبُوا في نِكاحِها، ولَمْ يُلْحِقُوها بسُنَّتِها بإكْمالِ الصَّداقِ، فإذا كانَتْ مَرْغُوبَةً عَنْها في قِلَّةِ المالِ والجَمالِ تَرَكُوها والتَمَسُوا غَيْرَها مِنَ النِّساءِ، قالَ: فكما يَتْرُكُونَها حِينَ يَرْغَبُونَ عَنْها، فليسَ لهمْ أَنْ يَنْكِحُوها إذا رَغِبُوا فِيها، إلّا أَنْ يُقْسِطُوا لَها الأوْفى مِنَ الصَّداقِ ويُعْطُوها حَقَّها".**[٢٠٨]

[٢٠٨] أخرجه البخاري (٢٧٦٣) واللفظ له، ومسلم (٣٠١٨).

❁ ﴿وَ﴾ فِي ﴿الْمُسْتَضْعَفِينَ﴾ الصِّغَارِ ﴿مِنَ الْوِلْدَانِ﴾ أَنْ تُعْطُوهُمْ حُقُوقَهُمْ، وَكَانُوا فِي الْجَاهِلِيَّةِ لَا يُوَرِّثُونَهُمْ كَمَا لَا يُوَرِّثُونَ النِّسَاءَ.

❁ ﴿وَأَنْ﴾ يَأْمُرَكُمْ ﴿تَقُومُوا لِلْيَتَامَى بِالْقِسْطِ﴾ بِالْعَدْلِ وَلَمْ يُبَيِّنْ هُنَا هَذَا الْقِسْطَ الَّذِي أَمَرَ اللهُ تَعَالَى بِهِ لِلْيَتَامَى، وَهُوَ شَامِلٌ لِلنَّفَقَةِ وَالتَّعَامُلِ وَالتَّزْوِيجِ وَغَيْرِهَا، وَقَدْ بَيَّنَ اللهُ تَعَالَى حُقُوقَ الْيَتَامَى فِي آيَاتٍ كَثِيرَةٍ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ﴾ [البقرة: ٢٢٠]، وَكَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [الأنعام: ١٥٢]، وَكَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلا تَقْهَرْ﴾ [الضحى: ٩]، وَغَيْرُهَا مِنَ الْآيَاتِ ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا﴾ فَيُجَازِيكُمْ بِهِ.

﴿وَإِنِ ٱمۡرَأَةٌ خَافَتۡ مِنۢ بَعۡلِهَا نُشُوزًا أَوۡ إِعۡرَاضٗا فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَآ أَن يُصۡلِحَا بَيۡنَهُمَا صُلۡحٗاۚ وَٱلصُّلۡحُ خَيۡرٞۗ وَأُحۡضِرَتِ ٱلۡأَنفُسُ ٱلشُّحَّۚ وَإِن تُحۡسِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا﴾ [النساء: ١٢٨].

➥ عَنْ عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ قَالَ: قَالَتْ عَائِشَةُ: "وَلَقَدْ قَالَتْ سَوْدَةُ بِنْتُ زَمْعَةَ حِينَ أَسَنَّتْ، وَفَرَّقَتْ أَنْ يُفَارِقَهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ: يَا رَسُولَ اللهِ يَوْمِي لِعَائِشَةَ، فَقَبِلَ ذَلِكَ رَسُولُ اللهِ مِنْهَا، قَالَتْ: نَقُولُ: فِي ذَلِكَ أَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى وَفِي أَشْبَاهِهَا –أُرَاهُ قَالَ– : ﴿وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا﴾"[٢٠٩].

➥ وَعَنْ عِكْرِمَةَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ –رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا– قَالَ: "خَشِيَتْ سَوْدَةُ أَنْ يُطَلِّقَهَا النَّبِيُّ ﷺ فَقَالَتْ: "لَا تُطَلِّقْنِي، وَأَمْسِكْنِي، وَاجْعَلْ يَوْمِي لِعَائِشَةَ، فَفَعَلَ، فَنَزَلَتْ: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾"[٢١٠].

[٢٠٩] أخرجه البخاري (٥٢١٢)، ومسلم (١٤٦٣)، وهذا لفظ أبي داود (٢١٣٥).
[٢١٠] أخرجه الترمذي (٣٠٤٠)، وقال: هذا حديث حسن صحيح غريب.

❁ ﴿وَإِنْ امْرَأَةٌ﴾ فَاعِلٌ لِفِعْلٍ مَحْذُوفٍ تَقْدِيرُهُ: وَإِنْ خَافَتْ امْرَأَةٌ ﴿خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا﴾ زَوْجُهَا ﴿نُشُوزًا﴾ تَرَفُّعًا وَاسْتِعْلَاءً عَلَيْهَا بِتَرْكِ حُقُوقِهَا الشَّرْعِيَّةِ الَّتِي أَوْجَبَهَا الشَّارِعُ لَهَا إِمَّا لِكِبَرِ سِنِّهَا أَوْ مَرَضِهَا أَوْ مَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، ﴿أَوْ إِعْرَاضًا﴾؛ أَيْ: انْصِرَافًا عَنْهَا كَأَنْ يَنْفِرَ مِنْهَا، فَلَا يَأْنَسُ بِهَا وَلَا يُكَلِّمُهَا وَلَا يُعَاشِرُهَا بِالْمَعْرُوفِ.

➥ **كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ مِنْ حَدِيثِ عَائِشَةَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهَا- أَنَّهَا قَالَتْ فِي هَذِهِ الْآيَةِ "هِيَ الْمَرْأَةُ تَكُونُ عِنْدَ الرَّجُلِ لَا يَسْتَكْثِرُ مِنْهَا، فَيُرِيدُ طَلَاقَهَا وَيَتَزَوَّجُ غَيْرَهَا، تَقُولُ لَهُ: أَمْسِكْنِي وَلَا تُطَلِّقْنِي، ثُمَّ تَزَوَّجْ غَيْرِي، فَأَنْتَ فِي حِلٍّ مِنَ النَّفَقَةِ عَلَيَّ وَالْقِسْمَةِ لِي، فَذَلِكَ قَوْله تَعَالَى: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾".**[٢١١]

وقَوْلُه تَعَالَى: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا﴾ فِي الْقَسْمِ وَالنَّفَقَةِ بِأَنْ تَتَنَازَلَ لَهُ عَنْ شَيْءٍ مِنْ حُقُوقِهَا لِتَبْقَى فِي عِصْمَتِهِ فَإِنْ رَضِيَتْ بِذَلِكَ، وَإِلَّا فَعَلَى الزَّوْجِ أَنْ يُوَفِّيَهَا حَقَّهَا أَوْ يُفَارِقَهَا ﴿وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾ مِنَ الْفِرَاقِ وَالنُّشُوزِ وَالْإِعْرَاضِ وَسُوءِ الْعِشْرَةِ، وَفِيهِ تَشَوُّفُ الشَّارِعِ إِلَى بَقَاءِ عَقْدِ الزَّوَاجِ وَأَنَّهُ خَيْرٌ مِنَ الطَّلَاقِ؛ لِمَا يَتَرَتَّبُ عَلَيْهِ مِنْ مَصَالِحَ عَظِيمَةٍ لِلزَّوْجَيْنِ وَالْأَوْلَادِ وَغَيْرِ ذَلِكَ.

❁ ﴿وَأُحْضِرَتِ﴾ ﴿وَأُلْزِمَتْ ﴿الْأَنْفُسُ الشُّحَّ﴾ شِدَّةَ الْبُخْلِ، **وَالْمُرَادُ:** أَنَّ الرَّجُلَ يَشُحُّ وَيَتَمَسَّكُ بِكَامِلِ حَقِّهِ، وَالْمَرْأَةُ كَذَلِكَ، فَكُلٌّ مِنْهُمَا يُرِيدُ الْحَقَّ الَّذِي لَهُ وَافِيًا كَامِلًا، وَلَا يُرِيدُ أَنْ يُؤَدِّيَ الْحَقَّ الَّذِي عَلَيْهِ، وَلَا شَكَّ أَنَّ مَنْ رَغِبَ فِي الصُّلْحِ يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يُؤَدِّيَ الْحَقَّ الَّذِي عَلَيْهِ وَيَتَنَازَلَ عَنْ شَيْءٍ مِنَ الْحَقِّ الَّذِي لَهُ، وَيَدَعُ مَا جُبِلَتْ عَلَيْهِ الْأَنْفُسُ مِنَ الشُّحِّ لِيَحْصُلَ الصُّلْحُ.

❁ ﴿وَإِنْ تُحْسِنُوا﴾ فِي كُلِّ أَحْوَالِكُمْ، وَمِنْهُ حُسْنُ الْعِشْرَةِ وَالتَّنَازُلُ عَنْ بَعْضِ الْحُقُوقِ حِينَ الصُّلْحِ ﴿وَتَتَّقُوا﴾ النُّشُوزَ وَالْإِعْرَاضَ وَالْجَوْرَ ﴿فَإِنَّ اللهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ فَيُجَازِيكُمْ بِهِ.

---

[٢١١] أخرجه البخاري (٥٢٠٦)، ومسلم (٣٠٢١).

﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوٓاْ أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْۖ فَلَا تَمِيلُواْ كُلَّ ٱلْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِۚ وَإِن تُصْلِحُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ١٢٩].

❁ ﴿وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ﴾ فِي الْمَحَبَّةِ وَمَيْلِ الْقَلْبِ وَدَاعِي الْجِمَاعِ؛ لِأَنَّ الْعَدْلَ أَنْ لَا يَقَعَ مَيْلٌ الْبَتَّةَ وَهَذَا أَمْرٌ لَا يُمْكِنُ وَلَا يُقْدَرُ عَلَيْهِ.

➥ **وَلِهَذَا تَقُولُ عَائِشَةُ -رَضِيَ اللهُ عَنْهَا-**: "كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَقْسِمُ بَيْنَ نِسَائِهِ فَيَعْدِلُ، وَيَقُولُ: «اللهمَّ هَذَا قَسْمِي فِيمَا أَمْلِكُ، فَلَا تَلُمْنِي فِيمَا تَمْلِكُ وَلَا أَمْلِكُ»[٢١٢].

❁ ﴿وَلَوْ حَرَصْتُمْ﴾ عَلَى إِقَامَةِ الْعَدْلِ وَبَالَغْتُمْ فِي تَحَرِّي ذَلِكَ ﴿فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ﴾ إِلَى الَّتِي تُحِبُّونَهَا فِي الْقَسْمِ وَالنَّفَقَةِ ﴿فَتَذَرُوهَا﴾؛ أَيْ: تَتْرُكُوا الَّتِي مِلْتُمْ عَنْهَا وَهَجَرْتُمُوهَا ﴿كَالْمُعَلَّقَةِ﴾؛ أَيْ: لَا هِيَ مُطَلَّقَةٌ، وَلَا هِيَ ذَاتُ بَعْلٍ.

﴿وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦۚ وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٣٠].

❁ ﴿وَإِنْ يَتَفَرَّقَا﴾ أَيْ الزَّوْجَانِ بِالطَّلَاقِ وَلَمْ يَتَصَالَحَا ﴿يُغْنِ﴾ يُعْطِ ﴿اللهُ كُلًّا﴾ مِنْهُمَا عَنْ صَاحِبِهِ ﴿مِنْ سَعَتِهِ﴾؛ أَيْ: مِنْ فَضْلِهِ الْوَاسِعِ، وَفِي هَذَا تَسْلِيَةٌ لِلزَّوْجَيْنِ بَعْدَ فِرَاقِهِمَا ﴿وَكَانَ اللهُ وَاسِعًا﴾ لِجَمِيعِ خَلْقِهِ بِالْفَضْلِ وَالْكَرَمِ وَالْجُودِ وَالْعَطَاءِ ﴿حَكِيمًا﴾ فِيمَا دَبَّرَ وَقَضَى بِهِ بَيْنَ عِبَادِهِ.

[٢١٢] أخرجه أبو داود (٢١٣٤)، والترمذي (١١٤٠)، والنسائي (٣٩٤٣).

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُنَبِّهًا عَلَى كَمَالِ سَعَتِهِ:

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا﴾ [النِّسَاءُ: ١٣١].

❁ ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾؛ أَيْ: الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى ﴿وَإِيَّاكُمْ﴾ يَا أُمَّةَ مُحَمَّدٍ ﷺ ﴿أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ﴾ بِامْتِثَالِ أَوَامِرِهِ وَاجْتِنَابِ نَوَاهِيهِ ﴿وَإِنْ تَكْفُرُوا﴾ بِاللهِ وَبِمَا أَوْصَاكُمْ بِهِ.

❁ ﴿فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ خَلْقًا وَمَلَكًا وَعَبِيدًا فَلَا يَضُرُّهُ كُفْرُكُمْ كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي الْحَدِيثِ الْقُدْسِيِّ: «يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا»[٢١٣].

❁ ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا﴾ عَنْ جَمِيعِ خَلْقِهِ بَلْ هُمْ مُحْتَاجُونَ وَمُفْتَقِرُونَ إِلَيْهِ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [فاطر: ١٥]، ﴿حَمِيدًا﴾ مَحْمُودًا عَلَى غِنَاه وَفَضْلِهِ وُجُودِهِ وَإِحْسَانِه.

﴿۞ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [النساء: ١٣٥].

❁ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ﴾ قَائِمِينَ ﴿بِالْقِسْطِ﴾ بِالْعَدْلِ فِي شَهَادَتِكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ وَالْإِقْرَارِ بِمَا عَلَيْكُمْ مِنَ الْحُقُوقِ ﴿شُهَدَاءَ لِلَّهِ﴾؛ أَيْ: مُؤَدِّينَ الشَّهَادَةَ ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللهِ ﴿وَلَوْ﴾ كَانَتْ الشَّهَادَةُ ﴿عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ﴾ عَلَى ﴿الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ﴾ الْمَشْهُودُ عَلَيْهِ ﴿غَنِيًّا﴾ فَلَا يُرَاعَى لِغِنَاهُ.

---

[٢١٣] أخرجه مسلم (٢٥٧٧).

❁ ﴿أَوْ فَقِيرًا﴾ فَلَا يُرَاعَى رَحْمَةً بِهِ وَإِشْفَاقًا عَلَيْهِ فَلَا تَمْتَنِعُوا عَنْ إِقَامَةِ الشَّهَادَةِ بِالْحَقِّ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لله﴾ [الطلاق: ٢]. ﴿فَالله أَوْلَى بِهِمَا﴾ بِالْغَنِيِّ وَالْفَقِيرِ مِنْكُمْ وَأَعْلَمُ بِمَصَالِحِهِمَا فَلَا يُهِمُّكُمْ أَمْرُهُمَا وَإِنَّمَا عَلَيْكُمُ النَّظَرُ بِالْحَقِّ ﴿فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَى﴾ بِالشَّهَادَةِ ﴿أَنْ تَعْدِلُوا﴾؛ أَيْ: أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ، فَنَهَى الله تَعَالَى عَنِ اتِّبَاعِ الْهَوَى؛ لِأَنَّهُ يُؤَدِّي إِلَى تَرْكِ الْعَدْلِ ﴿وَإِنْ تَلْوُوا﴾ تَحَرَّفُوا الشَّهَادَةَ ﴿أَوْ تُعْرِضُوا﴾ عَنْ أَدَائِهَا أَوْ تَكْتُمُوهَا ﴿فَإِنَّ اللهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ فَيُجَازِيكُمْ بِهِ.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِن قَبۡلُۚ وَمَن يَكۡفُرۡ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا﴾ [النساء: ١٣٦].

❁ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا﴾ دَاوِمُوا عَلَى إِيمَانِكُمْ وَاحْرِصُوا عَلَى تَكْمِيلِهِ وَاثْبُتُوا عَلَيْهِ ﴿بِالله وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ﴾ عَلَى رَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ وَهُوَ الْقُرْآنُ ﴿وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ﴾؛ أَيْ: وَآمِنُوا بِجَمِيعِ الْكُتُبِ الَّتِي أَنْزَلَهَا اللهُ تَعَالَى عَلَى الرُّسُلِ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مِنْ قَبْلِ الْقُرْآنِ.

❁ ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِالله وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ عَنِ الْحَقِّ.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ٱزۡدَادُواْ كُفۡرٗا لَّمۡ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغۡفِرَ لَهُمۡ وَلَا لِيَهۡدِيَهُمۡ سَبِيلَۢا﴾ [النساء: ١٣٧].

❁ ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾؛ أَيْ: دَخَلُوا فِي الْإِيمَانِ ﴿ثُمَّ كَفَرُوا﴾؛ أي: ثُمَّ رَجَعُوا عَنْهُ إِلَى الْكُفْرِ، ﴿ثُمَّ آمَنُوا﴾ بَعْدَهُ ﴿ثُمَّ كَفَرُوا﴾ مَرَّةً أُخْرَى ﴿ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا﴾ عَلَى كُفْرِهِمْ وَاسْتَمَرُّوا فِيهِ حَتَّى مَاتُوا ﴿لَمْ يَكُنِ اللهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ﴾ لِإِقَامَتِهِمْ عَلَى الْكُفْرِ وَإِصْرَارِهِمْ عَلَيْهِ حَتَّى مَاتُوا ﴿وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا﴾ طَرِيقًا إِلَى الْحَقِّ وَالْهُدَى وَالنُّورِ.

﴿بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [النساء: ١٣٨].

❁ ﴿بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ﴾.

١. الْبِشَارَةُ لَفْظٌ يُطْلَقُ عَلَى الْخَبَرِ السَّارِّ وَهُوَ الْأَصْلُ.

٢. وَيُطْلَقُ عَلَى الْخَبَرِ الضَّارِّ أَيْضًا كَمَا فِي هَذِهِ الْآيَةِ، وَكَمَا فِي قَوْلِه تَعَالَى: ﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الانشقاق: ٢٤]، وَالْمُنَافِقُونَ هُمُ الَّذِينَ يُظْهِرُونَ الْإِسْلَامَ وَيُبْطِنُونَ الْكُفْرَ ﴿بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ مُؤْلِمًا مُوجِعًا وَهُوَ عَذَابُ النَّارِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾ [النساء: ١٤٥].

﴿ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [النساء: ١٣٩].

﴿الَّذِينَ﴾ اسْمٌ مَوْصُولٌ مَبْنِيٌّ فِي مَحَلِّ نَصْبِ نَعْتٌ لِلْمُنَافِقِينَ، أَوْ بَدَلٌ أَوْ فِي مَحَلِّ رَفْعٍ عَلَى الذَّمِّ، وَالتَّقْدِيرُ: أُرِيدُ الَّذِينَ أَوْ هُمُ الَّذِينَ ﴿يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ﴾ أَنْصَارًا وَأَعْضَادًا ﴿مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ لِمَا يَتَوَهَّمُونَ فِيهِمْ مِنَ الْقُوَّةِ وَالْمَنَعَةِ وَالنُّصْرَةِ وَالرِّفْعَةِ ﴿أَيَبْتَغُونَ﴾ يَطْلُبُونَ ﴿عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ﴾ اسْتِفْهَامُ إِنْكَارٍ؛ أَيْ: لَا يَجِدُونَهَا عِنْدَهُمْ.

❁ ﴿فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾؛ أَيْ: لَهُ الْقُوَّةُ وَالْغَلَبَةُ وَالنُّصْرَةُ وَلَا يَنَالُهَا إِلَّا أَوْلِيَاؤُهُ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨]، وَالْآيَةُ تَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْعِزَّةَ تُطْلَبُ مِنَ اللهِ تَعَالَى وَحْدَهُ، فَمَنْ كَانَ صَادِقًا فِي طَلَبِهَا مِنَ اللهِ تَعَالَى فِي افْتِقَارٍ وَتَذَلُّلٍ وَسُكُونٍ وَخُضُوعٍ وَجَدَهَا عِنْدَهُ عَزَّ وَجَلَّ، وَمَنْ طَلَبَهَا مِنْ غَيْرِ اللهِ وَكَّلَهُ اللهُ إِلَى مَنْ طَلَبَهَا عِنْدَهُ وَلَنْ يَجِدَ شَيْئًا.

﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ [النساء: ١٤٠].

❁ ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ﴾ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ ﴿فِي الْكِتَابِ﴾ وَهِيَ قَوْلُهُ تَعَالَى فِي سُورَةِ الْأَنْعَامِ ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنعام: ٦٨].

➥ وَقَدْ أَمَرَ اللهُ تَعَالَى فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْمُؤْمِنِينَ بِالْإِعْرَاضِ عَنِ الْمُشْرِكِينَ الَّذِي يَخُوضُونَ فِي الْقُرْآنِ.

❁ ﴿أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ﴾؛ أَيْ: الْكَافِرِينَ وَالْمُسْتَهْزِئِينَ بِالْقُرْآنِ وَانْصَرِفُوا عَنْ مُجَالَسَتِهِمْ ﴿حَتَّى يَخُوضُوا﴾؛ أَيْ: حَتَّى يَتَحَدَّثُوا ﴿فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا﴾ إِنْ قَعَدْتُمْ مَعَهُمْ ﴿مِثْلُهُمْ﴾ فِي الْكُفْرِ إِنْ رَضِيتُمْ بِكَلَامِهِمْ وَاسْتِهْزَائِهِمْ لِأَنَّ اللهَ تَعَالَى قَالَ: ﴿إِنَّ اللهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ فَهُمْ لَمَّا شَارَكُوهُمْ فِي الْكُفْرِ، وَاجْتَمَعُوا عَلَى الِاسْتِهْزَاءِ بِالْآيَاتِ فِي الدُّنْيَا جَمَعَهُمُ اللهُ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

أَوْ ﴿مِثْلُهُمْ﴾ فِي الْإِثْمِ إِنْ لَمْ يَرْضَوْا وَاسْتَطَاعُوا الْإِنْكَارَ عَلَيْهِمْ وَلَمْ يُنْكِرُوا.

➤ **قَالَ الْقُرْطُبِيُّ -رَحِمَهُ اللهُ-**: "فَدَلَّ بِهَذَا عَلَى وُجُوبِ اجْتِنَابِ أَصْحَابِ الْمَعَاصِي إِذَا ظَهَرَ مِنْهُمْ مُنْكَرٌ، لِأَنَّ مَنْ لَمْ يَجْتَنِبْهُمْ فَقَدْ رَضِيَ فِعْلَهُمْ، وَالرِّضَا بِالْكُفْرِ كُفْرٌ، قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ﴾. فَكُلُّ مَنْ جَلَسَ فِي مَجْلِسِ مَعْصِيَةٍ وَلَمْ يُنْكِرْ عَلَيْهِمْ يَكُونُ مَعَهُمْ فِي الْوِزْرِ سَوَاءٌ، وَيَنْبَغِي أَنْ يُنْكِرَ عَلَيْهِمْ إِذَا تَكَلَّمُوا بِالْمَعْصِيَةِ وَعَمِلُوا بِهَا، فَإِنْ لَمْ يَقْدِرْ عَلَى النَّكِيرِ عَلَيْهِمْ فَيَنْبَغِي أَنْ يَقُومَ عَنْهُمْ حَتَّى لَا يَكُونَ مِنْ أَهْلِ هَذِهِ الْآيَةِ".[٢١٤]

[٢١٤] تفسير القرطبي (٥/ص: ٤١٨).

﴿ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمۡ فَإِن كَانَ لَكُمۡ فَتۡحٞ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓاْ أَلَمۡ نَكُن مَّعَكُمۡ وَإِن كَانَ لِلۡكَٰفِرِينَ نَصِيبٞ قَالُوٓاْ أَلَمۡ نَسۡتَحۡوِذۡ عَلَيۡكُمۡ وَنَمۡنَعۡكُم مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۚ فَٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ وَلَن يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لِلۡكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ سَبِيلًا﴾ [النساء: ١٤١].

❁ ﴿الَّذِينَ﴾ بَدَلٌ مِنَ الَّذِينَ قَبْلَهُ ﴿يَتَرَبَّصُونَ﴾ يَنْتَظِرُونَ مَا يَحِلُّ ﴿بِكُمْ﴾ مِنْ خَيْرٍ أَوْ شَرٍّ ﴿فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ﴾ نَصْرٌ وَظَفَرٌ وَغَنِيمَةٌ ﴿مِنَ اللهِ قَالُوا﴾ لَكُمْ عَلَى سَبِيلِ التَّوَدُّدِ وَالتَّقَرُّبِ ﴿أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ﴾ فِي الدِّينِ وَالْجِهَادِ فَأَعْطُونَا نَصِيبًا مِنَ الْخَيْرِ الَّذِي غَنِمْتُمُوهُ.

❁ ﴿وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ﴾ حَظٌّ مِنَ النَّصْرِ وَالظُّفَرِ؛ لِأَنَّ الْحَرْبَ سِجَالٌ ﴿قَالُوا﴾ لِلْكَافِرِينَ ﴿أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ﴾ نُسَاعِدْكُمْ ﴿عَلَيْكُمْ﴾ ﴿وَنَمْنَعْكُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ بِتَخْذِيلِهِمْ وَتَثْبِيطِهِمْ عَنْكُمْ ﴿فَاللهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ﴾ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ وَبَيْنَ هَؤُلَاءِ الْمُنَافِقِينَ ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ فَيُدْخِلُكُمْ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ الْجَنَّةَ، وَيُدْخِلُ الْمُنَافِقِينَ النَّارَ.

➥ **وَالْآيَةُ تُوَضِّحُ لَنَا:** صِفَةً مِنْ صِفَاتِ الْمُنَافِقِينَ، وَهِيَ التَّلَوُّنُ وَالتَّقَلُّبُ حَسَبَ الظُّرُوفِ، فَهُمْ أَمَامَ الْمُؤْمِنِينَ مُتَسَتِّرُونَ بِالْإِيمَانِ، وَأَمَامَ الْكُفَّارِ يَخْلَعُونَ ذَلِكَ السِّتَارَ عَنْ كَاهِلِهِمْ، فَيَظْهَرُونَ عَلَى حَقِيقَتِهِمْ، وَهُمْ فِي كُلِّ ذَلِكَ إِنَّمَا يُرِيدُونَ النَّيْلَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْإِيقَاعَ بِهِمْ وَالتَّحْرِيضَ عَلَيْهِمْ وَإِلْحَاقَ أَقْصَى دَرَجَاتِ الْأَذَى بِهِمْ.

❁ ﴿وَلَنْ يَجْعَلَ اللهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿سَبِيلًا﴾ حُجَّةً وَغَلَبَةً، وَاسْتَدَلَّ كَثِيرٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَنْ يَجْعَلَ اللهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ عَلَى عَدَمِ جَوَازِ بَيْعِ الْعَبْدِ الْمُسْلِمِ لِلْكَافِرِ إِذَا لَمْ يَعْتِقْ عَلَيْهِ.

﴿إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمۡ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ [النساء: ١٤٢].

❁ ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللهَ﴾ بِإِظْهَارِ الْإِسْلَامِ وَإِبْطَانِ الْكُفْرِ لِتَجْرِيَ عَلَيْهِمْ أَحْكَامُ الشَّرِيعَةِ فِي الظَّاهِرِ ﴿وَهُوَ خَادِعُهُمْ﴾ مُجَازِيهِمْ عَلَى خِدَاعِهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، لِأَنَّهُ عَصَمَ دِمَائَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ فِي الدُّنْيَا ﴿وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ﴾ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿قَامُوا كُسَالَى﴾ مُتَثَاقِلِينَ مُتَبَاطِئِينَ كَالْمُكْرَهِ عَلَى فِعْلِهَا، وَسَبَبُ ذَلِكَ أَنَّهُمْ لَا يَعْتَقِدُونَ ثَوَابًا فِي فِعْلِهَا وَلَا عِقَابًا عَلَى تَرْكِهَا.

❁ ﴿يُرَاءُونَ النَّاسَ﴾ بِصَلَاتِهِمْ ﴿وَلَا يَذْكُرُونَ اللهَ إِلَّا﴾ ذِكْرًا ﴿قَلِيلًا﴾ قَالَ الْحَسَنُ: "**لَوْ كَانَ ذَلِكَ الْقَلِيلُ لِلَّهِ تَعَالَى لَكَانَ كَثِيرًا**"[٢١٥]..

﴿مُّذَبۡذَبِينَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلٗا﴾ [النساء: ١٤٣].

❁ ﴿مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ﴾ مُتَرَدِّدِينَ مُتَحَيِّرِينَ بَيْنَ الْكُفْرِ وَالْإِيمَانِ ﴿لَا﴾ مَنْسُوبِينَ ﴿إِلَى هَؤُلَاءِ﴾؛ أَيْ: الْكُفَّارِ، ﴿وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ﴾؛ أَيْ: الْمُؤْمِنِينَ، بَلْ ظَاهِرُهُمْ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَبَاطِنُهُمْ مَعَ الْكَافِرِينَ ﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا﴾ طَرِيقًا يُوَصِّلُهُ إِلَى الْحَقِّ وَالْهُدَى وَالنُّورِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ﴾ [النور: ٤٠].

➥ **وَالْآيَةُ تَدُلُّ عَلَى**: تَذَبْذُبِ الْمُنَافِقِينَ وَشِدَّةِ حَيْرَتِهِمْ وَتَرَدُّدِهِمْ بَيْنَ الْكُفْرِ وَالْإِيمَانِ كَمَا رَوَى الْإِمَامُ مُسْلِمٌ عَنْ ابْنِ عُمَرَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَثَلُ الْمُنَافِقِ كَمَثَلِ الشَّاةِ الْعَائِرَةِ بَيْنَ الْغَنَمَيْنِ، تُعِيرُ إِلَى هَذِهِ مَرَّةً، وَإِلَى هَذِهِ مَرَّةً»[٢١٦]، وَقَوْلُهُ: «الْعَائِرَةِ» أَيْ: الْمُتَحَيِّرَةُ الْمُتَرَدِّدَةُ لَا تَدْرِي لِأَيِّهِمَا تَتْبَعُ.

---

[٢١٥] المجالسة وجواهر العلم لأحمد بن مروان الدينوري (٦/ص: ٣١٧).
[٢١٦] أخرجه مسلم (٢٧٨٤).

➥ وَرَوَى الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ فِي صَحِيحَيْهِمَا مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُ – أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «تَجِدُ مِنْ شَرِّ النَّاسِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ اللهِ ذَا الْوَجْهَيْنِ، الَّذِي يَأْتِي هَؤُلَاءِ بِوَجْهٍ وَهَؤُلَاءِ بِوَجْهٍ»[٢١٧].

❋ قَالَ الْمُنَاوِيُّ –رَحِمَهُ اللهُ–: "(ذُو الْوَجْهَيْنِ فِي الدُّنْيَا) قَالَ النَّوَوِيُّ: وَهُوَ الَّذِي يَأْتِي كُلَّ طَائِفَةٍ بِمَا تُحِبُّ، فَيَظْهَرُ لَهَا أَنَّهُ مِنْهَا، وَمُخَالِفٌ لِضِدِّهَا، وَصَنِيعُهُ خِدَاعٌ لِيَطَّلِعَ عَلَى أَحْوَالِ الطَّائِفَتَيْنِ ... فَإِنَّ ذَلِكَ أَصْلٌ مِنْ أُصُولِ النِّفَاقِ، يَكُونُ مَعَ قَوْمٍ، وَفِي حَالٍ، عَلَى صِفَةٍ، وَمَعَ آخَرِينَ بِخِلَافِهِمَا، وَالْمُؤْمِنُ لَيْسَ إِلَّا عَلَى حَالَةٍ وَاحِدَةٍ فِي الْحَقِّ، لَا يَخَافُ فِي اللهِ لَوْمَةَ لَائِمٍ، إِلَّا إِنْ كَانَ ثَمَّةَ مَا يُوجِبُ مُدَارَاةً، لِنَحْوِ اتِّقَاءِ شَرٍّ، أَوْ تَأْلِيفٍ، أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ...وَبِمَا تَقَرَّرَ عُرِفَ أَنَّهُ لَا تَدَافُعَ بَيْنَ هَذَا وَبَيْنَ قَوْلِ الْمُصْطَفَى –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– فِيمَنْ اسْتَأْذَنَ عَلَيْهِ : (بِئْسَ أَخُو الْعَشِيرَةِ) فَلَمَّا دَخَلَ أَلَانَ لَهُ الْقَوْلَ. وَقَوْلُ عَلِيٍّ: إِنَّا لَنَبِشُّ فِي وُجُوهِ أَقْوَامٍ وَقُلُوبِنَا تَلْعَنُهُمْ"[٢١٨].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ عَلَيۡكُمۡ سُلۡطَٰنٗا مُّبِينًا﴾ [النساء: ١٤٤].

❋ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ فَإِنَّهُ صَنِيعُ الْمُنَافِقِينَ وَدَيْدَنُهُمْ فَلَا تَتَشَبَّهُوا بِهِمْ ﴿أَتُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ بِمُوَالَاتِهِمْ ﴿سُلْطَانًا مُبِينًا﴾؛ أَيْ: حُجَّةً بَيِّنَةً يُعَذِّبُكُمْ بِهَا بِسَبَبِ ارْتِكَابِكُمْ لِمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ مِنْ مُوَالَاةِ الْكَافِرِينَ.

➥ وَالْآيَةُ فِيهَا: تَحْرِيمُ مَوَالَاةِ الْمُؤْمِنِينَ لِلْكَافِرِينَ، وَمُظَاهَرَتِهِمْ وَمُعَاوَنَتِهِمْ وَنُصْرَتِهِمْ، وَأَنَّ مُوَالَاتَهُمْ دَلِيلٌ عَلَى النِّفَاقِ، وَقَدْ أَبْدَى الْقُرْآنُ وَأَعَادَ فِي تَحْقِيقِ هَذَا الْأَصْلِ الْعَظِيمِ، فَلله الْمُشْتَكَى مِنْ وَاقِعِ الْمُسْلِمِينَ الْيَوْمَ وَبِهِ الْمُسْتَغَاثُ وَعَلَيْهِ التُّكْلَانُ وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ لَنَا إِلَّا بِهِ.

[٢١٧] أخرجه البخاري (٦٠٥٨)، ومسلم (١٨١٨).
[٢١٨] فيض القدير (٣/ص: ٥٦٨).

﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ [النساء: ١٤٥].

❁ ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنْ النَّارِ﴾؛ أَيْ: أَسْفَلَ طَبَقَاتِ النَّارِ وَالْعِيَاذُ بِالله ﴿وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ مَانِعًا يَمْنَعُهُمْ مِنْ عَذَابِ اللهِ أَوْ يَرْفَعُهُ عَنْهُمْ.

➥ **وَفِي الْآيَةِ:** دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الْمُنَافِقِينَ أَشَدُّ عَذَابًا مِنَ الْكُفَّارِ؛ لِأَنَّهُمْ عَصَمُوا دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ فِي الدُّنْيَا فَاسْتَحَقُّوا أَشَدَّ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَلِأَنَّهُمْ جَمَعُوا بَيْنَ الْكُفْرِ وَالِاسْتِهْزَاءِ بِالْإِسْلَامِ وَأَهْلِهِ.

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُوا۟ دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ١٤٦].

❁ ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا﴾ مِنَ النِّفَاقِ ﴿وَأَصْلَحُوا﴾ مَا أَفْسَدُوا مِنْ أَعْمَالِهِمْ ﴿وَاعْتَصَمُوا﴾ وَثِقُوا ﴿بِالله﴾ بِتَرْكِ مُوَالَاةِ الْكُفَّارِ، وَتَمَسَّكُوا بِدِينِ اللهِ وَشَرْعِهِ ﴿وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلهِ﴾ وَسَلِمُوا مِنْ شَوَائِبِ الرِّيَاءِ وَالنِّفَاقِ، فَمَنْ اتَّصَفَ بِهَذِهِ الصِّفَاتِ الْأَرْبَعِ الْمَذْكُورَةِ ﴿فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ الله الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ فِي الْآخِرَةِ وَهُوَ الْجَنَّةُ.

➥ **وَالْآيَةُ تَدُلُّ عَلَى:** كَرَمِ اللهِ وُجُودِهِ وَإِحْسَانِهِ حَيْثُ رَغَّبَهُمْ فِي التَّوْبَةِ وَفَتَحَ لَهُمْ بَابَهَا مَعَ أَنَّهُمْ مُنَافِقُونَ يُظْهِرُونَ الْإِيمَانَ وَيُبْطِنُونَ الْكُفْرَ.

﴿مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾ [النساء: ١٤٧].

❁ ﴿مَا يَفْعَلُ الله بِعَذَابِكُمْ) أَيُّهَا النَّاسُ ﴿إِنْ شَكَرْتُمْ﴾ نِعَمَهُ ﴿وَآمَنْتُمْ﴾ بِهِ إِيمَانًا صَادِقًا يُوَافِقُ فِيهِ الْقَلْبُ مَا أَظْهَرَهُ اللِّسَانُ، وَالِاسْتِفْهَامُ بِمَعْنَى النَّفْيِ؛ أَيْ: لَا يُعَذِّبُكُمْ، وَبِمَعْنَى الْإِنْكَارِ أَيْضًا؛ أَيْ: أَيُّ شَيْءٍ يَفْعَلُهُ اللهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ ﴿وَكَانَ اللهُ شَاكِرًا﴾ لِأَعْمَالِ الْمُؤْمِنِينَ يَقْبَلُ الْيَسِيرَ مِنْهَا وَيُعْطِي الْكَثِيرَ ﴿عَلِيمًا﴾ بِمَنْ يَسْتَحِقُّ الشُّكْرَ مِنْ خَلْقِهِ.

﴿۞ لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا﴾ [النساء: ١٤٨].

❁ ﴿لَا يُحِبُّ اللهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ﴾؛ أَيْ: لَا يُحِبُّ اللهُ تَعَالَى أَنْ يَجْهَرَ أَحَدٌ بِقَوْلِ السُّوءِ ﴿إِلَّا مَنْ ظُلِمَ﴾ فَيُبَاحُ لَهُ أَنْ يَجْهَرَ لِلشِّكَايَةِ مَثَلًا، كَأَنْ يَذْكُرَ مَنْ ظَلَمَهُ بِمَا فِيهِ مِنَ السُّوءِ أَوْ يَدْعُوَ عَلَيْهِ، وَقَدْ قَالَ ﷺ: «لَيُّ الْوَاجِدِ ظُلْمٌ يُحِلُّ عِرْضَهُ وَعُقُوبَتَهُ»[٢١٩].

❁ ﴿وَكَانَ اللهُ سَمِيعًا﴾ لِمَا يُقَالُ ﴿عَلِيمًا﴾ بِمَا يُفْعَلُ.

﴿إِن تُبْدُواْ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُواْ عَن سُوٓءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾ [النساء: ١٤٩].

❁ ﴿إِنْ تُبْدُوا﴾ تُظْهِرُوا ﴿خَيْرًا﴾ مِنْ أَعْمَالِ الطَّاعَةِ وَالْبِرِّ وَالْإِحْسَانِ ﴿أَوْ تُخْفُوهُ﴾ تَعْمَلُوهُ سِرًّا ﴿أَوْ تَعْفُوا عَنْ سُوءٍ﴾ ظُلْمٍ يَأْتِيكَ مِنْ أَخِيكَ الْمُسْلِمِ ﴿فَإِنَّ اللهَ كَانَ عَفُوًّا﴾ لِمَنْ عَفَى ﴿قَدِيرًا﴾ عَلَى الِانْتِقَامِ.

➥ **وَالْآيَةُ فِيهَا** التَّرْغِيبُ فِي فِعْلِ الْخَيْرِ وَأَعْمَالِ الْبِرِّ، كَمَا فِيهَا أَيْضًا التَّرْغِيبُ فِي الْعَفْوِ عَمَّنْ أَسَاءَ، وَهُوَ أَحَبُّ إِلَى اللهِ تَعَالَى مِنَ الِانْتِصَارِ؛ لِأَنَّهُ تَعَالَى وَصَفَ نَفْسَهُ بِالْعَفْوِ مَعَ الْقُدْرَةِ.

➥ **وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ –رَضِيَ اللهُ عَنْهُ– مَرْفُوعًا** «مَا نَقَصَتْ صَدَقَةٌ مِنْ مَالٍ، وَلَا زَادَ اللهُ عَبْدًا بِعَفْوٍ إِلَّا عِزًّا، وَمَا تَوَاضَعَ أَحَدٌ لِلهِ إِلَّا رَفَعَهُ اللهُ»[٢٢٠].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا﴾ [النساء: ١٥٠].

❁ ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللهِ وَرُسُلِهِ﴾ بِأَنْ يُؤْمِنُوا بِهِ وَيَكْفُرُوا بِهِمْ ﴿وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ﴾ مِنَ الرُّسُلِ ﴿وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ﴾ مِنْهُمْ كَمَا قَالَ الْيَهُودُ نُؤْمِنُ بِمُوسَى وَالتَّوْرَاةِ وَنَكْفُرُ بِمَا وَرَاءَ ذَلِكَ ﴿وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾؛ أَيْ: دِينًا وَسَطًا بَيْنَ الْإِيمَانِ وَالْكُفْرِ مَعَ أَنَّ هَذَا لَا يُمْكِنُ قَطْعًا؛ لِأَنَّ الْإِيمَانَ بِاللهِ تَعَالَى لَا يَتِمُّ إِلَّا بِالْإِيمَانِ بِالرُّسُلِ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

---

[٢١٩] أخرجه أبو داود (٣٦٢٨)، والنسائي (٤٦٨٦)، وابن ماجه (٢٤٢٧)، وأحمد (١٧٩٤٦).
[٢٢٠] أخرجه مسلم (٢٥٨٨).

وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾ [النساء: ١٥١]، فَدَلَّتْ الْآيَةُ عَلَى كُفْرِ مَنْ أَرَادَ التَّفْرِيقَ بَيْنَ اللهِ وَرُسُلِهِ وَآمَنَ بِبَعْضِ الرُّسُلِ وَكَفَرَ بِبَعْضٍ؛ لِأَنَّ الْكُفْرَ بِبَعْضِ الرُّسُلِ كُفْرٌ بِالله وَكُفْرٌ بِجَمِيعِ الرُّسُلِ عَلَيْهِمْ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى فِي سُورَةِ الشُّعَرَاءِ ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء: ١٠٥]، وَقَالَ: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء: ١٢٣]، وَقَالَ: ﴿كَذَبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء: ١٤١]، وَغَيْرُهَا مِنَ الْآيَاتِ فَجَعَلَ اللهُ تَعَالَى تَكْذِيبَهُمْ لِنَبِيِّهِمْ الْمُرْسَلِ إِلَيْهِمْ تَكْذِيبًا لِجَمِيعِ الرُّسُلِ.

﴿أُوْلَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾ [النساء:١٥١].

فدلت الآية على كفر من أراد التفريق بين الله ورسله وآمن ببعض الرسل وكفر ببعض لأن الكفر ببعض الرسل كفر بالله وكفر بجميع الرسل عليهم الصلاة والسلام ولهذا قال تعالى في سورة الشعراء (كذبت قوم نوح المرسلين) وقال (كذبت عاد المرسلين) وقال (كذبت ثمود المرسلين) وغيرها من الآيات فجعل الله تعالى تكذيبهم لنبيهم المرسل إليهم تكذيبا لجميع الرسل.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمۡ يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ أُوْلَٰٓئِكَ سَوۡفَ يُؤۡتِيهِمۡ أُجُورَهُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾ [النساء: ١٥٢].

❁ ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ﴾ كُلِّهِمْ ﴿وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ﴾ كَحَالِ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ فَإِنَّهُمْ يُؤْمِنُونَ بِكُلِّ الرُّسُلِ -عَلَيْهِمْ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- وَلَا يُفَرِّقُونَ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ، كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِن رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

﴿أُولَئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ﴾ ثَوَابَ إِيمَانِهِمْ بِاللهِ وَجَمِيعِ رُسُلِهِ ﴿وَكَانَ اللهُ غَفُورًا﴾ لِأَوْلِيَائِهِ ﴿رَحِيمًا﴾ بِأَهْلِ طَاعَتِهِ.

﴿يَسْئَلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓا۟ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ۚ ثُمَّ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ ۚ وَءَاتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا﴾ [النساء: ١٥٣].

❁ ﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ﴾ يَطْلُبُ الْيَهُودُ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ ﴿أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ﴾ كَمَا نَزَلَتْ التَّوْرَاةُ عَلَى مُوسَى جُمْلَةً فِي الْأَلْوَاحِ، وَإِنَّمَا طَلَبُوا ذَلِكَ عَلَى سَبِيلِ التَّعَنُّتِ وَالتَّهَكُّمِ وَالْعِنَادِ، بِدَلِيلِ ﴿فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ﴾ أَعْظَمَ ﴿مِنْ ذَلِكَ﴾؛ أَيْ: مِمَّا سَأَلُوك ﴿فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً﴾ عِيَانًا ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ﴾ الْمَوْتُ عِقَابًا لَهُمْ ﴿بِظُلْمِهِمْ﴾ وَهَذَا مَذْكُورٌ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ كَمَا قَالَ تَعَالَى ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنظُرُونَ (٥٥) ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [البقرة: ٥٥-٥٦].

↩ **وَنَظِيرُ سُؤَالِهِمْ** هَذَا مَا سَأَلَهُ كُفَّارُ قُرَيْشٍ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ حِينَ ﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنْبُوعًا (٩٠) أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأَنْهَارَ خِلالَهَا تَفْجِيرًا (٩١) أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ قَبِيلًا (٩٢) أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٠-٩٣].

❁ ﴿ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ﴾ إِلَهًا وَعَبَدُوهُ ﴿مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾ الْآيَاتُ التِّسْعُ الَّتِي أَظْهَرَهَا مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ لِفِرْعَوْنَ كَالْعَصَا وَالْيَدِ وَفَلَقِ الْبَحْرِ وَغَيْرِهَا، ﴿فَعَفَوْنَا عَنْ ذَلِكَ﴾ وَهَذَا وَاللَّهِ مِنْ أَعْظَمِ كَرَمِ اللَّهِ وَجُودِهِ وَإِحْسَانِهِ أَنَّهُمْ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ إِلَهًا وَعَبَدُوهُ، وَمَعَ عِظَمِ جُرْمِهِمْ إِلَّا أَنَّهُ سُبْحَانَهُ عَفَا عَنْهُمْ وَلَمْ يُؤَاخِذْهُمْ بِهِ، ﴿وَآتَيْنَا مُوسَى سُلْطَانًا مُبِينًا﴾؛ أَيْ: حُجَّةً بَيِّنَةً وَهِيَ الْآيَاتُ التِّسْعُ الَّتِي تَدُلُّ عَلَى صِدْقِ نُبُوَّتِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ ٱلطُّورَ بِمِيثَٰقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا۟ فِى ٱلسَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾ [النساء: ١٥٤].

❁ ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ﴾ لَمَّا امْتَنَعُوا مِنْ قَبُولِ التَّوْرَاةِ رَفَعَ اللهُ تَعَالَى فَوْقَ رُؤُوسِهِمْ ﴿الطُّورَ﴾ الْجَبَلَ لِيَقْبَلُوا التَّوْرَاةَ، فَلَمَّا رَفَعَهُ اللهُ تَعَالَى وَجَعَلُوا يَنْظُرُونَ إِلَيْهِ وَخَافُوا أَنْ يَسْقُطَ عَلَيْهِمْ قَبِلُوهَا كَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَى فِي سُورَةِ الْأَعْرَافِ ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾.

❁ ﴿وَقُلْنَا لَهُمْ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا﴾ فَخَالَفُوا مَا أَمَرَهُمُ اللهُ بِهِ مُخَالَفَةً تَامَّةً وَدَخَلُوا يَزْحَفُونَ عَلَى أَدْبَارِهِمْ، كَمَا قَدْ مَضَى بَيَانُهُ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ ﴿وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا﴾؛ أَيْ: لَا تَعْتَدُوا ﴿فِي السَّبْتِ﴾ بِاصْطِيَادِ الْحِيتَانِ فِيهِ وَلَمْ يَمْتَثِلُوا هَذَا الْأَمْرَ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ﴾ [البقرة: ٦٥]، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ﴾ [الأعراف: ١٦٣] الْآيَةَ، ﴿وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾ عَهْدًا مُؤَكَّدًا فَنَقَضُوهُ.

﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ١٥٥].

❁ ﴿فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ﴾؛ أَيْ: لَعَنَّاهُمْ بِسَبَبِ نَقْضِهِمْ لِلْعُهُودِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً﴾ [المائدة: ١٣] الْآيَةَ.

❁ ﴿وَكُفْرِهِمْ بِآيَاتِ اللهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ﴾ لِلنَّبِيِّ ﷺ ﴿قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾ مُغَطَّاةٌ لَا نَفْهَمُ كَلَامَكَ ﴿بَلْ طَبَعَ﴾ خَتَمَ ﴿اللهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾ فَلَا يَصِلُ إِلَيْهَا الْخَيْرُ وَالْهُدَى، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا﴾ إِيمَانًا ﴿قَلِيلًا﴾ لَا يَنْفَعُهُمْ، وَفِي الْآيَةِ أَنَّ اللهَ تَعَالَى لَا يُعَاقِبُ أَحَدًا إِلَّا بِذَنْبٍ لِقَوْلِهِ: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ﴾.

﴿وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ١٥٦].

❁ ﴿وَبِكُفْرِهِمْ﴾ مَعْطُوفٌ عَلَى مَا قَبْلَهُ؛ أَيْ: وَكَذَلِكَ لَعَنَّاهُمْ بِسَبَبِ كُفْرِهِمْ، وَكَرَّرَهُ لِلتَّأْكِيدِ ﴿وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا﴾ حَيْثُ رَمَوْهَا بِالزِّنَا وَهِيَ بَرِيئَةٌ مِنْهُ.

﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا﴾ [النساء: ١٥٧].

❁ ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللهِ﴾ مَعْطُوفٌ أَيْضًا عَلَى مَا قَبْلَهُ؛ أَيْ: وَكَذَلِكَ لَعَنَّاهُمْ بِسَبَبِ قَوْلِهِمْ: إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ، وَهَذَا الْقَوْلُ وَإِنْ كَانَ مُخَالِفٌ لِلْحَقِيقَةِ، إِلَّا أَنَّهُ فِي ذَاتِهِ مُوجِبٌ لِلَعْنَتِهِمْ وَغَضَبِ اللهِ عَلَيْهِمْ؛ لِأَنَّهُ قَالُوهُ عَلَى سَبِيلِ التَّفَاخُرِ لِقَتْلِهِمْ نَبِيًّا مِنْ أَنْبِيَاءِ اللهِ تَعَالَى.

❁ ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ﴾؛ أَيْ: أَلْقَى اللهُ عَلَيْهِمْ شِبْهَهُ فَظَنُّوهُ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ فَقَتَلُوهُ وَصَلَبُوهُ، وَهُمْ يَظُنُّونَ بِأَنَّهُمْ قَتَلُوا عِيسَى، فَقَالَ اللهُ تَعَالَى تَكْذِيبًا لَهُمْ ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾؛ أَيْ: فِي عِيسَى ﴿لَفِي شَكٍّ مِنْهُ﴾ مِنْ قَتْلِهِ، حَيْثُ قَالَ بَعْضُهُمْ هُوَ هُوَ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ لَيْسَ هُوَ، فَأَجْمَعُوا أَنَّهُمْ قَتَلُوا شَخْصًا لَكِنِ اخْتَلَفُوا مَنْ هُوَ؟ مَنِ الَّذِي شَبَّهَ؟

➥ **قِيلَ**: إِنَّ الَّذِي شَبَّهَ هُوَ نَفْسُهُ الَّذِي دَلَّ الْيَهُودَ عَلَى عِيسَى؛ لِأَنَّ الْيَهُودَ كَانُوا يَبْحَثُونَ عَنْ عِيسَى، وَعِيسَى -كَمَا تَعْلَمُونَ- كَانَ يَسِيحُ فِي الْأَرْضِ هُوَ وَأُمُّهُ خَوْفًا عَلَى نَفْسِهِ مِنَ الْيَهُودِ، فَقِيلَ لَهُمْ: إِنَّهُ كَانَ فِي الْبَيْتِ الْفُلَانِيِّ. فَأَرْسَلُوا أَمَّةً لِقَتْلِهِ، وَكَانَ دَلِيلُهُمْ وَاحِدًا مِنْهُمْ، فَلَمَّا وَصَلُوا إِلَى الْبَيْتِ الَّذِي هُوَ فِيهِ وَأَصْحَابُهُ -نَحْوُ ثَلَاثَةَ عَشَرَ نَفَرٍ أَوْ اثْنَيْ عَشَرَ- دَخَلَ الَّذِي يَدُلُّ عَلَيْهِ لِيَتَأَكَّدَ، فَلَمَّا دَخَلَ أَلْقَى اللهُ عَلَيْهِ شِبْهَ عِيسَى، عُومِلَ بِنَقِيضِ قَصْدِهِ، فَدَخَلَ الْيَهُودُ فَأَمْسَكُوهُ، عِيسَى عِيسَى، قَالَ: أَنَا صَاحِبُكُمْ. قَالُوا: أَنْتَ عِيسَى. فَقَتَلُوهُ وَصَلَبُوهُ.

أَمَّا عِيسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فَيُقَالُ: إِنَّ اللهَ فَتَحَ لَهُ كُوَّةً فِي الْجِدَارِ وَخَرَجَ مِنْ غَيْرِ الْبَابِ، رَفَعَهُ اللهُ إِلَيْهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

➥ **وَقِيلَ**: إِنَّ الَّذِي شَبَّهَ رَجُلٌ مِنْ قَوْمِهِ؛ مِنْ قَوْمِ عِيسَى، فَقَالَ لِقَوْمِهِ الثَّلَاثَةَ عَشَرَ نَفَرًا قَالَ: مَنْ يَصْبِرُ عَلَى الْقَتْلِ فَيُلْقِي اللهُ عَلَيْهِ شَبَهِي وَهُوَ رَفِيقِي فِي الْجَنَّةِ. فَقَامَ شَابٌّ مِنْهُمْ وَقَالَ: أَنَا. فَكَأَنَّهُمْ اسْتَصْغَرُوهُ، فَأَعَادَهَا مَرَّةً ثَانِيَةً أَوْ ثَالِثَةً فَقَالَ: أَنَا. قَالَ: أَنْتَ ذَاكَ. فَأَلْقَى اللهُ شِبْهَهُ عَلَيْهِ وَنَجَا عِيسَى، وَهَذَا الشَّابُّ هُوَ الَّذِي دَخَلَ الْيَهُودُ عَلَيْهِ فَقَتَلُوهُ وَصَلَبُوهُ.

❁ ﴿**مَا لَهُمْ بِهِ**﴾ بِقَتْلِهِ ﴿**مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ**﴾ اسْتِثْنَاءٌ مُنْقَطِعٌ؛ أَيْ: مَا لَهُمْ بِقَتْلِهِ مِنْ عِلْمٍ لَكِنَّهُمْ يَتْبِعُونَ الظَّنَّ ﴿**وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا**﴾ نَعْتٌ لِمَصْدَرٍ مَحْذُوفٍ؛ أَيْ: وَمَا قَتَلُوهُ مُتَيَقِّنِينَ كَمَا ادَّعَوْا ذَلِكَ بَلْ شَاكِّينَ.

﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيۡهِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٥٨].

﴿**بَلْ رَفَعَهُ اللهُ إِلَيْهِ**﴾؛ أَيْ: رَفَعَهُ بِبَدَنِهِ وَرُوحِهِ جَمِيعًا إِلَى السَّمَاءِ الثَّانِيَةِ مَعَ ابْنِ خَالَتِهِ يَحْيَى، لَكِنَّ يَحْيَى لَيْسَ مَرْفُوعًا فِي حَالِ حَيَاتِهِ، إِنَّمَا هُوَ مَرْفُوعٌ بَعْدَ أَنْ مَاتَ، ﴿**وَكَانَ اللهُ عَزِيزًا حَكِيمًا**﴾؛ أَيْ: ذَا عِزَّةٍ، وَالْعِزَّةُ قَالَ الْعُلَمَاءُ: إِنَّهَا ثَلَاثَةُ أَقْسَامٍ: عِزَّةُ الْقَهْرِ، وَعِزَّةُ الْقَدْرِ، وَعِزَّةُ الِامْتِنَاعِ، فَفِي الْآيَةِ رَدٌّ وَإِنْكَارٌ لِقَتْلِهِ وَإِثْبَاتٌ لِرَفْعِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَقَدْ مَضَى الْكَلَامُ عَنْ هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ عِنْدَ تَفْسِيرِنَا لِسُورَةِ آلِ عِمْرَانَ.

﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾ [النساء: ١٥٩].

❁ ﴿وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾؛ أَيْ: وَمَا أَحَدٌ مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى ﴿إِلَّا﴾ وَاللهِ ﴿لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ﴾ بِعِيسَى بَعْدَ نُزُولِهِ آخِرَ الزَّمَانِ حَيْثُ يَكْسِرُ الصَّلِيبَ وَيَقْتُلُ الْخِنْزِيرَ وَلَا يَقْبَلُ إِلَّا الْإِسْلَامَ.

➥ كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَيُوشِكَنَّ أَنْ يَنْزِلَ فِيكُمْ ابْنُ مَرْيَمَ حَكَمًا عَدْلًا فَيَكْسِرَ الصَّلِيبَ، وَيَقْتُلَ الْخِنْزِيرَ، وَيَضَعَ الْجِزْيَةَ، وَيَفِيضُ الْمَالُ حَتَّى لَا يَقْبَلَهُ أَحَدٌ، حَتَّى تَكُونَ السَّجْدَةُ خَيْرًا مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا. ثُمَّ يَقُولُ أَبُو هُرَيْرَةَ: اقْرَؤُوا إِنْ شِئْتُمْ: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾»[٢٢١].

❁ ﴿قَبْلَ مَوْتِهِ﴾ الْأَقْرَبُ أَنَّ الضَّمِيرَ أَيْضًا يَرْجِعُ إِلَى عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ لِأَنَّ الْقَاعِدَةَ أَنَّ تَوْحِيدَ مَرْجِعِ الضَّمَائِرِ أَوْلَى مِنْ تَفْرِيقِهَا، فَالضَّمَائِرُ السَّابِقَةُ كُلُّهَا تَرْجِعُ إِلَى عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَيُؤْمِنُ الْيَهُودِيُّ وَالنَّصْرَانِيُّ بِعِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ قَبْلَ مَوْتِهِ، وَلَا يَنْفَعُهُ إِيمَانُهُ كَمَا لَمْ يَنْفَعْ فِرْعَوْنَ إِيمَانُهُ عِنْدَ الْمُعَايَنَةِ ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ﴾ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾ فَيَشْهَدُ عَلَى مَنْ كَذَّبَهُ وَعَلَى مَنْ صَدَّقَهُ.

﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا﴾ [النساء: ١٦٠].

❁ ﴿فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا﴾؛ أَيْ: فَبِسَبَبِ ظُلْمِ الْيَهُودِ ﴿حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾ هِيَ الَّتِي ذَكَرَهَا اللهُ تَعَالَى فِي سُورَةِ الْأَنْعَامِ بِقَوْلِهِ ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾.

﴿وَبِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللهِ﴾ عَنْ دِينِهِ ﴿كَثِيرًا﴾ مِنَ النَّاسِ.

[٢٢١] أخرجه البخاري (٣٤٤٨)، ومسلم (١٥٥).

﴿وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰاْ وَقَدْ نُهُواْ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [النساء: ١٦١].

❁ ﴿وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ﴾ فِي التَّوْرَاةِ ﴿وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ﴾ بِأَخْذِهَا بِغَيْرِ حَقٍّ ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ دُونَ مَنْ أَسْلَمَ كَعَبْدِ اللهِ بْنِ سَلَامٍ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- وَغَيْرِهِ فَهَؤُلَاءِ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ

﴿لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ وَٱلْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ ۚ وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ وَٱلْمُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ١٦٢].

❁ ﴿لَكِنْ الرَّاسِخُونَ﴾ الْمُتَمَكِّنُونَ ﴿فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ﴾ مِنَ الْيَهُودِ كَعَبْدِ اللهِ بْنِ سَلَامٍ ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ مِنَ الْيَهُودِ، وَقِيلَ: مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ وَهُوَ الْأَظْهَرُ ﴿يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾؛ أَيْ: الْقُرْآنُ ﴿وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ مِنَ الْكُتُبِ كَالتَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ.

❁ ﴿وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةِ﴾ نُصِبَ بِإِضْمَارِ فِعْلٍ لِبَيَانِ فَضْلِ الصَّلَاةِ، وَالتَّقْدِيرُ: أَمْدَحُ الْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ الَّذِينَ يُؤَدُّونَهَا عَلَى وَجْهِ الْكَمَالِ، وَقُرِئَ بِالرَّفْعِ ﴿وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أُولَئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ هُوَ الْجَنَّةُ، لِجَمْعِهِمْ بَيْنَ الْإِيمَانِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ.

﴿۞ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا﴾ [النساء: ١٦٣].

❁ ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ يَا مُحَمَّدُ ﴿كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ﴾ كَإِدْرِيسَ وَهُودٍ وَصَالِحٍ وَشُعَيْبٍ وَلُوطٍ وَغَيْرِهِمْ، فَلَسْتَ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ كَمَا قَالَ تَعَالَى عَلَى لِسَانِ نَبِيِّهِ ﴿قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ [الأحقاف: ٩].

❁ ﴿كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ﴾ ابْنَيْهِ ﴿وَيَعْقُوبَ﴾ ابْنِ إِسْحَاقَ ﴿وَالْأَسْبَاطِ﴾ أَبْنَاءُ يَعْقُوبَ عَلَيْهِمْ السَّلَامُ وَكَانُوا اثْنَيْ عَشَرَ ﴿وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا﴾ وَأَعْطَيْنَا أَبَاهُ ﴿دَاوُدَ زَبُورًا﴾ وَهُوَ الْكِتَابُ الْمُنَزَّلُ عَلَى دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٤].

﴿وَرُسُلًا﴾ مَفْعُولٌ بِهِ لِفِعْلٍ مَحْذُوفٍ تَقْدِيرُهُ: أَرْسَلْنَا أَوْ أَوْحَيْنَا ﴿قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا كَثِيرِينَ ﴿لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ﴾ فِي الْقُرْآنِ ﴿وَكَلَّمَ اللهُ مُوسَى﴾ خَاطَبَهُ مُخَاطَبَةً مِنْ غَيْرِ وَاسِطَةٍ، وَهَذِهِ مَنْقَبَةٌ عَظِيمَةٌ لِمُوسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَاسْتَدَلَّ أَهْلُ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ بِهَذِهِ الْآيَةِ أَنَّ اللهَ يَتَكَلَّمُ بِكَلَامٍ حَقِيقِيٍّ، مَتَى شَاءَ وَكَيْفَ شَاءَ، بِمَا شَاءَ، بِحَرْفٍ وَصَوْتٍ، لَا يُمَاثِلُ أَصْوَاتَ الْمَخْلُوقِينَ.

➥ **وَعَلَى هَذَا**: فَصِفَةُ الْكَلَامِ صِفَةُ ذَاتٍ، وَهِيَ أَيْضًا صِفَةُ فِعْلٍ، فَهِيَ بِاعْتِبَارِ أَصْلِهِ صِفَةُ ذَاتٍ؛ لِأَنَّ اللهَ لَمْ يَزَلْ وَلَا يَزَالُ مُتَكَلِّمًا، وَبِاعْتِبَارِ آحَادِهِ فَهِيَ صِفَةُ فِعْلٍ؛ لِأَنَّهُ يَتَكَلَّمُ بِمَا شَاءَ مَتَى شَاءَ.

➥ **وَمِنَ الْأَدِلَّةِ عَلَى أَنَّ اللهَ تَعَالَى يَتَكَلَّمُ كَلَامًا يَلِيقُ بِجَلَالِهِ قَوْلُهُ تَعَالَى**: ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ﴾ [الأعراف: ١٤٣]، وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «يَقُولُ اللهُ تَعَالَى: يَا آدَمُ، فَيَقُولُ: لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ، فَيُنَادِي بِصَوْتٍ: إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكَ أَنْ تُخْرِجَ مِنْ أُمَّتِكَ بَعْثًا إِلَى النَّارِ»[٢٢٢].

[٢٢٢] أخرجه البخاري (٧٤٨٣)، ومسلم (٢٢٢).

وَيَقُولُ أَهْلُ السُّنَّةِ "إِنَّ الْقُرْآنَ جَمِيعَهُ كَلَامُ اللهِ، حُرُوفُهُ وَمَعَانِيهِ، لَيْسَ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ كَلَامًا لِغَيْرِهِ، وَلَكِنْ أَنْزَلَهُ عَلَى رَسُولِهِ ﷺ، وَلَيْسَ الْقُرْآنُ اسْمًا لِمُجَرَّدِ الْمَعْنَى، وَلَا لِمُجَرَّدِ الْحَرْفِ، بَلْ لِمَجْمُوعِهِمَا، وَكَذَلِكَ سَائِرُ الْكَلَامِ لَيْسَ هُوَ الْحُرُوفَ فَقَطْ، وَلَا الْمَعَانِي فَقَطْ، كَمَا أَنَّ الْإِنْسَانَ الْمُتَكَلِّمَ النَّاطِقَ لَيْسَ هُوَ مُجَرَّدَ الرُّوحِ، وَلَا مُجَرَّدَ الْجَسَدِ، بَلْ مَجْمُوعُهَا، وَإِنَّ اللهَ تَعَالَى يَتَكَلَّمُ بِصَوْتٍ كَمَا جَاءَتْ بِهِ الْأَحَادِيثُ الصِّحَاحُ، وَلَيْسَ ذَلِكَ كَأَصْوَاتِ الْعِبَادِ، وَلَا صَوْتِ الْقَارِئِ وَلَا غَيْرِهِ، وَإِنَّ اللهَ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ لَا فِي ذَاتِهِ، وَلَا فِي صِفَاتِهِ، وَلَا فِي أَفْعَالِهِ، فَكَمَا لَا يُشْبِهُ عِلْمُهُ وَقُدْرَتُهُ وَحَيَاتُهُ عِلْمَ الْمَخْلُوقِ وَقُدْرَتَهُ وَحَيَاتَهُ، فَكَذَلِكَ لَا يُشْبِهُ كَلَامُهُ كَلَامَ الْمَخْلُوقِ، وَلَا مَعَانِيهِ تُشْبِهُ مَعَانِيَهُ، وَلَا حُرُوفُهُ تُشْبِهُ حُرُوفَهُ، وَلَا صَوْتُ الرَّبِّ يُشْبِهُ صَوْتَ الْعَبْدِ، فَمَنْ شَبَّهَ اللهَ بِخَلْقِهِ فَقَدْ أَلْحَدَ فِي أَسْمَائِهِ وَآيَاتِهِ، وَمَنْ جَحَدَ مَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ فَقَدْ أَلْحَدَ فِي أَسْمَائِهِ وَآيَاتِهِ".[٢٢٣]

﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٦٥].

❁ ﴿رُسُلًا﴾ مَنْصُوبٌ بِفِعْلٍ مُقَدَّرٍ قَبْلَهُ؛ أَيْ: وَأَرْسَلْنَا رُسُلًا ﴿مُبَشِّرِيْنَ﴾ مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا بِالثَّوَابِ ﴿وَمُنْذِرِينَ﴾ مَنْ كَفَرَ بِالْعِقَابِ، وَقَدْ أَرْسَلَ اللهُ تَعَالَى الرُّسُلَ ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ وَلَمْ يُبَيِّنْ هُنَا مَا هَذِهِ الْحُجَّةُ وَلَكِنَّهُ بَيَّنَهَا فِي سُورَةِ الْمَائِدَةِ بِقَوْلِهِ: ﴿أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [المائدة: ١٩]، وَبِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنَخْزَى﴾ [طه: ١٣٤]، وَبِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَوْلَا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [القصص: ٤٧].

[٢٢٣] مجموع الفتاوى لشيخ الإسلام (١٢/ص: ٢٤٤).

➥ وَ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ الْمُغِيرَةِ بْنِ شُعْبَةَ –رَضِيَ اللهُ عَنْهُ– قَالَ : قَالَ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ: «لَوْ رَأَيْتُ رَجُلًا مَعَ امْرَأَتِي لَضَرَبْتُهُ بِالسَّيْفِ غَيْرَ مُصْفَحٍ، فَبَلَغَ ذَلِكَ رَسُولَ اللهِ ﷺ فَقَالَ: أَتَعْجَبُونَ مِنْ غَيْرَةِ سَعْدٍ، وَاللهِ لِأَنَا أَغْيَرُ مِنْهُ، وَاللهُ أَغْيَرُ مِنِّي، وَمِنْ أَجْلِ غَيْرَةِ اللهِ حَرَّمَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ، وَلَا أَحَدَ أَحَبُّ إِلَيْهِ الْعُذْرُ مِنَ اللهِ، وَمِنْ أَجْلِ ذَلِكَ بَعَثَ الْمُبَشِّرِينَ وَالْمُنْذِرِينَ، وَلَا أَحَدَ أَحَبُّ إِلَيْهِ الْمِدْحَةَ مِنَ اللهِ، وَمِنْ أَجْلِ ذَلِكَ وَعَدَ اللهُ الْجَنَّةَ»[٢٢٤].

➥ وَثَبَتَ أَيْضًا فِي الصَّحِيحَيْنِ مِنْ حَدِيثِ ابْنِ مَسْعُودٍ –رَضِيَ اللهُ عَنْهُ– عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «لَيْسَ أَحَدٌ أَحَبَّ إِلَيْهِ الْمَدْحَ مِنَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ مَدَحَ نَفْسَهُ، وَلَيْسَ أَحَدٌ أَغْيَرَ مِنَ اللهِ، مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ حَرَّمَ الْفَوَاحِشَ، وَلَيْسَ أَحَدٌ أَحَبَّ إِلَيْهِ الْعُذْرُ مِنَ اللهِ، مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ أَنْزَلَ الْكِتَابَ وَأَرْسَلَ الرُّسُلَ»[٢٢٥].

۞ **فَفِي هَذِهِ النُّصُوصِ**: الْحِكْمَةُ مِنْ إِرْسَالِ الرُّسُلِ وَإِنْزَالِ الْكُتُبِ، وَهِيَ إِقَامَةُ الْحُجَّةِ عَلَى النَّاسِ وَالْإِنْذَارُ وَالْإِعْذَارُ مِنْهُمْ، وَفِيهَا أَيْضًا دَلَالَةٌ وَاضِحَةٌ عَلَى ثُبُوتِ الْعُذْرِ بِالْجَهْلِ فَمَنْ لَمْ تَبْلُغْهُ الرِّسَالَةُ فَإِنَّهُ مَعْذُورٌ لِجَهْلِهِ.

☆ **وَمِنَ الْأَدِلَّةِ عَلَى هَذِهِ الْمَسَالَةِ الْعَظِيمَةِ**: قَوْله تَعَالَى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥].

قَالَ الشَّنْقِيطِيُّ فِي "أَضْوَاءِ الْبَيَانِ": "ظَاهِرُ هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ أَنَّ اللهَ لَا يُعَذِّبُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِهِ حَتَّى يَبْعَثَ إِلَيْهِ رَسُولًا يُنْذِرُهُ وَيُحَذِّرُهُ، فَيَعْصِي ذَلِكَ الرَّسُولَ، وَيَسْتَمِرُّ عَلَى الْكُفْرِ وَالْمَعْصِيَةِ بَعْدَ الْإِنْذَارِ وَالْإِعْذَارِ، وَادَّعَى بَعْضُهُمْ بِأَنَّ الْعَذَابَ الْمَنْفِيَّ فِي الْآيَةِ عَذَابُ الدُّنْيَا، وَأُجِيبَ عَنْهُ مِنْ وَجْهَيْنِ:

– **الْأَوَّلُ**: أَنَّهُ خِلَافُ ظَاهِرِ الْقُرْآنِ؛ لِأَنَّ ظَاهِرَ الْقُرْآنِ انْتِفَاءُ الْعَذَابِ مُطْلَقًا، فَهُوَ أَعَمُّ مِنْ كَوْنِهِ فِي الدُّنْيَا، وَصَرْفُ الْقُرْآنِ عَنْ ظَاهِرِهِ مَمْنُوعٌ إِلَّا بِدَلِيلٍ يَجِبُ الرُّجُوعُ إِلَيْهِ.

[٢٢٤] أخرجه البخاري (٧٤١٦)، ومسلم (١٤٩٩).
[٢٢٥] أخرجه البخاري (٤٦٣٤)، ومسلم (٢٧٦٠).

- **وَالْوَجْهُ الثَّانِي**: أَنَّ الْقُرْآنَ دَلَّ فِي آيَاتٍ كَثِيرَةٍ عَلَى شُمُولِ التَّعْذِيبِ الْمَنْفِيِّ فِي الْآيَةِ التَّعْذِيبَ فِي الْآخِرَةِ؛ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ * قَالُوا بَلَى﴾ [الملك: ٨ - ٩]، وَهُوَ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ جَمِيعَ أَفْوَاجِ أَهْلِ النَّارِ مَا عُذِّبُوا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا بَعْدَ إِنْذَارِ الرُّسُلِ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾، قَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ فِي الْفَتَاوَى الْكُبْرَى: "وَلَا يَثْبُتُ الْخِطَابُ إِلَّا بَعْدَ الْبُلُوغِ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾ وَقَوْلِهِ ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾، وَقَوْلِهِ ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ وَمِثْلُ هَذَا فِي الْقُرْآنِ مُتَعَدِّدٌ، بَيَّنَ سُبْحَانَهُ أَنَّهُ لَا يُعَاقِبُ أَحَدًا حَتَّى يَبْلُغَهُ مَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ ﷺ، وَلَا يُعَذِّبُهُ اللهُ تَعَالَى عَلَى مَا لَمْ يَبْلُغْهُ، فَإِنَّهُ إِذَا لَمْ يُعَذِّبْهُ عَلَى تَرْكِ الْإِيمَانِ إِلَّا بَعْدَ بُلُوغِ الْحُجَّةِ؛ فَإِنَّهُ لَا يُعَذِّبُهُ عَلَى بَعْضِ شَرَائِعِهِ إِلَّا بَعْدَ الْبُلُوغِ".[٢٢٦]

- **وعَنْ أَبِي وَاقِدٍ اللَّيْثِيِّ**، قَالَ: " خَرَجْنَا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ قِبَلَ حُنَيْنٍ، فَمَرَرْنَا بِسِدْرَةٍ، فَقُلْنَا: يَا نَبِيَّ اللهِ، اجْعَلْ لَنَا هَذِهِ ذَاتَ أَنْوَاطٍ كَمَا لِلْكُفَّارِ ذَاتُ أَنْوَاطٍ، وَكَانَ الْكُفَّارُ يَنُوطُونَ سِلَاحَهُمْ بِسِدْرَةٍ، وَيَعْكُفُونَ حَوْلَهَا. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «اللهُ أَكْبَرُ، هَذَا كَمَا قَالَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ لِمُوسَى: اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ» إِنَّكُمْ تَرْكَبُونَ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ".[٢٢٧]

فَهَؤُلَاءِ طَلَبُوا مِنَ النَّبِيِّ ﷺ شَجَرَةً يَتَبَرَّكُونَ بِهَا كَمَا يَفْعَلُ الْمُشْرِكُونَ سَوَاءً بِسَوَاءٍ، وَلَمْ يُكَفِّرْهُمُ النَّبِيُّ ﷺ بِأَعْيَانِهِمْ بَلْ عَذَرَهُمْ بِجَهْلِهِمْ وَأَخْبَرَهُمْ أَنَّ مَا سَأَلُوهُ هُوَ الْكُفْرُ بِعَيْنِهِ، وَهُوَ مَا سَأَلَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ كَمَا فِي قَوْلِه تَعَالَى ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَل لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ (١٣٨) إِنَّ هَؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ مَا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٣٩) قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ١٣٨-١٤٠].

---

[٢٢٦] أضواء البيان (١/ص: ٣٣٥).
[٢٢٧] أخرجه أحمد في المسند (٢١٨٩٧)، والترمذي (٢١٨٠) وقال: حسن صحيح.

قَالَ الشَّيْخُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ الْمُعَلِّمِيُّ: "يَظْهَرُ مِنْ جَوَابِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّهُ وَإِنْ أَنْكَرَ عَلَيْهِمْ جَهْلَهُمْ: لَمْ يَجْعَلْ طَلَبَهُمْ ارْتِدَادًا عَنِ الدِّينِ، وَيَشْهَدُ لِذَلِكَ أَنَّهُمْ لَمْ يُؤَاخَذُوا هُنَا، كَمَا أُوخِذُوا بِهِ عِنْدَ اتِّخَاذِهِمُ الْعِجْلَ، فَكَأَنَّهُمْ هُنَا -وَاللهُ أَعْلَمُ- عُذِرُوا بِقُرْبِ عَهْدِهِمْ"[٢٢٨].

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَا يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ -يَعْنِي: أُمَّةَ الدَّعْوَةِ- يَهُودِيٌّ وَلَا نَصْرَانِيٌّ ثُمَّ يَمُوتُ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَّا كَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ»[٢٢٩].

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: "أَنَّ رَجُلًا كَانَ قَبْلَكُمْ رَغَسَهُ -أَيْ رَزَقَهُ- اللهُ مَالًا، فَقَالَ لِبَنِيهِ لَمَّا حَضَرَ: أَيَّ أَبٍ كُنْتُ لَكُمْ؟ قَالُوا: خَيْرُ أَبٍ. قَالَ: فَإِنِّي لَمْ أَعْمَلْ خَيْرًا قَطُّ؛ فَإِذَا مِتُّ فَأَحْرِقُونِي، ثُمَّ اسْحَقُونِي، ثُمَّ ذَرُونِي فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ، فَفَعَلُوا فَجَمَعَهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ فَقَالَ: مَا حَمَلَكَ؟ قَالَ: مَخَافَتُكَ، فَتَلَقَّاهُ بِرَحْمَتِهِ"[٢٣٠].

وَفِي رِوَايَةٍ عِنْدَ مُسْلِمٍ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ-، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «أَسْرَفَ رَجُلٌ عَلَى نَفْسِهِ، فَلَمَّا حَضَرَهُ الْمَوْتُ أَوْصَى بَنِيهِ فَقَالَ: إِذَا أَنَا مِتُّ فَأَحْرِقُونِي، ثُمَّ اسْحَقُونِي، ثُمَّ اذْرُونِي فِي الرِّيحِ فِي الْبَحْرِ، فَوَاللهِ لَئِنْ قَدَرَ عَلَيَّ رَبِّي، لَيُعَذِّبَنِي عَذَابًا مَا عَذَّبَهُ أَحَدًا، قَالَ: فَفَعَلُوا ذَلِكَ بِهِ، فَقَالَ لِلْأَرْضِ: أَدِّ مَا أَخَذْتِ، فَإِذَا هُوَ قَائِمٌ. فَقَالَ لَهُ: مَا حَمَلَكَ عَلَى مَا صَنَعْتَ؟ فَقَالَ: خَشْيَتُكَ يَا رَبِّ! أَوْ قَالَ: مَخَافَتَكَ! فَغَفَرَ لَهُ بِذَلِكَ»[٢٣١].

قَالَ الْحَافِظُ فِي الْفَتْحِ: (قَالَ الْخَطَّابِيُّ: قَدْ يُسْتَشْكَلُ هَذَا فَيُقَالُ: كَيْفَ يُغْفَرُ لَهُ وَهُوَ مُنْكِرٌ لِلْبَعْثِ وَالْقُدْرَةُ عَلَى إِحْيَاءِ الْمَوْتَى؟ وَالْجَوَابُ: أَنَّهُ لَمْ يُنْكِرِ الْبَعْثَ وَإِنَّمَا جَهِلَ فَظَنَّ أَنَّهُ إِذَا فُعِلَ بِهِ ذَلِكَ لَا يُعَادُ فَلَا يُعَذَّبُ، وَقَدْ ظَهَرَ إِيمَانُهُ بِاعْتِرَافِهِ بِأَنَّهُ إِنَّمَا فَعَلَ ذَلِكَ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ. قَالَ ابْنُ قُتَيْبَةَ: قَدْ يَغْلَطُ فِي بَعْضِ الصِّفَاتِ قَوْمٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ فَلَا يَكْفُرُونَ بِذَلِكَ)[٢٣٢].

---

[٢٢٨] رفع الاشتباه عن معنى العبادة والإله، ضمن آثار المعلمي (٢/ص: ١٤٢).
[٢٢٩] أخرجه مسلم (١٥٣).
[٢٣٠] أخرجه البخاري (٣٤٧٨)، ومسلم (٢٧٥٧).
[٢٣١] أخرجه مسلم (٢٧٥٦).
[٢٣٢] فتح الباري (٦/ص: ٥٢٢).

﴿لَّكِنِ ٱللَّهُ يَشۡهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيۡكَۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلۡمِهِۦۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَشۡهَدُونَۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ١٦٦].

❁ ﴿لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ﴾ هَذَا الِاسْتِدْرَاكُ مِنْ مَحْذُوفٍ تَقْدِيرُهُ: إِنْ جَحَدَ الْيَهُودُ نُبُوَّتَكَ وَرِسَالَتَكَ وَلَمْ يَشْهَدُوا بِهَا فَاللَّهُ تَعَالَى يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ مِنَ الْوَحْيِ وَالْقُرْآنِ ﴿أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ﴾؛ أَيْ: أَنْزَلَهُ وَهُوَ عَالِمٌ بِهِ، أَوْ أَنْزَلَهُ وَهُوَ عَالِمٌ بِأَنَّ نَبِيَّنَا ﷺ أَهْلٌ لِهَذِهِ الْمُهِمَّةِ الْعَظِيمَةِ وَسَيَقُومُ بِهَا خَيْرَ قِيَامٍ ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ﴾ لَكَ أَيْضًا ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ عَلَى صِحَّةِ نُبُوَّتِكَ وَلَوْ لَمْ يَشْهَدْ غَيْرُهُ، وَهُوَ جَلَّ وَعَلَا خَيْرُ الشَّاهِدِينَ.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ قَدۡ ضَلُّواْ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا﴾ [النساء: ١٦٧].

❁ ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بِاللَّهِ ﴿وَصَدُّوا﴾ النَّاسَ ﴿عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ دِينِ الْإِسْلَامِ بِإِنْكَارِهِمْ نُبُوَّةَ مُحَمَّدٍ ﷺ وَهُمُ الْيَهُودُ ﴿قَدْ ضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ عَنِ الْحَقِّ، لِأَنَّهُمْ مَعَ كُفْرِهِمْ صَدُّوا غَيْرَهُمْ عَنِ الْحَقِّ، جَمَعُوا بَيْنَ الضَّلَالِ وَالْإِضْلَالِ.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ لَمۡ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغۡفِرَ لَهُمۡ وَلَا لِيَهۡدِيَهُمۡ طَرِيقًا (١٦٨) إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٗا﴾ [النساء: ١٦٩].

❁ ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بِاللَّهِ ﴿وَظَلَمُوا﴾ أَنْفُسَهُمْ، وَظَلَمُوا غَيْرَهُمْ ﴿لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ﴾ إِذَا اسْتَمَرُّوا عَلَى كُفْرِهِمْ ﴿وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا﴾ سَبِيلًا إِلَى الْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ.

﴿إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾ هَيِّنًا سَهْلًا؛ لِأَنَّهُ سُبْحَانَهُ قَادِرٌ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلۡحَقِّ مِن رَّبِّكُمۡ فَـَٔامِنُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ وَإِن تَكۡفُرُواْ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا﴾ [النساء: ١٧٠].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ الْخِطَابُ لِلنَّاسِ كُلِّهِمْ، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى عُمُومِ رِسَالَتِهِ ﷺ ﴿قَدْ جَاءَكُمُ الرَّسُولُ﴾ مُحَمَّدٌ ﷺ ﴿بِالْحَقِّ﴾ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ الَّذِي هُوَ الْإِسْلَامُ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ﴾ [التوبة: ٣٣].

❁ ﴿مِنْ رَبِّكُمْ﴾؛ أَيْ: مِنْ عِنْدِ رَبِّكُمْ ﴿فَآمِنُوا﴾ بِهِ ﷺ وَانْقَادُوا لِشَرِيعَتِهِ، ﴿خَيْرًا﴾ خَبَرٌ لِكَانَ الْمَحْذُوفَةِ مَعَ اسْمِهَا؛ أَيْ: فَآمِنُوا بِهِ يَكُنْ إِيمَانُكُمْ خَيْرًا ﴿لَكُمْ وَإِنْ تَكْفُرُوا﴾ أَيُّهَا النَّاسُ بِهِ ﷺ ﴿فَإِنَّ لله مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ مَلَكًا وَخَلْقًا وَعَبِيدًا وَتَصَرُّفًا، وَالْفَاءُ فِي (فَإِنَّ) رَابِطَةٌ لِجَوَابِ الشَّرْطِ، وَجَوَابُ الشَّرْطِ مَحْذُوفٌ تَقْدِيرُهُ فَلَا يَضُرُّهُ كُفْرُكُمْ كَمَا لَا يَنْفَعُهُ إِيمَانُكُمْ أَوْ فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى غَنِيٌّ عَنْكُمْ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ﴾ [الزمر: ٧]، ﴿وَكَانَ اللهُ عَلِيمًا﴾ بِخَلْقِهِ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْ أَعْمَالِهِمْ ﴿حَكِيمًا﴾ فِي تَدْبِيرِهِ لَهُمْ.

﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۖ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَٞۚ ٱنتَهُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ سُبۡحَانَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٞۘ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا﴾ [النساء: ١٧١].

❁ ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ﴾ الْخِطَابُ لِلْيَهُودِ وَالنَّصَارَى كُلِّهِمْ، فَإِنَّهُمْ كُلَّهُمْ غَلَوْا فِي شَأْنِ عِيسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فَالْيَهُودُ غَلَوْا فِي بُغْضِهِ وَكُرْهِهِ مِمَّا جَعَلَهُمْ يَرْمُونَهُ وَأُمَّهُ بِالْعَظَائِمِ وَيَصِفُونَهُمَا بِأَقْبَحِ الْأَوْصَافِ، وَالنَّصَارَى غَلَوْا فِي حُبِّهِ وَتَقْدِيسِهِ، فَرَفَعُوهُ إِلَى مَرْتَبَةِ الْأُلُوهِيَّةِ، فَهَذَا كُلُّهُ مِنَ الْغُلُوِّ، وَإِنْ كَانَ ظَاهِرُ السِّيَاقِ أَنَّ الْخِطَابَ لِلنَّصَارَى، لِأَنَّهُ قَالَ: ﴿إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾ إِلَّا أَنَّ هَذَا لَا يَمْنَعُ مِنْ عُمُومِ الْخِطَابِ فِي أَوَّلِهِ ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ خَصَّ النَّصَارَى.

❁ ﴿لَا تَغْلُوا﴾ تَتَجَاوَزُوا الْحَدَّ ﴿فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللهِ إِلَّا﴾ الْقَوْلَ ﴿الْحَقَّ﴾ مِنْ تَنْزِيهِهِ عَنِ الصَّاحِبَةِ وَالْوَلَدِ ﴿إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللهِ﴾ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ﴾ [المائدة: ٧٥].

❁ ﴿وَكَلِمَتُهُ﴾ وَهِيَ قَوْلُهُ لِعِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ (كُنْ) فَكَانَ مِنْ غَيْرِ أَبٍ ﴿أَلْقَاهَا﴾ أَوْصَلَهَا اللهُ ﴿إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ﴾؛ أَيْ: ذُو رُوحٍ وَجَسَدٍ كَغَيْرِهِ.

❁ ﴿مِنْهُ﴾ أُضِيفَ إِلَيْهِ تَعَالَى تَشْرِيفًا لَهُ وَلَيْسَتْ لِلتَّبْعِيضِ كَمَا يَقُولُهُ النَّصَارَى قَبَّحَهُمُ اللهُ، وَقَالُوا: إِنَّ عِيسَى ابْنَ اللهِ وَجُزْءٌ مِنْهُ ﴿فَآمِنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ﴾ (ثَلَاثَةٌ) خَبَرٌ لِمُبْتَدَأٍ مَحْذُوفٍ تَقْدِيرُهُ: لَا تَقُولُوا آلِهَتُنَا ثَلَاثَةٌ؛ لِأَنَّهُمْ يَقُولُونَ اللهُ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾ [المائدة: ٧٣].

❁ ﴿انْتَهُوا﴾ عَنِ التَّثْلِيثِ يَكُنِ الِانْتِهَاءُ ﴿خَيْرًا لَكُمْ﴾ فَ ﴿خَيْرًا﴾ مَنْصُوبَةٌ عَلَى أَنَّهَا خَبَرٌ لِ(يَكُنْ) الْمَحْذُوفَةِ وَالتَّقْدِيرُ كَمَا ذَكَرْنَا، ﴿إِنَّمَا اللهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ﴾؛ أَيْ: هُوَ مُنَزَّهٌ عَنْ ﴿أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ خَلْقًا وَمَلْكًا وَعَبِيدًا، لَا يُمَاثِلُهُ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ فَيَتَّخِذُهُ وَلَدًا ﴿وَكَفَى بِاللهِ وَكِيلًا﴾ شَهِيدًا عَلَى ذَلِكَ.

﴿لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۚ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا﴾ [النساء: ١٧٢].

❁ ﴿لَنْ يَسْتَنْكِفَ﴾ لَنْ يَأْنَفَ وَيَتَرَفَّعَ ﴿الْمَسِيحُ﴾ الَّذِي زَعَمْتُمْ أَنَّهُ إِلَهٌ عَنْ ﴿أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ﴾ عِنْدَ اللهِ لَا يَسْتَنْكِفُونَ أَنْ يَكُونُوا عَبِيدًا، فَإِنَّ خُضُوعَ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْمَخْلُوقَاتِ كُلُّهَا لِلَّهِ تَعَالَى تَشْرِيفٌ لَيْسَ بَعْدَهُ تَشْرِيفٌ كَمَا قَالَ الْقَائِلُ:

وَمِمَّا زَادَنِي شَرَفًا وَتِيهًا ... وَكِدْتُ بِأَخْمُصِي أَنْ أَطَأَ الثُّرَيَّا

دُخُولِي تَحْتَ قَوْلِكَ يَا عِبَادِي ... وَأَنْ صَيَّرْتَ أَحْمَدَ لِي نَبِيًّا

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمۡ أُجُورَهُمۡ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضۡلِهِۦۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسۡتَنكَفُواْ وَٱسۡتَكۡبَرُواْ فَيُعَذِّبُهُمۡ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا﴾ [النساء: ١٧٣].

❁ ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ وَلَمْ يَسْتَنْكِفُوا وَلَمْ يَسْتَكْبِرُوا ﴿فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ﴾ ثَوَابَ أَعْمَالِهِمْ كَامِلَةً ﴿وَيَزِيدُهُمْ﴾ عَلَى أُجُورِهِمْ ﴿مِنْ فَضْلِهِ﴾ بِمُضَاعَفَةِ الْحَسَنَاتِ أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً وَالرِّضَا وَالنَّظَرِ عَلَى وَجْهِهِ الْكَرِيمِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ أَنْوَاعِ النَّعِيمِ؛ لِأَنَّ اللهَ تَعَالَى ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ.

❁ ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنْكَفُوا﴾ عَنْ عِبَادَةِ اللهِ تَعَالَى ﴿وَاسْتَكْبَرُوا﴾ عَنْهَا ﴿فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ مُوجِعًا ﴿وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللهِ﴾؛ أَيْ: غَيْرِهِ ﴿وَلِيًّا﴾ يَدْفَعُهُ عَنْهُمْ ﴿وَلَا نَصِيرًا﴾ يَمْنَعُهُمْ مِنْهُ.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُم بُرۡهَٰنٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ نُورٗا مُّبِينٗا﴾ [النساء: ١٧٤].

❁ ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ﴾ دَلِيلٌ صَادِقٌ وَحُجَّةٌ وَاضِحَةٌ وَهُوَ نَبِيُّنَا مُحَمَّدٌ ﷺ فَلَمْ يَبْقَ بَعْدَ هَذَا الْبُرْهَانِ عُذْرٌ لِمُعْتَذِرٍ ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا﴾ بَيِّنًا وَهُوَ الْقُرْآنُ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلا الإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ [الشورى: ٥٢].

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَٱعۡتَصَمُواْ بِهِۦ فَسَيُدۡخِلُهُمۡ فِي رَحۡمَةٖ مِّنۡهُ وَفَضۡلٖ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَيۡهِ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمًا﴾ [النساء: ١٧٥].

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ﴾ بِاللهِ كَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [آل عمران: ١٠١]، أَوْ اعْتَصِمُوا بِالْقُرْآنِ وَتَمَسَّكُوا بِهِ، وَلَا شَكَّ أَنَّ مَنْ اعْتَصَمَ بِالْقُرْآنِ اعْتَصَمَ بِاللهِ ﴿فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ﴾؛ أَيْ: جَنَّةٍ ﴿وَفَضْلٍ﴾ وَزِيَادَةٍ كَالنَّظَرِ إِلَى وَجْهِهِ الْكَرِيمِ وَغَيْرِهِ مِنَ النَّعِيمِ الَّذِي لَا يَخْطُرُ عَلَى قُلُوبِهِمْ، نَسْأَلُ اللهَ تَعَالَى الْكَرِيمَ مِنْ فَضْلِهِ وَنَعِيمِهِ.

❁ ﴿وَيَهْدِيهِمْ﴾ وَيُرْشِدُهُمْ ﴿إِلَيْهِ﴾ عَزَّ وَجَلَّ ﴿صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ طَرِيقًا لَا اعْوِجَاجَ فِيهِ كَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ﴾ [الأنعام: ١٥٣]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ١٦١].

﴿يَسۡتَفۡتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفۡتِيكُمۡ فِي ٱلۡكَلَٰلَةِۚ إِنِ ٱمۡرُؤٌاْ هَلَكَ لَيۡسَ لَهُۥ وَلَدٞ وَلَهُۥٓ أُخۡتٞ فَلَهَا نِصۡفُ مَا تَرَكَۚ وَهُوَ يَرِثُهَآ إِن لَّمۡ يَكُن لَّهَا وَلَدٞۚ فَإِن كَانَتَا ٱثۡنَتَيۡنِ فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَۚ وَإِن كَانُوٓاْ إِخۡوَةٗ رِّجَالٗا وَنِسَآءٗ فَلِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۗ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ أَن تَضِلُّواْۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمُۢ﴾ [النساء: ١٧٦].

➥ عَنِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ –رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا– قَالَ: آخِرُ سُورَةٍ نَزَلَتْ: "بَرَاءَةٌ"، وَآخِرُ آيَةٍ نَزَلَتْ: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ﴾".[٢٣٣]

➥ وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ –رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا– قَالَ: "دَخَلَ عَلَيَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ، وَأَنَا مَرِيضٌ لَا أَعْقِلُ، قَالَ: فَتَوَضَّأَ، ثُمَّ صَبَّ عَلَيَّ –أَوْ قَالَ صَبُّوا عَلَيْهِ– فَعَقَلْتُ فَقُلْتُ: إِنَّهُ لَا يَرِثُنِي إِلَّا كَلَالَةً، فَكَيْفَ الْمِيرَاثُ؟ قَالَ: فَنَزَلَتْ آيَةُ الْفَرَائِضِ".[٢٣٤]

وَقَدْ أَشْكَلَتْ مَسْأَلَةُ الْكَلَالَةِ عَلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ –رَضِيَ اللهُ عَنْهُ– كَمَا ثَبَتَ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ أَنَّهُ قَالَ: "إِنِّي لَا أَدَعُ بَعْدِي شَيْئًا أَهَمَّ عِنْدِي مِنَ الْكَلَالَةِ، مَا رَاجَعْتُ رَسُولَ اللهِ –

[٢٣٣] أخرجه البخاري (٤٦٥٤)، ومسلم (١٦١٨).
[٢٣٤] أخرجه البخاري (١٩٤)، ومسلم (١٦١٦).

صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فِي شَيْءٍ مَا رَاجَعْتُهُ فِي الْكَلَالَةِ، وَمَا أَغْلَظَ لِي فِي شَيْءٍ مَا أَغْلَظَ لِي فِيهِ، حَتَّى طَعَنَ بِإِصْبَعِهِ فِي صَدْرِي، وَقَالَ: يَا عُمَرُ، أَلَا تَكْفِيكَ آيَةُ الصَّيْفِ الَّتِي فِي آخِرِ سُورَةِ النِّسَاءِ، وَإِنِّي إِنْ أَعِشْ أَقْضِ فِيهَا بِقَضِيَّةٍ يَقْضِي بِهَا مَنْ يَقْرَأُ الْقُرْآنَ، وَمَنْ لَا يَقْرَأُ الْقُرْآنَ".[٢٣٥]

➥ **وَثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ أَنَّهُ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- قَالَ:** " ثَلَاثٌ أَيُّهَا النَّاسُ، وَدِدْتُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ عَهِدَ إِلَيْنَا فِيهِنَّ عَهْدًا نَنْتَهِي إِلَيْهِ: الْجَدُّ، وَالْكَلَالَةُ، وَأَبْوَابٌ مِنْ أَبْوَابِ الرِّبَا"[٢٣٦]، وَلَعَلَّ سَبَبَ اسْتِشْكَالِ عُمَرَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- لَهَا لِأَنَّهَا تَتَعَلَّقُ بِالْأَمْوَالِ وَالْحُقُوقِ، وَهِيَ مَبْنِيَّةٌ عَلَى الْمُشَاحَّةِ لَا عَلَى الْمُسَامَحَةِ.

❁ ﴿يَسْتَفْتُونَكَ﴾؛ أَيْ: يَسْأَلُونَكَ أَيُّهَا النَّبِيُّ فِي الْكَلَالَةِ ﴿قُلِ اللهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ إِنْ امْرُؤٌ﴾ فَاعِلٌ لِفِعْلٍ يُفَسِّرُهُ ﴿هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ﴾ لَا ذَكَرٌ وَلَا أُنْثَى، وَلَيْسَ لَهُ وَالِدٌ أَيْضًا بِدَلِيلِ أَنَّهُ وَرَّثَ الْإِخْوَةَ، فَإِذَا هَلَكَ هَالِكٌ وَلَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَا وَالِدٌ ﴿وَلَهُ أُخْتٌ﴾ شَقِيقَةٌ أَوْ لِأَبٍ ﴿فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ﴾ مِنْ بَعْدِ الدَّيْنِ وَالْوَصِيَّةِ كَمَا تَقَدَّمَ.

❁ ﴿وَهُوَ﴾؛ أَيْ: الْأَخُ كَذَلِكَ ﴿يَرِثُهَا﴾ جَمِيعَ مَا تَرَكَتْ ﴿إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ﴾ فَإِنْ كَانَ لَهَا وَلَدٌ ذَكَرٌ فَلَا شَيْءَ لَهُ أَوْ أُنْثَى فَلَهَا النِّصْفُ وَلَهُ الْبَاقِي.

➥ **كَمَا ثَبَتَ فِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ عَنْ هُزَيْلِ بْنِ شُرَحْبِيلَ قَالَ:** "سُئِلَ أَبُو مُوسَى الْأَشْعَرِيُّ عَنْ بِنْتٍ، وَبِنْتِ ابْنٍ، وَأُخْتٍ؟ فَقَالَ: لِلْبِنْتِ النِّصْفُ، وَلِلْأُخْتِ النِّصْفُ، وَائْتِ ابْنَ مَسْعُودٍ فَسَيُتَابِعُنِي، فَسَأَلَ ابْنَ مَسْعُودٍ فَأَخْبَرَهُ بِقَوْلِ أَبِي مُوسَى، فَقَالَ: لَقَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ، أَقْضِي فِيهَا بِمَا قَضَى النَّبِيُّ ﷺ: النِّصْفُ لِلْبِنْتِ، وَلِبِنْتِ الِابْنِ السُّدُسُ تَكْمِلَةُ لِلثُّلُثَيْنِ، وَمَا بَقِيَ فَلِلْأُخْتِ، فَأَتَيْنَا أَبَا مُوسَى فَأَخْبَرْنَاهُ بِقَوْلِ ابْنِ مَسْعُودٍ فَقَالَ: لَا تَسْأَلُونِي مَا دَامَ هَذَا الْحَبْرُ فِيكُمْ"[٢٣٧].

---

[٢٣٥] أخرجه مسلم (١٦١٧).
[٢٣٦] أخرجه البخاري (٥٥٨٨)، ومسلم (٣٠٣٢).
[٢٣٧] أخرجه البخاري (٦٧٣٦).

وَهَكَذَا إِنْ كَانَ مَعَ الْأَخِ صَاحِبُ فَرْضٍ صُرِفَ إِلَيْهِ فَرْضُهُ وَأَخَذَ الْأَخُ الْبَاقِيَ، كَزَوْجٍ وَأَخٍ، فَالزَّوْجُ لَهُ النِّصْفُ وَالْبَاقِي لِلْأَخِ، لِقَوْلِهِ ﷺ كَمَا فِي حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ: (أَلْحِقُوا الْفَرَائِضَ بِأَهْلِهَا، فَمَا أَبْقَتْ الْفَرَائِضُ فَلِأَوْلَى رَجُلٍ ذَكَرٍ)[٢٣٨].

❁ ﴿فَإِنْ كَانَتَا﴾؛ أَيْ: الْأُخْتَانِ ﴿اثْنَتَيْنِ﴾؛ أَيْ: فَصَاعِدًا؛ لِأَنَّهَا نَزَلَتْ فِي جَابِرٍ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- كَمَا تَقَدَّمَ وَقَدْ مَاتَ عَنْ أَخَوَاتٍ ﴿فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ﴾ الْأَخُ ﴿وَإِنْ كَانُوا﴾؛ أَيْ: الْوَرَثَةُ ﴿إِخْوَةً رِجَالًا وَنِسَاءً﴾ مِنْ أَبٍ وَأُمٍّ أَوْ مِنْ أَبٍ ﴿فَلِلذَّكَرِ﴾ مِنْهُمْ ﴿مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ﴾ أَحْكَامَ دِينِكُمْ ﴿أَنْ تَضِلُّوا﴾ كيلا تَضِلُّوا أَوْ كَرَاهَةَ أَنْ تَضِلُّوا ﴿وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ بِمَا يُصْلِحُ أَحْوَالَ الْعِبَادِ، وَبِمَنْ يُخَالِفُ تَشْرِيعَاتِهِ وَأَحْكَامَهُ.

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ النِّسَاءِ، وَالْحَمْدُ للهِ الَّذِي بِنِعْمَتِهِ وَكَرَمِهِ تَتِمُّ الصَّالِحَاتُ

وَكَانَ الْفَرَاغُ مِنْهُ يَوْمَ الْخَمِيسِ الْمُوَافِقِ ٢٨/ ٢/ ١٤٤٢هـ

[٢٣٨] أخرجه البخاري (٦٧٣٢)، ومسلم (١٦١٥).